الأب جوّرج رحمه
الراهب الأنطوني

ترتوليانوس القرطاجي

موسوعة
"عظماء المسيحيّة في التاريخ"
٧

الطبعة الأولى ١٩٩٣

منشورات
المركز الرّعوي للأبحاث والدّراسات
الرئاسة العامّة للرهبانيّة الأنطونيّة المارونيّة
دير مار روكز - الدّكوانة - لبنان

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلّف
وللرهبانيّة الأنطونيّة المارونيّة

الأب جورج رحمه
الراهب الأنطوني

ترتوليانوس القرطاجي

موسوعة
«عظماء المسيحيّة في التاريخ»
٧

للمؤلف

في اللغة العربية:

١ـ رسالة في فضيلة العفاف لايليّا النصّيبيني، مقدمة وتحقيق، مجلة المشرق، ١٩٦٧.
٢ـ الجوّ الالهي لتيار دي شاردن، ترجمة بالاشتراك مع المطران عبده خليفه، بيروت ١٩٧١.
٣ـ الارامية السريانية، لغة وتراث (اربع لغات: سرياني ـ عربي ـ فرنسي ـ انكليزي)، الجزء الأول من عشرة اجزاء، بيروت ١٩٨٠.
٤ـ مع الله (نجاوى)، الجزء الاول من ستة اجزاء، بيروت ١٩٨١.
٥ـ المسيحية: ملحمة آلام وبطولة وقداسة. مقدمة عامة للموسوعة. الكتاب الاول من الموسوعة، ١٩٩٢.
٦ـ اغناطيوس الانطاكي، كليمنضوس الروماني، بوليكربوس الازميري: الكتاب الثاني من الموسوعة، ١٩٩٢.
٧ـ يوستينوس الروماني، اثيناغورس الاثيني: الكتاب الثالث من الموسوعة، ١٩٩٢.
٨ـ هرماس الراعي، تيوفيلوس الانطاكي، تاسيانوس السرياني: الكتاب الرابع من الموسوعة، ١٩٩٢.
٩ـ ايريناوس: اسقف مدينة ليون: الكتاب الخامس من الموسوعة، ١٩٩٢.
١٠ـ كليمنضوس الاسكندري: الكتاب السادس من الموسوعة، ١٩٩٣.
١١ـ أوريجانوس الاسكندري: الكتاب العاشر من الموسوعة، ١٩٩٢.

في اللغة الفرنسية

1 - Le drame de l'humanisme athée ou le Pour-Autrui dans l'Etre et le Néant de Jean-Paul Sartre, Beyrouth 1978.
2 - Le problème du mal dans la pensée du père Teilhard de Chardin, Beyrouth 1979.
3 - Coordonnées de la Crise Libanaise, Centre de Documentation et de Recherches (CEDRE), Beyrouth 1979.
4 - Jawad Boulos: Philosophe de l'histoire, Beyrouth 1981.
5 - La Vision Cosmique et Mystique chez Teilhard de Chardin, Beyrouth 1982.
6 - Teilhard de Chardin: Mystique Savant. Publishing and-Marketing House (CEDRE), Betrouth 1984.

للطبع:

١ـ الكاهن (رسالة جوابية من كاهن ماروني الى درزيّ موحّد)
٢ـ الراهب والسياسة
٣ـ الكنيسة الكاثوليكية والماسونية
٤ـ دراسات فلسفية لاهوتية
٥ـ الرهبان الانطونيون وتاريخ لبنان
٦ـ أجمل ما قرأت
٧ـ مفهوم الديمقراطية عند تيار دي شاردن.
٨ـ العلم والمسيح لتيار دي شاردن، ترجمة بالاشتراك مع المطران عبده خليفة.

الإهداء

إلى كنيستي التي أحبّت

من خلال عظمائها الذين أحيوها

بدمائهم كشهداء وبمعاناتهم

كمضطهدين في قلبها

وإلى رهبانيتي الأنطونيّة المارونيّة

التي حضنتني وعلّمتني لكي أخدم المسيح

وكنيسته وشعبه والإنسان من خلالها

راجيًا منه تعالى أن يُبارك عملي هذا

خدمةً للنفوس وترسيخًا للإيمان.

ترتوليانوس القرطاجي

ترتوليانوس القرطاجي
(١٥٥ - ٢٢٥)

مقدّمـــة

"أعطوني المعلّم". بهذه الكلمـــــة كـــان القديـــس "قبريانوس" القرطاجي ينهي يومه، حاملاً معه الى فراشه أحـد مؤلفات "ترتوليانوس" ليقرأ بعض مقاطعه ويتأمّل بها قبـل أن يخلد الى النوم.

وفي الواقع، لقد كان هذا القرطاجي العظيم، موضوع دراستنا في هذا الكتاب السابع من موسوعة "عظماء المسيحية في التاريخ"، معلّماً بكـل معنى الكلمة، إن في الآداب أو في الفلســفة أو في الرياضيـات، وبنـــوع خـــاص في القـــانون واللاهـوت. عنـه أخـذ "قبريـانوس" نفسـه، و"ايرونيمـوس"، و"نوفاسـيانوس"، و"ديديمـوس الأعمـى"، و"هيراكليـــانوس"، و"غريغوريوس الإلفيري"، وحتى "أغوســطينوس"، والكتّاب المسيحيّون اللاحقون الذين ركّـزوا منطقهـم اللاهوتـي على المعطيات التي طرحها في مؤلفاته عن الثـالوث الأقـدس وسـرّ التجسّد وسرّ الفداء وسرّ العماد وســرّ الافخارسـتيا، وجميـع الاسرار الباقيـة، في تحديداتهـا وشـرحها وتفسـيرها الكتـابي. وإن كان للاهوت الكنيسة، باللغة اللاتينيّة، أن يفخر في أمر،

ففخره أن "ترتوليانوس" هو الذي حدّد المفـــاهيم وطـــرح المفردات التي لـم تزل تسـتعمل لغايـة الآن، والـتي استندت إليها جميع المجامع المسـكونية، ابتـداءً بمجمـع نقيـا سـنة ٣٢٥ مسيحيّة، خصوصاً في ما يختـص بتحديـد اللاهـوت الثـالوثي واللاهوت المسيحاني ولاهـوت الاسـرار. زد علـى ذلـك أن طبعه الثوري هو الذي جعله يحارب الهرطقـات الـتي ضربـت الكنيسة في الصميم، لا سيّما الهرطقات المسيحانية، بعنفٍ لـم يسبق له مثيل، وبمنطقٍ قانوني جعـل منـه مرجعاً لغايـة الآن، خصوصاً في كتابه "إقصاء الهراطقة". أمّا تشدّده في المســلكيّة المسيحيّة، الذي تميّز به، فلقد كان نابعاً من قناعتـه أنـه ليـس بامكان الانسان أن يخدم اللـه والعالـم في آن، فإمّا اللـه وإمّـا العالـم، ولا حدّ وسط بين الاثنين. وهـذا التشـدّد هـو الـذي جعلـه يبتعـد شـيئاً فشـيئاً عـن الكنيسـة الكاثوليكيـة لأنهـا تسامحت، الى حدٍّ ما، مع الخطأة، معتبراً أنَّ هذا التسامح غير واردٍ بعد نيل سـرّ العمـاد مـع الفسّـاق والفجّـار والملحديـن والهراطقة، حتى ولو كانت ندامتهم علنيّة. فسـرّ العمـاد، في نظره، هو سرّ مغفرة الخطايا، وسـرّ نيـل نعمـة الخـلاص الـتي ليس بالامكان التفريط بها بعـد أن يغـدق اللـه علـى المعمّـد بهـذه النعمـة السـامية. كذلـك مواقفـه المتشـدّدة مـن بعـض الاساقفة الذين كانوا يعلنون عن أمور كـان لا يقرّهـا هـو في منطقه، الأمر الـذي جعلـه يفـرّق بـين كنيسـة "النفسـانيّين"، وكنيسة "الروحـانيّين" الـتي اعتـبر نفسـه واحـداً منهـا وراح

يدافع عنها. ورغم اعلانه الدائم أن الكنيسة هي "أمّ"، فلقد كان له مفهومه الخاص لهذه الكنيسة، مشدّداً على الحقيقة الانجيليّة التي لا تقبل الالتباس، والتي فرّط بها كثيرون من المسؤولين عنها. ولقد اعتبر نفسه سيّد الوحي الخاص وملفانه، بعد أن كان، في أوّل عهده، الخادم الأمين للتعليم التقليدي الذي دافع عنه بوجه الوثنية واليهودية والهرطقات المتعدّدة.

فهذا الملتزم بالكثلكة في أوّل عهده بعد ارتداده الى المسيحيّة، والمعتنق "المونتانية" بعد انفصاله عن هذه الكثلكة ليؤسّس بعدئذٍ جماعته "الترتوليانية"، كان ولم يزل مرجعاً كبيراً في كنيسة المسيح، رغم بعض الفوارق التي أبعدته عن ايمانه الأوّل. له الفضل في طرح أسس اللاهوت المسيحي، وله الفضل ايضاً في اعطاء صورة الالتزام الحقيقي المجرّد. ومهما قيل عنه، فهو قمّة مسيحيّة في رؤياه الايمانية، وفي رؤياه الانسانية، وفي رؤياه الكونيّة المسيحانيّة الشاملة، وفي تحقيق الهدف الذي سعى الى تحقيقه من خلال جميع مؤلفاته في حقول الفلسفة واللاهوت والكتاب المقدس والقانون والتصوّف المسيحي. فالايمان عنده ايمان، والكفر عنده كفر. ولا حدّ وسط بين الاثنين. فإمّا الله وإمّا العالم. وإمّا يسوع المسيح وإمّا الشيطان. وبالطبع لقد اختار يسوع المسيح

بألوهته وبتجسّده وبفدائه وبخلاصه للبشرية جمعاء. وكـــان رسوله الى حدّ الشهادة، شهادة الحياة المسيحية اليومية.

هذا ما سنراه في هذه الدراسة بعد أن نقدّم لها بقسم أوّل عن "قرطاجة"، المدينة العريقة، التي أعطت عظماء مثلـه نعتبرهم أبناء لبنان الفينيقي.

القسم الأول

قرطاجة في التاريخ

١
قرطاجة قبل المسيح

١ـ "قرطاجة" مدينة "إليسّار"

من شواطئنا اللبنانية الفينيقيّة، من المدينة العريقـــة في التاريخ "صور"، انطلقت "إليسّار" مع حاشيتها الكبيرة، باتجاه الأبيـض المتوسـط لتحـطّ الرحـال علـى شـواطىء أفريقيـا الشمالية، ولتبني مدينتها التاريخيّة "قرطاجة"، المدينة الجديـدة (كرت حدشت)، التي أصبحـت، في مـا بعـد، ملتقـى انظـار الشـعوب الشـرقية والغربيـة نظـراً لازدهارهـا الاقتصـادي وللـدور الحضـاري والعسـكري الـذي لعبتـه طـوال قـرون، فارضةً سيطرتها على القسم الأكبر من البلدان والجـزر الـتي تثقّفت بثقافتها الفينيقيّة، وتمـيّزت بطابعهـا القرطـاجي الـذي فتح أفريقيـا الشـمالية علـى أوروبـا الغربيـة وعلـى الشـرق. فحسب التقليد الذي نقله إلينا "طيماوس" (Timée) وأخذ به، بعدئـذٍ، "يوســتينوس" (Justin)، فـإن "إليســار" (Elissa) أو "ديدون" (Didon)، كما سمّاها البعـض مـن المؤرّخـين، شـقيقة "بيغماليون" (Pygmalion)، ملك "صور"، قـد أسّسـت المدينـة سنة ٨١٤ ق. م، وكان برفقتهـا بعـض الاشـراف الصوريّـين وبعض القبارصة الذين رافقوها في رحلتها عبر البحر الأبيض المتوسط الى شمـالي أفريقيـا، وبـالتحديد الى شـاطىء "تونـس"

الحالية. كذلك المؤرخ اليهودي "يوسيفوس" (Josèphe) فانه يؤكد، نقلاً عن المؤرخ اليوناني الأسيوي "مينـاندروس" (Ménandre)، الذي اطّلع على الوثائق الملكيّة في "صور"، على أن مدينة "قرطاجة" قد تأسست ما بين سنة ٨٢٥ و٨١٩ قبل المسيح. ورغم أنّ أقدم بناء فينيقي في "قرطاجة"، وهو هيكل "نذري" وجد على قمّةً "سالمبو" (Salammbô)، يعود تاريخه الى سنة ٧٢٥ ق.م، فان الحفريات الأثريّة تؤكد، حسب المؤرخين، على ان المدينة هي من القرن التاسع قبل الميلاد. زد على ذلك ان المقابر القرطاجية تعود أيضًا الى التاريخ المذكور. أمّا المؤرخ "ريس كربنتر" (Rhys Carpenter)، فانه يؤكد على أن التقليد الأدبي المشاع لا يتنافى مع التقليد الأثري، لذلك فانه لمن الضروري قبول المعطيات التاريخية التي وصلتنا لغاية الآن حتى يثبت العلماء عكس ذلك.

عن "قرطاجة" القرن التاسع والثامن والسابع قبل المسيح لا نعرف الكثير سوى أن القرطاجيين كانوا يعيشون من الملاحة، وان إلههم هو "هامون" (Hammon)، الاله الفينيقي "إيل" (El)، الذي عرف بعدئذٍ بالاله "كرونوس" (Kronos) والاله "ساتورنوس" (Saturne). وبعد قرنٍ ونصفٍ قرن من تأسيس المدينة، أقام القرطاجيون في "إبيزا" (Ibiza)، وحكمها ملوك من عائلة الـ "ماغونيد" (Magonides)، متحالفين مع الشعوب "الاتروسكيّة" (Les Etrusques)

للسيطرة على جزيرة "صقليّة" في امتدادها الجنوبي الغربي، ثم انتقلوا الى جزيرة "سردينيا" حيث حطّوا الرحال وطـردوا "دورييوس" (Dôrieus) وفيالقته السبرطية التي كانت مسيطرة على المنطقة. وفي نهاية القرن السادس قبل المسيح كانت "قرطاجة" قد ثبتّت أقدامها، وازدهرت تجارتها مع مصر واليونان وجنوب ايطاليا، الأمر الذي دفع بـ "روما" لعقد معاهدة معها دامت مدّة طويلة. أمّا المستعمرات الفينيقيّة الأخرى في أفريقيا فكانت تابعة لها، الأمر الذي جعل "قرطاجة" أيضاً مسيطرة على الشواطىء الشمالية كلها، وكذلك على قسم من "اسبانيا"، وجزر "الباليار" (Iles Baléares)، و "كورسيكا"، و "سردينيا"، وثلثي جزيرة "صقليّة"، والقسم الأكبر من "تونس" الحالية، حيث ازدهرت الزراعة التي اعطت القمح والزيت بكميّة كبيرة لكل حوض البحر الأبيض المتوسط. ولقد كتب القرطاجي "ماغون" (Magon) دراسة وافية ومهمّة عن الزراعة جعلت مجلس الشيوخ الروماني يفرض ترجمتها الى اللغة اللاتينيّة للاستفادة منها. وهكذا برهن القرطاجيون على أنهم، كما جدودهم الفينيقيون، تجّار وصناعيون وبحّارون بكل معنى الكلمة، وكان امتداد تجارتهم عبر الصحراء الى السودان، وعبر البحر الى الجزر البريطانية والى خليج "غينيا". ولقد اعتبرت "قرطاجة"، في بداية القرن الثالث قبل المسيح، أغنى مدينة في العالم.

أمّا عن تنظيم "قرطاجة"، فلقد حكمتها الطبقة الارستقراطية من التجار الأغنياء الذين كانوا يعيّنون سنويًا قاضيين هما "الشوفاتيم" (Suffètes)، لكن السلطة الحقيقيّة كانت بيد "مجلس المائة". لذلك كان الشعب يتململ دائمًا من القوانين القاسية التي فرضها هذا المجلس، ويسعى، بعض الأحيان، للقيام بثورة ضدّ ظلم المتموّلين، الأمر الذي دفع بعائلة "برقا" للسيطرة أخيراً بواسطة "هاملكار" (Hamilcar)، والد "هانيبعل" العظيم، والذي سيأتي الحديث عنه وعن ولده في كلامنا على حروب "قرطاجة" ضدّ "روما". وقبل الحديث عن هذه الحروب، لا بد من التوقف، بسرعة، على حروب "قرطاجة" ضد اليونان.

٢ـ حروب "قرطاجة" ضدّ اليونان.

بعد هزيمة القرطاجيين في "هيماريا" (Himère) سنة ٤٨٠ ق.م، على يد طاغية "سيراكوزا" (Syracuse) الملك "جيلون" (Gelon)، غادر الجيش القرطاجي "صقليّة" باتجاه المدينة الأم، خصوصاً وان الاسطول الفارسي، الذي كان مؤلفاً من فيالق فينيقيّة، قد انكسر أيضاً في معركة "سلامين" (Salamine). ولكي يعوّض الملوك القرطاجيون عن خسارتهم للمواد الاساسية التي كانوا يحصلون عليها من جزيرة "صقليّة" لصناعتهم الثقيلة الناشئة، وجّه الملك "حنّون"

(Hanon) بعشتين باتجاه أفريقيا الاستوائية وباتجاه الجزر البريطانية للتنقيب عن المناجم الضرورية لتلك الصناعة. وفي نهاية القرن الخامس قبل الميلاد اشتعلت الحرب، من جديد، في "صقليّة"، مع اليونانيين، فسيطر القرطاجيون على "سيلينونت" (Sélinonte)، و "أغريجنت" (Agrigente)، و"جيلا" (Gela)، غير أن الملك "هيميلكون" (Himilcon) تراجع أمام "سيراكوزا"، الأمر الذي دفع بأرستقراطيي "قرطاجة"، الذين كانوا يفضّلون السلام على الحرب نظراً لتراجع سلطتهم وتجارتهم، للهجوم على الملوك الـ "ماغونيد"، محرّكين ثورة دينيّة ضدّهم. وفي الواقع، فلقد حملت هذه الثورة الدينية "تانيت بينيه بعل" (Tenet Pene Baal) الى السلطة القرطاجية الأولى مكان "بعل هامون" (Baal Hammon) الذي أبعد. ورويداً رويداً استبدلت الأعمدة النذرية التي بنيت تقديراً واحتراماً لـ "بعل هامون" على القمة المقدسة، التي كانت بشكل عروشٍ وهياكل تشبه الهياكل المصرية، استبدلت بمسلاّتٍ من وحي الفن الأغريقي وهي بشكل قارورة الإلهة "تانيت" (Tanit). وفي سنة ٣٨٠ ق.م، تخلّص الارستقراطيون من عائلة الـ "ماغونيد" وعيّنوا "مجلس المائة" الذي كان يراقب، بشدّة، القادة العسكريين الذين استلموا السلطة مكان الملك على رأس الجيوش القرطاجية. ورغم المحاولات العديدة التي قام بها "حنون الكبير" سنة ٣٦٠ ق.م. ليسقط الحكم الارستقراطي (الأوليغرشي)، فإنه لم يفلح بذلك.

وهكذا خفّ الصراع مع اليونـــانيين في "صقليّـــة"، خصوصاً بعد موت "دنيسيوس الأول (Denys 1er) سنة ٣٦٧ ق.م، وابتدأت الدبلوماسية القرطاجية تتابع، عن قرب، تطوّر الحالة في شبه الجزيرة الايطالية، مجـدّدة المعـاهدة مـع "روما" سنة ٣٤٨ ق.م، الأمر الذي دفع بالرومان لاخضاع مقاطعـة "كمبانيـا" (Campania) ومقاطعـة "لاسـيوم" (Latium) دون تدخّل القرطـاجيين. كذلـك طلبـت "قرطاجـة" مـن حلفائهـا "الاتروسـكيين" عـدم التدخـل في الحـرب بـين الرومـان و"السـمنيتيين" (Les Samnites)، سـكان منطقـة "سـامنيوم" (Samnium) الايطالية، مضحّية بالمعاهدة التي كانت قائمة مـع شعوب منطقة "كورسـيكا" و "صقليّـة" و "سـردينيا" لصـالح الرومان. ومع ذلك، فلقد حاول اليونانيون اشعال الحرب من جديد في "صقليّـة" بواسـطة قـائدهم "تيموليـون" (Timoléon) الذي هزم الجيش القرطاجي في "كريميزوس" (Crimisos) سنة ٣٣٩ ق.م، وبواسـطة "أغـاتوكل" (Agathocle) الـذي تسـلّم السلطة في "سيراكوزا" سنة ٣١٢ ق.م، وأبحـر، بعـد سـنتين، أي سـنة ٣١٠ ق.م، الى أفريقيـا. وهـذه الحملـة الى أفريقيـا كـانت سـبباً أساسـياً في الاضطرابـات الدينيّـة والسياسـية في "قرطاجة"، ولقد حاول الملك "بوميلكار" (Bomilcar) أن ينهي الحكم الارستقراطي (الاوليغرشي) سنة ٣٠٧ ق.م، لكنه لـم يفلـح بذلـك، الأمـر الـذي ثبّـت اقـدام الارسـتقراطيين لمـدة خمسين سنة تقريباً في الحكـم مـن ٣٠٧ ـ ٢٦٣ ق.م، كـانوا

خلالها في أوج عزّهم. ومع سقوط مدينة "صور" على يد "الاسكندر المقدوني" سنة ٣٣٢ ق.م، خافت "قرطاجة" وأعلنت معاهدة اقتصادية مع ملوك مصر وفلسطين وفينيقيا المنتشرة مدنها على طول الساحل اللبناني. وبذلك تأثرت بالمد اليوناني الآتي من جزيرة "صقليّة" ومن ايطاليا الجنوبية ومن مصر. والملحوظ هنا أن الفيلسوف الكبير "أرسطو" قد شبّه دستوره الذي كتبه سنة ٣٣٠ ق.م بدستور المدن اليونانية التي اعتبر حكمها أفضل حكم. وفي خلال هذه المرحلة قد سيطرت "قرطاجة" على شمالي البحر الأبيض المتوسط اقتصادياً وتجارياً وبحرياً، وازدهرت أكبر ازدهار، خصوصاً بانفتاحها على الشرق. ولكي تحمي هذا الازدهار كان لها اسطولها البحري الكبير الذي جعل من "روما" حذرة، وبالتالي دفعها للاستعداد للحرب لأنها خافت ان تبقى "قرطاجة" مسيطرة على كل الخطوط البحرية. لذلك لم تطل المدّة حتى اشتعلت هذه الحرب في "صقليّة" التي قال عنها القائد اليوناني "بيروس" (Pyrrhus) وهو يغادر الجزيرة مرغماً: "إنها (أعني صقلية) أهمّ ساحة حرب اتركها للقرطاجيين وللرومان". وفي الواقع، منها انطلقت شرارة الحروب الثلاثة بين "روما" و"قرطاجة" التي عرفت بالحروب "الفونيقيّة".

٣- حروب "قرطاجة" ضدّ "روما".

هذه الحروب دامت، على فترات متقطّعة، من سنة ٢٦٤ - ١٤٦ قبل المسيح. فالحرب الأولى ابتدأت سنة ٢٦٤ وانتهت سنة ٢٤١ ق.م، وسببها مضيق "مسّينا" (Messina) الذي كان بوابة جزيرة "صقليّة" الغنيّة والمزدهرة. فالقسم الأكبر من الجزيرة كان تحت سيطرة المتسلّط "هيرون" (Hiéron)، بينما مضيق "مسيّنا" نفسه كان بيد جماعة ايطاليّة تدعى الـ "مامرتيون" (Les Mamertins). وفي سنة ٢٦٤ ق.م، هاجم متسلّط "سيراكوزا" الملك "هيرون" الـ"مامرتيين"، وكانت حرب طاحنة كادت ان تقضي على الـ"مامرتيين" عندما استنجد هؤلاء بالقرطاجيين أولاً، ثم بالرومان. وتجاه هذا الأمر أسرع القرطاجيون لاحتلال "مسّينا" فسبقهم الرومان، بخدعة، وتمركزوا فيها، فانطلقت شرارة الحرب بعدما كشف القرطاجيون نوايا "روما" الخيانيّة بعد التحالف الذي كان قائماً سابقاً.

السنوات الأولى من الحرب جعلت "صقليّة" تحت سيطرة "روما" لأن الرومان عادوا وتحالفوا مع عدوّهم السابق "هييرون"، فاضطرّ القرطاجيون لمغادرة الجزيرة. وفي سنة ٢٥٦ ق.م، حاول القائد "ريغولوس" (Regulus) أن يقتحم القرطاجيين في عقر دارهم كما فعل قبله "أغاتوكل"،

فلم ينجح بذلك، غير أنّ "قرطاجة" خرجت من الحرب سنة ٢٤١ ق.م منهكة اقتصادياً ومفروض عليها السلام الروماني، الأمر الذي كان سبب نهاية الحكم الارستقراطي الذي سيطر مدّة طويلة على مدينة "إليسّار".

في هذه الإثناء استغلّ المرتزقة ضعف الدولة، لا سيّما وان الجيوش القرطاجية التي عادت من "صقلية" لتدافع عن المدينة في وجه "ريغولوس" لم يدفع لها الارستقراطيون أجرهم كاملاً، فقاموا بثورة كادت تطيح بـ "قرطاجة" نفسها. غير أن "هاملكار برقا" (Hamilcar Barca)، قائد الجيوش القرطاجية في "صقلية"، والذي تميّز بانتصارات عديدة، قمع الثورة بشدّة سنة ٢٣٨ ق.م، وانهى النظام الارستقراطي، وفرض حكم "الشوفاتيم" (Suffètes) الذي كان يتألف من قاضيين منتخبين من الجمعية العامة الشعبية التي سيطرت على البلاد. وبدل أن يفرض حكمه في "قرطاجة"، فضّل تأسيس دولته في "اسبانيا" حيث كانت الثروات والموارد الطبيعية متوفّرة لازدهارها، وكذلك الرجال للحرب، لأنه وعى أن حربًا جديدة مع "روما" هي حتميّة. وهكذا، من "قرطاجة" الجديدة، التي أسماها "قرطجنّة"، راح يهيّء للانتقام من "روما". ولكن "هاملكار برقا" لم يعمّر طويلاً فمات سنة ٢٢٩ ق.م، وتسلّم القيادة مكانه صهره "هسدروبعل" (Hasdrubal). ويذكر المؤرخون

ان "هاملكار"، والد "هانيبعل" (Hannibal) العظيم، الـــــذي سيأتي الحديث عنه، قد طلب من ابنه ان يقسـم امـام الآلهـة، وهو ابن تسع سنوات، على أن ينتقم من "روما" لـ "قرطاجة" في يوم من الأيام. وفي الواقع، فان "هانيبعل" قد نشأ وفي قلبه حقدٌ كبير على "روما"، وراح يخطط للانتقام كما أراد ذلـك والده. وفي عمر الثالثة والعشرين انتقـل الى "اسـبانيا" حيـث خدم في الجيش تحت امرة "هسدروبعل" الـذي تولّـى القيـادة بعد موت "هاملكار".

وقبل الكلام على الحرب الثانية بين "قرطاجة" و"روما" التي اعتبرت حرب "هانيبعل"، لا بدّ من كلمة وجيزة ننقلهـا عن المـؤرّخ الرومـاني "تيـت ليـف" (Tite Live) يصـف فيهـا شخصية هذا القائد الاسـطوري. يقـول: "لا نجـد في التـاريخ شخصيّة كشخصيّة هانيبعل التي جمعت جميع المتناقضـات مـن الطاعة الكاملة عندما كان مرؤساً الى صلابـة القيـادة عندمـا أصبح القائد العام للجيش القرطاجي. وإنه لمن الصعب جـداً أنّ نميّز بـين محبّـة القـائد هسـدروبعل لـه وبـين محبّـة الجيـش. وعندمـا كـان يريـد هســدروبعل ان يحقـق انتصـاراً بقـوة وتصميم، لـم يكن يتراجع امام تكليف هانيبعل الذي كـانت الجيوش تتعلّق به بثقة واقدام. كان شـجاعاً جـداً في مواجهـة الخطر، وبارد الأعصاب عندما يحـلّ هـذا الخطـر. ولا عمـل، مهما كان صعباً، كـان بامكانـه ان ينهـك قـواه الجسـدية او

يحبط نفسيته التي كانت معنوياتها دائماً مرتفعة. إنه كـــان يتحمّل البرد القارس كما يتحمّل أيضاً القيظ. أما بالنسبة الى المأكل والمشرب، فانه كان يكتفي بحاجته الضروريــة دون أن يغرق في الملذات. وأما بالنسبة الى الســهر والنـوم، فانـه لـم يكـن يفـرّق بـين الليـل والنهـار... ولقـد رآه الجنـود مـراراً ملتحفًا سترته العسكرية وهو نائم علـى الأرض دون فـراش، بين الحرّاس والعساكر. وكان من أهمّ الفرسان في القتال كما من أهمّ جنود المشاة. أمّا في المعارك، فلقد كان أوّل المهاجمين وآخـر العـائدين الى المعســكر "(تيــت ليــف: التــاريخ الروماني،الكتاب الحادي والعشرون).

هذه الصورة الاسطورية لـ "هانيبعل"، التي وصفهـــا المؤرخ الروماني "تيت ليف"، هي التي سيطرت على الحـرب الرومانية القرطاجية الثانية. وبشهادة مجلس الشيوخ الروماني نفسه، فان "هانيبعل" كـان علـى درجـة عالِيـة مـن الصفـات جعلتهم يخافون أمام هذا العبقري ويقدّرون مواهبه العسكرية التاريخيّة. وفي الواقع، فلقد كان "هانيبعل" جريئـاً وحـذراً في الوقت نفسه، لا يفقد شجاعته مطلقًا، حتى أمـام الصعوبـات الكبيرة. دائمًا سيّد نفسه، يعرف كيــف يستدرج عـدوّه الى ساحة القتال التي اختارهــا ليفتـك بـه، ويقـرّر متـى يجب أن تكون الضربة قاضية. صريحًا وشريفاً في تعامله مع الآخريــن، لكنـه يلجـأ الى جميـع الحيـل والخـدع ليكسـب حربـه سـاعة

الضرورة تحوجه الى ذلك. فحيناً كان يلجـــأ الى ارســال معلومات خاطئة الى جيوشه في القطاعِ الآخر، متعمداً وقوع المبعوثين في ايدي العدو ليضلّله، وحيناً آخر كان يرسل بعض جيوشـه بلبـاس الجيـش الرومـاني مـع أوامـر باللغـة اللاتينيـة لتكون فخاً للرومانيين أنفسهم. ولقد أجمع المؤرّخون على انّ "هانيبعل" كان يجمع في شخصيته خداع "فيليبّوس المقدوني"، وجرأة "الاسكندر" وشـجاعته، بحيـث انـه اعتـبر أهـم رجـلٍ عسـكري في التـاريخ القديـم والحديـث، ولـم يماثلـه إلاّ "نابوليون" في بعض صفاتٍ من صفاته.

أمّا عن الحرب القرطاجية الرومانية الثانية، فلقد كان هو البادىء بها عندمـا حـاصر مدينـة "سـاغونت" (Sagonte) لمدة ثـمانية أشهر، استسلمت بعدها له، وطرد الرومان منها. وتجـاه هـذا الأمـر أرسـلت "رومـا" الى "قرطاجـة" سـفيراً لها يطلب تسـليم "هـانيبعل" للجيـش الرومـاني. ورغـم تشـديد حزبـه الـذي كـان يسـعى للسـلام مـع "رومـا"، فـان الملـك "حنّون" رفض ذلك، فـاعلنت الحـرب. وبهـذا المعنـى يقـول المؤرخ الروماني "تيت ليـف": "وبعـد نقـاش دام طويـلاً ردّ السفير الرومـاني ثوبـه وقـال: انّـي أحمـل إليكـم السـلام أو الحـرب، ومـا عليكـم إلاّ أن تختـاروا. فاجابـه القرطـاجيون بـالعنفوان نفسـه: اختـاروا أنتـم. فقـال السـفير "فـابيوس" (Fabius): لقد اخترنا الحرب، وهو يلوّح بطرف ثوبه. فاجابه

القرطاجيون، وبصوت واحد، نحن لها، وسنربحها". (تيـــت ليف: التاريخ الروماني، الكتاب الحادي والعشرون). وهكذا ابتدأ "هانيبعل" بالتخطيط لها بذكاء واقدام، مصمّمًا علـى ان تكون المعركة على الأرض الرومانية نفسها، محرّكـاً الغوليـين (الفرنسيين) والايطاليين ضدّ "روما"، وبنوع خاص الشـعوب الايطالية التي كانت تئنّ تحت ضربات قوة الجيش الرومـاني. ولكي يصل الى ايطاليا، فضّل "هانيبعل" طريق الجبال الوعرة والصعبة التي كانت أكثر أماناً في نظره مـن المعركـة البحريـة التي لـم يكـن ليضمـن نتائجهـا. ولـم يصطحـب معـه، مـن جيشه، إلا الفرق المتمرّسة بالأعمال العسكرية وفي الحروب، والأمينة والمخلصة له كلّ الاخلاص، ثمانين ألف جندي من المشاة، واثني عشر ألفاً من الفرسان، أغلبهم من الاسبان ومن برابـرة أفريقيـا الشـمالية، وعلـى رأسـهم قـادة قرطـاجيون متمرّسون وأذكياء. أمّا "النوميديـون" (Les Numides) الذيـن اشتهروا في تلـك الحـروب، فلقـد تميّزوا، في جيشـه، بـأنهم شكّلوا الخيّالة الذين كـانوا يمتطـون أحصنتهـم دون لجـامٍ أو سرج، والذين كانوا يؤّمنون الإستكشاف والهجومات العنيفة في قلب المعركة. واما الأفارقة الباقون فكانوا يشكلون الجنود المناورين والمحاربين عن بعد، مهيّئين للمعركة الحسم. زد على ذلـك أن "هـانيبعل" اصطحـب معـه ٣٧ فيـلاً مدرّبـاً علـى المعـارك، بقيـادة أفارقـةٍ سـودٍ مـن "نوبيـا" (Nubie)، كـان يستعملهم للهجوم ولتفرقة جنود العدوّ، أو للوقوف في وسط

الأنهر لتخفيف مجرى المياه حتى ينتقل الجنود بسهولة مـــن ضفّة الى ضفّة.

في ربيع سنة ٢١٨ ق.م، غادر "هانيبعل" مع جيوشه "قرطجنّة" باتجاه "روما". وهـو في طريقـه الى المعركـة فـاوض أهل البلدان التي مرّ بها لتدعمه في حربـه، حتـى قطـع جبـال "البيرينـه" (Pyrénées) ونهـر "الـرون" (Rhône). وفي شـهر تشرين الأول وصل الى أعالي وديان جبـال "الألـب" (Alpes) ومنطقة "السافوا" (Savoie). ولكن وعورة الأرض، خصوصاً في الجبـال المكسـوّة بـالثلوج والجليـد، والصعوبـات الـتي اعترضت الجيش قد افقدته الكثير من جنوده حتى بقـي معـه عشـرون ألـف جنـديّ مـن المشـاة (٢٠٠٠٠)، وسـتة ألاف فارس (٦٠٠٠)، وعدد قليل من الفيلة.

وفي هذه الأثناء كان القنصل شيبيون (Scipion) متوجها الى "اسبانيا" عندما عـرف، في "مرسـيليا"، ان "هـانيبعل" قـد أصبح على ضفاف نهر "الرون"، فقفـل راجعـاً الى أن التقـى القرطـاجيين علـى ضفـاف نهـر الـ "تيسّـين" (Tessin) الـذي يصب في نهر الـ "بو" (Pô)، فدارت معركة عنيفة خسر فيهـا الجيش الروماني خسارة كبيرة. حينئذٍ التحق "شيبيون"، مـع من تبقّى مـن جنـوده، بـالقنصل "سمبرونيوس" (Sempronius) ليواجهوا "هانيبعل"، فدارت معركة عنيفة ايضاً على ضفـاف

"تريبيا" (Trebbie) خسر فيها الرومان جميع جنودهم في كانون الاول سنة ٢١٨ ق.م، الأمر الـذي أخـاف "غوليّـي" منطقـة "الألب" فانضمّ الى الجيش القرطاجي عشـرون ألـف جنـدي (٢٠٠٠٠) منهـم. وبذلـك زاد جيـش "هـانيبعل" وقويـت شـوكته بعـد معركتـين حـاسمتين. وفي ربيـع سـنة ٢١٧ ق.م، احتلّ "هانيبعل" منطقة الاتروسكيين (Etrurie) متقدّمـاً باتجـاه "الأبينـين" (Apennin) الـتي هـي منطقـة مسـتنقعات، فخسـر العديد من جنوده ومـن أحصنتـه، كمـا خسـر إحـدى عينيـه نتيجة التهاب شديد. ورغم ما حلّ به، فلقد أكمـل مناوراتـه الذكيّة حتى استدرج جيش القنصـل الرومـاني "فلامينيـوس" (Flaminius) الى ممرّ ضيّـق بـين بحـيرة "ترازيمانـا" (Trasimène) والتـلال المقابلـة حيـث اختبـأ القرطـاجيون بانتظـار المعركـة. وفجأة انقضّ عليهم، رغـم الضبـاب الكثيـف، فقضـى علـى خمسة عشر ألف جندي روماني (١٥٠٠٠) حتى قبل ان يتنبّه هؤلاء الى ما يجري. وهكذا وقع الرعب في صفوف المسؤولين في "رومـا"، فاسـتنجدوا بـالجيوش الباقيـة لأن طريـق "رومـا" كانت مفتوحة امام "هـانيبعل". وبـدل أن يتوجـه الى "رومـا" نفسها، فضّل "هانيبعل" الاتجاه نحـو الجنـوب لأنـه لـم يكـن مسـتعدا كليـا. وفي سـنة ٢١٦ ق.م، أمـر مجلـس الشـيوخ الرومـاني القنصلـين "فـارونيوس" (Varronius) و"بولـوس إميليـوس" (Paulus Emilius) بالأنقضـاض علـى الجيـش القرطاجي، فجبههم "هانيبعل" في الثـاني مـن آب في سـهول

"كانّا" (Cannes) في "أبوليـــا" (Apulia)، وكســـر الجيـــش الروماني الذي كان مؤلفاً من خمسين ألف جندي، قتل منهم خمسة وعشرين ألفاً، وأسر عشرة ألاف، كما قتل القنصل "بولوس إميليوس" في تلك المعركة.

"أمام هذا الانتصار الساحق، يقول المؤرّخ الرومـــاني تيت ليف، اجتمع هانيبعل بقادته ليقيّم المرحلة المقبلـة. وهم يهنّئونه على انتصاره طلبوا منه أن يرتاح الجيش لمدة يوم وليلة ... وحده ماحربعل، قائد الخيالة، كان من الرأي ان لا يخسر هانيبعل دقيقة واحدة، معلناً: "حتى تعطي الحرب نتائجها المرجوّة يجب ان تتناول العشـاء مع جنودك في الكابيتول خلال خمسة ايام. اتبعني (قال ماحربعل) وانا اسبقك مع خيّالتي بحيث اننا نصل روما قبل أن يعرف العدو اننا قادمون". فنظر هانيبعل الى ماحربعل قائلاً: ان القادة يطلبون ان نتريّث وان نفكّر جيداً بالأمر. فاجاب ماحربعل: "إن الآلهة لا تعطي انساناً واحداً كل شيء. انت تعرف كيف تنتصر يا هانيبعل، ولكنك لا تعرف كيف تستفيد من الأنتصار" (تيت ليف: التاريخ الروماني، الكتاب الثاني والعشرون). وفي الواقع، فلم يدخل "هانيبعل" الى "روما" رغم أن شعبها كان يعيش ذعراً وخوفاً لا مثيل لهما. كذلك حلفاؤها انضمّوا الى الجيش القرطاجي في "صقليّة" و "كبوا" و " كمبانيا" والـ "بروتيسوم" و " أبوليا". وتجاه هذا الأمر

قرّر الرومان، الذين أعادوا بسرعة بعـــض قوّتهـــم، أن لا يواجهوا "هانيبعل" مباشرة خوفاً من انتصار نهائي عليهم، بل فضّلوا حرب العصابات التي كانت تعيـق الجيـش القرطـاجي كثـيرا. وابتـداءً مـن سـنة ٢١٣ ق.م، حـاصر القنصـل "مرشيلوّس" (Marcellus) "سيراكوزا" حتى وقعت بـين يديـه، بخدعـة، سـنة ٢١٢ ق.م. وفي سـنة ٢١١ ق.م، بعـد مقتـل الأخوين "شيبيون" في "اسبانيا" على يد "هسدروبعل" شـقيق "هانيبعل"، سُلّمت القيادة الى أحد ابناء هذين الأخوين وهـو "بوبليوس كورنيليوس شيبيون" (Publius Cornelius Scipion)، الذي احتّل "قرطجنّة" وأمال إليه الاسبان ضـدّ القرطـاجيين، غير أنه لـم يقدر على منـع "هسـدروبعل" مـن اجتيـاز جبـال "البيرينيـه" للألتحـاق بـ"هـانيبعل" سـنة ٢٠٧ ق.م. وهكـذا أصبحت "روما" بين القوتين القرطاجيتين، قوة "هسـدروبعل" في الشمال، وقوة "هانيبعل" في الجنوب. ولكي يمنع الرومـان الاخويـن مـن الألتقـاء، قـرّر القنصـل "كلوديـوس نـيرو" (Claudius Nero) ان يشغل "هانيبعل" في الجنوب وينقضّ على "هسـدروبعل"في الشـمال بمعونـة زميلـه "مركـوس ليفيـوس" (Marcus Livius)، فكـانت النتيجـة أن قتـل "هسـدروبعل" في معركة "ميتوروس" (Métaure) وحمل رأسه مقطوعـاً الى مخيّـم "هانيبعل"، الأمر الذي أَثَّرَ كثـيراً في هـذا الأخـير وعـرف أن المعركة الحاسمة بين "قرطاجة" و "روما" أصبحت وشيكة.

في هذه الأثناء كان "هانيبعل" قد تحصّـــن في جبـــال الـ"بروتسيوم" (Bruttium)، وبقيـت الحـرب مستمرّة طـوال سنتين، الى ان أعلن في "روما" أن "شيبيون" قد أصبح قنصلاً. ونظراً لشعبيته الكبـيرة نتيجـة انتصاراتـه في "اسبانيا" فـرض على مجلس الشيوخ حملة على "قرطاجـة" نفسـها. في بـادىء الأمر رفض المجلس ذلك متذكراً حملة "ريغولوس" التي بـاءت بالفشل، لكنه عاد ووافق سنة ٢٠٤ ق.م، فأبحر "شيبيون" مع جيوشه باتجاه مدينة "هانيبعل".

بادىء ذي بدء كانت الحالة سيّئة بالنسبة الى "شيبيون" في "أفريقيا" لأن ملك "نوميديا" (الجزائر الحالية) "سـيفكس" (Syphax) كان قد تحالف مع "قرطاجة" ضد الرومان. ولكـن انتصار "ماسّينيسّا" (Massinissa)، المتحالف مع الرومان، على "سيفكس"، قد أعطى قوّة لـ"شيبيون" لأن خيّالته، التي كانت دعماً قوياً للجيش القرطاجي، قد انتقلـت الى صـفّ الجيـش الروماني، الأمر الذي جعل "قرطاجة" نفسها تطلب الصلح. وخلال المفاوضات استدعي "هانيبعل" من ايطاليا لأن الخطـر كـان مداهمـاً لـ"قرطاجـة". وفي سـنة ٢٠٢ ق.م، ابتـدأت معركـة "زامـا" (Zama) في "تونـس" الوسـطى. ونظـراً الى ان خيّالـة "ماسّينيسّـا" كـانت بجـانب الرومـان، فلقـد انتصـر "شيبيون" علـى "هـانيبعل"، كمـا كـان متوقعـاً هـذا الأخـير. وهكذا أجبرت "قرطاجة" علـى القبـول بسـلام قـاسٍ فُـرض

عليها. ولقد نصح "هـــــانيبعل" بـــالقبول بذلـــك قـــائلاً للقرطاجيين:"قدّموا الذبائح للآلهة، وارفعـوا الصلـوات حتـى يقبل الشعب الروماني بما فرض عليكم". امّا شروط السلام، فيذكرهـا المـؤرّخ الرومـاني "تيـت ليـف" كـالآتي :"بامكـان القرطاجيين العيش احرارا وحسب شرائعهم. والمدن والحدود التي كانت لهم قبل الحرب (في تونـس) تبقـى معهـم... لكـن عليهـم ان يعيـدوا الجنـود الفـارّين مـــن المعـارك، والعبيـــد، والسجناء، وان يتخلّوا عن جميع السفن الحربية ما عدا عشرة مراكب ثلاثيّة المجاذيف للتجارة والتنقـــل. كذلـك عليهـم ان يعطوا الرومـــان جميـع الفيلـة المدرّبـة حربيـاً، دون أن يدرّبـوا غيرها او يمتلكوها. وايضاً ليس بامكان القرطاجيين ان يعلنوا الحرب، لا في أفريقيا ولا خارجها، دون أمر روما... كما أنّه عليهم دفع عشرة ألاف قطعة ذهبية سنوياً" (المبلغ كان كبيراً جداً في ذلك الوقت) (تيت ليف : التاريخ الروماني، الكتاب الثلاثون). وهكذا قبلت "قرطاجة" بهـذه الشـروط القاسـية، وغادرهـــا "هـــانيبعل" باتجـاه "صـــور"، المدينَـــة الأم، طلبـــاً للمساعدة لكي يعيد الإعتبار لـــ"قرطاجـة"، لكـن احـداً مـن المتسلطين لـم يعطه أُذناً صاغية. كذلك ذهب الى اصدقائه في أسيا الصغرى، ولكن النتيجة كانت نفسها.

غير أنّ مغادرة "هانيبعل" لـ"قرطاجة" لـــــم تطمئـــن المحـاربين القدامـى مـن الرومـان، الذيـن ذاقـوا الأمرّيـن مـــن

القرطاجيين، لذلك كانوا حذرين جداً من ابناء مدينة "إليسّار"، وعلى رأسهم "كاتون" (Caton) الذي كان ينهي خطاباته، مهما كان الموضوع، بكلمته الشهيرة :"يجب أن تهدم قرطاجة" (Delenda est Carthago). وفي الواقع، فلقد استغلّ الظرف "ماسّينيسّا"، ملك "نوميديا"، وحليف الرومان، وهاجم "قرطاجة"، فاتكاً بالأرض القرطاجية اينما كان، وذلك بحقدٍ لم يسبق له مثيل. فاستدعت حينئذٍ "قرطاجة" الرومان، وذلك سنة ١٥٢ ق.م، وطلبت التدخل لأيقاف "ماسّينيسّا" وجيشه. لكن البعثة التي ارسلت اعطت الحق لـ"ماسّينيسّا" عمداً، حتى ولو كان على خطأ. فشعر القرطاجيون بأن أمراً كان يُدبّر ضدّهم. فاستعدّوا. وفي سنة ١٥١ ق.م، أعاد "ماسّينيسّا" غزواته، فحمل القرطاجيون السلاح في وجهه، الأمر الذي دفع بمجلس الشيوخ الروماني للوقوف ضدّ القرطاجيين على أساس أنهم نقضوا معاهدة سنة ٢٠١ ق.م، التي تمنعهم من الحرب دون اذن "روما". وهكذا أرسل المجلس جيشاً رومانياً الى "أفريقيا"، فخضعت "قرطاجة" للتدبير الروماني مرغمةً، وجرّد الجيش القرطاجي من سلاحه ومن جميع معدّاته. وعندما سلّم القرطاجيون كلّ شيء، أُمروا باخلاء المدينة وبالأبتعاد عنها لمسافة خمسة عشر كيلومتراً داخل الأراضي الأفريقية. ولكن القرطاجيين، الذين أعتبروا ذلك مذلّة كبيرة، قرّروا أن تكون الحرب حرب إبادة، فامّا النصر، وامّا الفناء، مهما كلّف الأمر. وهكذا هدموا بيوتهم

وأخذوا عواميدهاوأخشابها ليصنعوا آلاتهم الدفاعية وسفنهم الحربية. كذلك النساء قصّت شعر رأسها واعطته للرجال ليصنعوا حبال التوتير النشابيّة، بحيث ان الحماس الوطني جعل القرطاجيين يصمدون لمدّة سنتين، طاردين الرومان وحلفاءهم دون شفقة. وفي سنة ١٤٧ ق.م، عهد مجلس الشيوخ الروماني بادارة الحرب الى "شيبيون اميليوس" (Scipion Emilius)، ابن "بولوس اميليوس" وحفيد "شيبيون الأفريقي" بالتبنّي. وهذا الأخير، رغم صغر سنه، انتخب قنصلاً، وتوجّه الى "أفريقيا" لاخضاع "قرطاجة". وعند وصوله أقام سوراً عالياً من جهة الصحراء، وسداً من جهة البحر. وعبثاً حاول القرطاجيون خرق السدّ، فلم يفلحوا. وأخيراً تمكن الرومان من دخول المدينة بهجوم صاعق، دام ستّت أيام وستّ ليال، كان فيه القرطاجيون يدافعون عن مدينتهم في الشوارع شبراً شبراً ويتراجعون الى قلعة "بيرسا" (Byrsa)، والجثث تتراكم حتى ان المتقاتلين اضطروا لابعادها بالمذاري ليتقدّموا. واما الثلاثون ألف رجل من القرطاجيين، الذين كانوا يدافعون عن القلعة، فلقد استسلموا مع قائدهم "هسدروبعل". لكن امرأة "هسدروبعل"، مع ألف من الهاربين، قد لجأوا الى الهيكل، واشعلوا النار فيه حيث مات الجميع بعنفوان احتراقاً سنة ١٤٦ ق.م. وانتقاماً من القرطاجيين هدم الرومان "قرطاجة" كليّا، ولم يبقوا فيها حجراً على حجر، ثم رشّوا أرضها بالملح لكي لا ينبت فيها

شيء بعد ذلك، معتبرين ان أرضها هي أرض ملعونة ويجب ان لا يبنى فوقها شيء. وهكذا أصبحت الارض القرطاجية مقاطعة رومانية وعاصمتها مدينة "العتيقة" (Uticca).

٤ ـ "قرطاجة" بعد الحروب الفونيقيّة.

عن "قرطاجة" قبل هدمها من الرومان لم يصلنا الكثير، خصوصاً وان الحقد الروماني لم يُبقِ على أيّة وثيقة تاريخيّة لكي تُعرف الحقيقة كما هي، بل نحن نستند الى ما كتبه المؤرخون الذين كانوا تحت سيطرة "روما"، وهذا الأمر يدعو الى الشك بأمور كثيرة يعتبرها البعض حقيقة. فالصورة التي في مخيّلتنا نحن اللبنانيين هي صورة عن "فينيقيا" المزدهرة اجتماعياً واقتصادياً وفكرياً، والمسالمة بطبيعتها نظراً لعلاقتها التجاريّة مع دول العالم، والتي أعطت الحرف الى البشرية من خلال "قدموس" الذي هو فخرنا في التاريخ. واذا كانت هذه صفات الأم، فكيف بالأبنة "قرطاجة" التي كانت تعود دائماً الى "صور" في كلّ ما خلقت وأبدعت؟ ناهيك عن ان الفينيقي، ابن لبنان، كان صورة حيّة عن نصاعة ثلج جباله، وعن صفاء ايمانه بالأنسان وبالله.

أقول ذلك، لأنَّ الصورة التي حملها إلينا المؤرخون كانت صورة مشوّهة ليبرّروا بربريّة "روما" التي لم تكن

تؤمن إلاّ بالقوة. لذلك رأينا، في كلامنا علـــــى الحـــروب القرطاجيـة الرومانيـة، أن القرطـاجيين كـانوا رجـال سـلام حقيقيين ساعة الغير يطلب السلام، وابطال حرب ساعة الغير لا يفهم إلا لغة الحرب. وإذا كان قدر "قرطاجة" أن يتحالف ضدّها حسّادها ليقضـوا عليهـا، فـان تـاريخ شـعبها اللبنـاني الأصل هو تاريخ الأنسـان الـذي تميّز بفضـائل انسـانية لـم يسـبق لهـا مثيـل. مـن هنـا نـرى الحضـارة الـتي تميّزت بهـا، خصوصاً وان أنقاضها التي درسها علماء الآثار تدلّ على أن شعبها كان شعباً متطوّراً جداً، أخذ عنه الكثيرون مـن الذيـن أتوا بعده. زد على ذلك أن الاكتشافات الحديثة تتحدّث عن هياكل عديدة وقلاع وشوارع ومراكز تسلية وأبنية مزخرفة، وعن فن تميّز بدقة وجمال بقي محفوظاً في أهم متاحف العالـم. وبما أنّه ليس بين أيدينا وثائق واضحة تنبئنـا بمـا كـانت عليـه المدينة قبل تدميرها، فاننا نكتفي بما أوردنا ولو قليـلاً لتكـون الصورة غير مشوّهة كما ارادها حسّادها.

هذا بأختصار عمّا وصلنا في التاريخ. ولكن كيـــــف تطوّرت بعدئـذ المدينـة، وهـل بقيـت انقاضـاً، أم بنيـت مـن جديد؟ في سنة ١٢٣ ق.م، حـاول محامي الشعب الرومـاني "كايوس كراكوس" (Caius Gracchus) أن يجعل مجلس الشيوخ يصوّت على قانون يسمح لبعـض الرومـان بـأن يعيـدوا بنـاء "قرطاجة"، لكنه لـم يفلح لأن الحكومة عارضته بشدّة. وهذا

القانون حاول "يوليوس قيصر" (Julius Caesar) أن يفرضه من جديد يوم تسلّم الامبراطورية الرومانية، غير أن أغتياله لم يسمح بتحقيقه، الى أن قام الحكم الثلاثي سنة ٤٤ ق.م، وحقق رغبة الامبراطور الديكتاتور. وهكذا تمركز عدد من الرومان في المدينة وفي ضواحيها، وأعادوا بناءها رويداً رويداً، ولكن بالطابع الروماني. وفي سنة ٢٩ ق.م، بعث "أوكتافيوس" (Octavius) بثلاثة آلاف عائلة الى "قرطاجة"، وأعادوا ترميم الأبنية الأثرية، لا سيّما الهياكل وقلعة "بيرسا" (Byrsa) الشهيرة. وتنامى الشعب حتى أصبحت "قرطاجة" المدينة الرابعة في الأمبراطورية الرومانية بعد "روما"، و"الاسكندرية" و"انطاكية"، وكان عددها يزيد على ثلاثماية ألف انسان. ثم بنيت فيها الحمامات الشهيرة والمسارح، وجدد المرفأ، وكثرت الهياكل والمعابد، ولكن بالطابع الروماني، الأمر الذي دفع بالمؤرخين ليتكلّموا عن "قرطاجة" الفينيقيّة و"قرطاجة" الرومانية.

وهنا أكتفي بهذا القليل لأنتقل الى الفصل الثاني من هذا القسم الأول وهو بعنوان "قرطاجة بعد المسيح". ولم تكن الغاية من كتابة هذا القسم إلاّ للتأكيد على الدور الذي لعبه اللبنانيون في تاريخهم العظيم، إن قبل المسيح أو بعده، لا سيّما وان "قرطاجة" أعطت عظماء للمسيحية كما أعطت عظماء للبشرية جمعاء أمثال "هانيبعل" الاسطوري.

و"ترتوليانوس"، الذي هو موضوع دراستنا في هذا الكتاب السابع من الموسوعة، هو ابن "قرطاجة" كما "قبريانوس" و"أغوسطينوس" وغيرهم من الذين شرّفوا المسيحية بقداستهم وبعلمهم وبفكرهم النيّر. لذلك سيضعنا الفصل الثاني من هذا القسم في الأجواء التي عاشها المسيحيون في "قرطاجة" والتي كانت مركزاً دينياً مهماً لكل "أفريقيا".

٢
قرطاجة بعد المسيح

إن تاريخ "قرطاجة"، في القرنين الأوّل والثاني بعد المسيح، يعتبر تاريخاً هادئاً نسبياً، نظراً الى ان الحياة كانت طبيعيّة في المنطقة، ما عدا بعض الأحداث التي سبّبت قلاقل لم تكن ذات حسبان في تاريخها الطويل. ففي سنة ٧٠ مسيحيّة، وخلال الحرب الأهلية التي تبعت سقوط "نيرون" (Néron)، حاول الوالي الروماني "بيزون" (Pison) ان يعلن نفسه امبراطوراً، لكن المحاولة قد باءت بالفشل. وخلال حكم الامبراطور "كومودوس" (Commodus)، وولاية "بيرتينكس" (Pertinax) سنة ١٨٠ مسيحيّة، حاول البعض من كهنة هيكل "شيلستس" (Caelestis)، الذين كانوا يُدعَون "كلاب الإلهة" (Les chiens de la déesse)، ان يقوموا بثورة دينيّة نظراً الى أن الطقوس القرطاجية ابتدأت تأخذ الطابع الروماني، لكنهم فشلوا فشلاً كبيراً، واستتبّ الأمن لغاية سنة ٢٣٨ مسيحية حيث أعلن الوالي "غورديانوس" (Gordianus) امبراطوراً، جامعاً تحت سلطته "قرطاجة" نفسها والمدن الخاضعة للولاية، متمرداً على "مكسيمين التراسي" (Maximin le Thrace). لكن الفيلق الثالث، المدعو فيلق "أوغوستا" (Augusta)، والمناصر لـ "مكسيمين التراسي"، بقيادة القائد "كابيليين" (Capellien)، قد دمّر المدينة وهدم ما

يزيد على نصفهـــا. وفي ســـنة ٣١١ م، اجتـــاح المدينـــة "دوميسيوس ألكسندروس" (Domitius Alexandrus)، وبقيـت "أفريقيـا" تحـت سـلطة "مكسانسـيوس" (Maxencius)، كمـــا "ايطاليا" كلها، الى أن سيطر نهائياً "قسطنطين الكبير"، فبُنيت "قرطاجة" مجدداً، وعادت الى سابق عظمتها.

ومع اطلالة المسيحيّة، انتقل شرقيّون الى "قرطاجـــة" مبشّرين بالدين الجديد، حاملين بشارة الخـلاص الـتي أعلنهـا السيد المسيح، والتي كانت فلسطين ودول المنطقة قد آمنـت بها على يد الرسل وأتباعهم. ورغم أن النصوص التاريخيّـة لا تفيدنا عن زيارة أحد رسل المسيح الى المدينة العريقة، غير أن القديس "أغوسطينوس" يؤكد على أن الأفارقـة الأُوَل كـانوا يحتفلون بسـرّ الأفخارسـتيا، خـلال لقـاءاتهم يومـي الأربعـاء والجمعـة، كمـا يحتفـل بـه مسـيحيّو فلسـطين. لكـن كنيسـة "روما"، كما هي عادتها، فرضت ان تكون كنيسة "قرطاجة" تحت سلطتها، وأعلنت ان اسقف "نوميديا" (الجزائر حالياً) له السلطة المباشرة على أسقف "قرطاجة"، وليـس بامكـان هـذا الأخير أن تكون له السلطة المستقلّة كما كان سـابقاً. ولغايـة سـنة ١٨٠ م، تـاريخ الاضطهـادات الـتي نظمهـا الامـبراطور الروماني "كومودوس"، والتي ذهب ضحيّتها عدد كبـير مـن أبناء المنطقة، لا نعرف الكثير عن مسيحيّي "أفريقيا". وما بين ســنة ١٩٧ و ٢٢٠ مسـيحيّة، ظهـر محـامي لامـع هـو

"ترتوليانوس" (Tertullianus)، موضوع دراستنا في هذا الكتاب، وتميّز بهجومه العنيف على الوثنيين، خصوصاً في ما كتبه عن آلام وعذابات القديستين "فيليسيته" (Felicitas) و"بربيتوا" (Perpetua)، نتيجة الاضطهادات الجديدة التي أمر بها الامبراطور "سبتيموس ساويروس" (Septimus Severius)، والتي من خلالها رمى بالمسيحيين للوحوش في ملاعب "قرطاجة" إبّان الألعاب التي يُحتفل بها في ذكرى "جيتا" (Geta)، تحت هتافات الشعب "لا نريد من بعد مقابر" (Areae non sint)، وذلك يعني أنهم لا يريدون المسيحيين الذين كانوا يجتمعون، للصلاة، في تلك المقابر خفية. أمّا في القرن الثالث المسيحي، فلقد تميّز القديس "قبريانوس" (Cyprianus)،اسقف "قرطاجة"، اللاهوتي الكبير، والذي قطع رأسه، مستشهداً، سنة ٢٥٨ م، تحت حكم الامبراطور "قاليريانوس" (Valerianus). وفي الفترات التاريخية، التي كانت تفصل بين اضطهاد واضطهاد، كانت الارتدادات الى المسيحية كبيرة جداً، رغم أن البعض من المسيحيين كانوا ينكرون دينهم إبّان هذه الاضطهادات ليحموا رأسهم، غير أنهم كانوا يعودون الى القطيع بتوبة كاملة ومثل صالح للجميع.

أمّا في القرون اللاحقة، فلقد كان للشعب ثورته ضدّ أرستقراطيّ "قرطاجة"، التي اتخذت بعدئذٍ الطابع الديني،

الأمر الذي دفع بـ"دوناتوس" (Donatus) لاعلان انشقاقه عن الكنيسة، والذي دفع بالبعض من الشعب لاحراق الكنائس وأمكنة العبادة، حتى أن ازدهار المدينة كان في خطر. ورغم اعلان سلام الكنيسة من الامبراطور "قسطنطين"، والمجامع التي التأمت في "قرطاجة" و"روما" لاعادة الهدوء الى المنطقة، فان الاضطرابات استمرّت بشدّة وبلبلت الناس وجعلتهم منقسمين الى فئتين. وفي نهاية القرن الرابع، فان الحالة زادت سوءاً من جرّاء تمرّد الزعيمين البربريّين "فريموس" (Frimus) و"جيلدون" (Gildon). وهذا الأخير أعلن ذاته سيّداً على "قرطاجة" ووضعها تحت حمايته لغاية سنة ٣٩٨ مسيحيّة.

في هذا الجوّ المشحون بالاضطرابات ولد، في "طاغسطا" (Thagaste)، قرب "سوق الاهراس"، الذي سيكون يوماً من الأيام القديس العظيم "أغوسطينوس" (Augustinus). وسنة ٣٧٠م، أتى "قرطاجة" ليكمل دروسه فيها، واصفاً اياها بالمدينة المثيرة التي تميّزت بألعابها وبساحاتها الكبيرة وبشعبها الانفعالي العاطفي. وعندما أصبح، في ما بعد، اسقف "هيبّون" (Hippone)، كان يفاخر، مع زميله اسقف "قرطاجة" المدعو "كودفولت ديوس" (Quodvultdeus)، بثقافته القرطاجية العريقة، متضامناً وإيّاه لمحاربة الـ"دوناتية" (Donatisme)، ومعلناً ان الكنيسة الكاثوليكية هي وحدها الكنيسة الحقيقيّة، وذلك في مجمع سنة ٤١١ م، الذي جمع فيه

٢٧٩ اسقفاً دوناتياً، و٢٨٦ اسقفاً كاثوليكياً. غير أن السلام الذي عاشته الكنيسة من وجهة النظر السياسية لم يدم طويلاً، فانتقل "جنسريك" (Genséric) مع جيوشه الى "افريقيا"، وطوّق "قرطاجة" التي تحصّنت بسرعة، لكنها لم تصمد، فسقطت سنة ٤٤٠م. وهكذا نُهبت المدينة، وهُدمت بعض الكنائس ودور العبادة، والمسيحيون منعوا من أي عملٍ ان في القطاع الاجتماعي أو القطاع العسكري إبان حكم "هونوريك" (Huneric)، ولم يعد بامكان السلطة الكنسيّة ان تعيّن أي أسقفٍ في المنطقة لغاية سنة ٥٣٠م، السنة التي أرسل فيها الأمبراطور "يوستينيانوس" (Justinianus) مبعوثه "باليزيريوس" (Baliserius) ليحرّر "قرطاجة"، فاستتبّ الأمن، وعادت المدينة الى سابق عهدها بالازدهار. وفي سنة ٦١٠م، أعطت "قرطاجة" الامبراطور "هيراكليوس" (Heraclius)، الى أن احتلّها العربي "حسّان ابن النعمان" وهدمها كلّياً. ومنذ ذلك الوقت أصبحت "قرطاجة" أنقاضاً، رغم أنه أعيد بناء قسم من بيوتها، ولكن لم تعد الى رونقها.

هذه هي "قرطاجة" التاريخ. ولكن بماذا تخبرنا الحفريات الأثرية عن "قرطاجة" المسيحية؟ في عهد القديس "أغوسطينوس" كانت المدينة تحوي، على الأقل، اثنتي عشرة كنيسة، دمّرها الاجتياح "الفندالي" (Les Vandales)، لكنّ البعض منها قد رُمّم في ما بعد. ولم يبقَ لغاية الآن سوى

كنيسة مقبّبة على منحدر "بيرسا" الجنوبي الشرقي، بشكل مستدير في الداخل، وعلى جانبيها أروقة مضلّعة القواعد، أُنشئت تذكاراً (قبراً) للقديس "قبريانوس"، اسقف المدينة. وعلى بعد خمسماية متر يوجد مركزٌ يُدعى "داموس شاريتا" (Damous Charita)، هو كناية عن بقايا كاتدرائيةٍ "قرطاجة"، لها أحد عشر جناحاً وحنوة، وواجهة تنتهي بجرنين للعماد، وبمغطس كبيرٍ، وبغرف عديدة، وبساحة كبيرة، يلفّها ستّة عشر عاموداً من حجر الصوّان، وتنتهي بتيجان مضلّعة نقشت عليها صور حيوانات رمزية أرسلها إليها الأمبراطور "تيودوسيوس الثاني" (Theodosius II) لتكوّن جرن العماد الذي اشتهر فيها. أمّا في العهد البيزنطي، فلقد تحوّلت الكاتدرائية بحنوة تسعين درجة، وبُنيت واجهة جديدة في الجانب الجنوبي الغربي، منفتحة على مقابر الشهداء الذين كانت رفاتهم تُكرّم باحترام كبير نظراً لما تذكّرهم به من عهود الاضطهاد القاسية التي مرّت على آبائهم وجدودهم القرطاجيين. وفي منطقة "المسيدفا" (Mcidfa)، بين "الملغا" (Malga) و"المارسا" (La Marsa)، توجد انقاض بازيليك من سبعة قبب وعلى أحد جدرانها لوحة تذكارية تدعى "لوحة الاعتراف" تذكّر بانه في هذا المكان حُفظت رفاة القديسة "فيليسيته" والقديسة "بربيتوا" ومعلمهما "ساتورنوس" (Saturnus). وعلى شاطىء "السعيدة" (Saïda) الصخري، جنوبي شطّ "هاملكار"، انقاض عواميد بازيليك القديس

"قبريانوس" حيث يذكر المؤرخون ان القديسة "مونيكـــــا"، والدة القديس "أغوسطينوس"، أمضت ليلتها بالصلاة عندمـا غادر "قرطاجة" الى "ايطاليا". وهذه البازيليك كان لها سبعة أعمدة طوال المنحنى الداخلي وعلـى جانبيهـا بيت للكهنـة، وفي داخلها الشرقي المنحنى الأكبر الذي كان فوق المذبـح. أمّا الوصول الى داخلها فكان بواسطة ممـرّات بعـد أن يجتمـع الشعب في الساحة الكبرى.

كذلك اكتشف المنقبّون مجموعة كنـــائس مهمّـــة في منطقـة "الدرمـش" (Dermich)، قـرب الطريـق المتفرّعـة مـــن "قرطاجة" الى منطقة "هاملكـار"، وهـي كنايـة عـن بـازيليك وهياكل بُنيت في العهـد البيزنطي، أرضهـا مبلّطـة ومرصّعـة بنقـوش ومزخرفـات بشـكل عصافـير. وفي الشـمال الغربـي بازيليك أخرى، هي بازيليك "الدوويم" (Douimes) الشهيرة، التي تعتبر تحفة "فنية" بهندستها وزخرفاتهـا التاريخيّـة. وعلـى طول الطريق المتدّة على الشاطىء "الهاملكاري" وجـد ديـر للراهبات، فيه ذخائر القديس "اسطفانوس" التي تكلّـم عنهـا "بروكوبيوس" (Procopius). وأمّا في ضواحي "قرطاجة"، فلقد كشـفت الحفريـات عـن كنيسـتين قـرب محطـة "دوار الشـطّ" (Douar ech Chott) تحـوط بهـا مقـابر مزخرفـة مـع كتابات تعود الى عهد احتلال الـ"فاندال"، وفي شمال المحطّـة، بين "سالمبو" و"دوار الشطّ"، امتداد لهذه المقـابر. وأخـيراً، في

الضواحي البعيدة، قرب "المارسا"، في المنطقة المدعوّة "بـــير فتواح" (Bir Ftouah)، توجد انقاض كنيسة صغيرة فيها جرن كبير للعماد.

هذا ما تبقّى من "قرطاجة" المسيحيّة التي كانت نقطة الانطلاق الى كلّ "أفريقيا" السوداء. فالقسم الأوّل من هـذه الدراسة عن المدينة العريقة، التي نعتبرهـا نحـن اللبنـانيين ابنـة "صور" وابنة لبنان، هو للتذكير بعظمتها التاريخيّـة وبعظمتهـا المسـيحية. فكمـا "اورشـليم"، و"انطاكيـة"، و"رومـا"، و"الاسـكندرية"، كـانت "قرطاجـة"، باشـعاع شـهدائها ومؤمنيها، مثلاً برجالها الذين أغنوا الكنيسة الجامعة بفكرهـم النيّر وبقداستهم المميّزة. يكفـي انهـا أعطـت "ترتوليـانوس" المعلّم الذي هو موضوع دراستنا في هذا الكتاب السابع من الموسوعة، و "قبريانوس" اللاهوتي القديس الذي بقيت ذكراه في جميع القلوب، و"أغوسطينوس" العظيم الذي شرّف المسيحيّة جمعاء بقداسته السامية وبمؤلفاته التي كانت ولم تزل المرجع في العقيدة، والدعامة للفكر البشري والمسيحي على حدٍ سواء. وبانتظار الكلام على "قبريانوس" و"أغوسطينوس" في حينه، ننتقل الآن الى "ترتوليانوس" المعلّم، كما كان يحلو لتلميذه "قبريانوس" القديس أن يسمّيه.

القسم الثاني

ترتوليانوس القرطاجي

حياته ومؤلّفاته

١
حياة ترتوليانوس

ولـــــــــــــد ترتوليـــــــــــانوس (Quintus Septimius Florens Tertullianus) في مدينـــة "قرطاجـة" ما بين سنة ١٥٠ و ١٦٠ مسيحيّة، مـن عائلـة وثنيـة، وكـان والده قائد ماية في الجيش الرومـاني التـابع لولايـة "أفريقيـا". ومنذ طفولته ابتدأ بالتعمّق باللغة اللاتينيّة وآدابهـا، ثـم درس اليونانية التي اتقنها جيّداً حتى أنه توصّل الى التحدث بها والى كتابتهـا بكـل سهولة. وعندمـا أصبـح شـاباً درس الفلسـفة والعلوم الطبيّة، غـير أن القـانون استوقفه أكثر، فتفـرّغ لـه وأصبح محامياً لامعاً ومتشرّعاً من الدرجة الأولى. ولقد حملتـه شهرته للانتقال الى "رومـا" حيـث أمضـى أجمـل أيـام شـبابه، وبرع في حقل القانون هناك، الأمر الذي جعله ملتقى الانظار وصـاحب الـرأي الـذي لا يـردّ، والاجتهـاد الـذي مـا بعـده اجتهاد. غير أن شبابه يختصر بكلمة واحـدة: الثـورة. وهـذه الثورة قد لازمته طوال حياته، وهي التي كـانت علـى أسـاس اعتناقه المسيحية، وانفصاله بعدئذٍ عـن الكنيسـة الكاثوليكيـة التي دافع عنها طويلاً قبل أن ينتقل الى "المونتانيـة"، ومـن ثـم الى تأسيس بدعته الخاصة التي عرفت بـ "الترتوليانية".

ففي سنة ١٩٥ مسيحيّة غادر "ترتوليانوس" مدينة "روما" نهائياً وعاد الى مدينته "قرطاجة"، وكانت حياته قد انقلبت كليًّا لأنه أصبح مسيحيًّا بعد أن شاهد بطولات الشهداء المسيحيين الذين كانوا يسيرون الى الموت بفرح من جرّاءالاضطهادات الوثنية لهم. وهكذا كرّس حياته للمدافعة عن العقيدة المسيحيّة بكل قناعة، ملزماً نفسه بكل تعاليمها حتى التزمُّت، ومحارباً الهرطقات العديدة، التي كانت تناقض الكنيسة الكاثوليكية، والوثنية، التي كانت تشكّل عقبة كبيرة في طريقها الى قلب الشعب، واليهودية، التي وقفت في وجه الامتداد المسيحي أينما كان. ورغم ان القديس "ايرونيموس" يؤكد، في كتابه "الرجال العظام" المقطع ٥٣، على أن "ترتوليانوس" أصبح كاهناً، غير أن كثيرين من المؤرخين ينفون ذلك، مع العلم ان كتبه الثلاثة عن الصلاة (De Oratione)، وعن العماد (De Baptismo)، وعن التوبة (De Paenitentia)، لها طابع المواعظ، وتجعلنا نعتقد ان هذه المواعظ قد ألقاها على المؤمنين الذين كانوا في عهدته كراعٍ لهم. ومهما كانت الحقيقة حول أمر كهنوته، فان "ترتوليانوس"كان ذلك الرسول الحقيقي الذي تفانى في سبيل رسالته المسيحيّة، وكان المرجع في تعاليمه الفلسفية واللاهوتية، حتى أن القديس "قبريانوس"، أسقف "قرطاجة" الشهير، الذي سيأتي الكلام عليه في كتاب خاص به في هذه

الموسوعة، لـم يكن يخلد الى النوم قبل قراءة مقطـــعٍ مـــن مؤلفات "المعلم"، كما كان يدعوه.

هذه الثورة الروحية، وهذا الحماس المـــتزايد عنـــد "ترتوليانوس"، وهذا التفاني في سبيل نشر العقيدة المسـيحية، لـم يحولوا دون خلافه معٍ المسؤولين في الكنيسة الكاثوليكية، فـراح يبتعـد عنهـا رويـداً رويـداً، ابتـــداءاً مـــن ســـنة ٢٠٤ مسيحية. أمّا سبب هذا الابتعاد، فلا نعرفه لغاية الآن. منهـم من قال إن "ترتوليانوس" كان يرغب في الاسـقفية، وبمـا أنـه لـم يحصل عليهـا، فلقـد انفصـل عـن الكنيسـة الكاثوليكيـة. ومنهـم مـن قـال إن تشـدّده المفـرط جعلـه يبتعـد لأنـــه رأى الاستهتار والتراخي عند بعـض المسؤولين والمؤمنـين في أمـور الدين والعقيدة. ومنهم من اعتقد ان حريتـــه الفكريـة جعلتـه يرفض القوانين الصارمة التي كانت تضعها الكنيسة، والخالية مـن الـروح الالهـي، وهـي الـتي دفعتـه الى اعتنـاق "النبـــوءة الجديدة" التي كان أصحابهـا يبشـرون بهـا في ذلـك الزمـن. ومهمـا كـانت الأسـباب، فـان "ترتوليـانوس" تـرك الكنيسـة الكاثوليكية ابتداءً من سنة ٢٠٤ م، وراح يبشّر بعمل الروح القـدس في الكنيسـة، والنبـوءات، وبـــالرؤى، وبالانخطـــاف، وبالممارسات الصوفية المتشدّدة التي كانت جماعة "المونتانيـة" تمارسـها، منتقـداً التسـامح والتســـاهل مـــن قبـــل الكنيســـة الكاثوليكية بالنسبة الى لباس النساء، والى حجاب العـذارى،

والى الزواج مرّة ثانية بعد موت الشريك، والى الاصوام التي كانت مفروضة. وبعد مدّة وجيزة لم يعد يتكلم عن المؤمنين الكاثوليك إلاّ ويدعوهم "النفسانيون" (Psychiques)، كأنّهم لا يحصلون على أنوار الروح القدس المحفوظة "للروحانيين" (Pneumatiques).

وفي سنة ٢١٣م، كانت القطيعة النهائية مع الكنيسة الكاثوليكية، وسبب ذلك أن بعض الجنود المسيحيين قد قبلوا اكليل الغار الذي كان يُعطى من خلال الاحتفالات الوثنية، وقد وافق على ذلك عددٌ كبير من الاساقفة ومن المؤمنين. كذلك وافق هؤلاء الاساقفة على أن يتسلّم بعض المسيحيين مراكز في الدولة تجعلهم يتواطأون مع الوثنيين، الأمر الذي كان يدفعهم للتساهل في الاحتفالات الوثنية وفي عبادة الاصنام. وتجاه هذا الأمر، انتفض "ترتوليانوس" وأعلن موقفه قائلاً: لا حدّ وسط بين الله والعالم، وبين الخير والشرّ، وبين الفضيلة والرزيلة. وبما أن المسؤولين في الكنيسة يساومون ويتساهلون، فليس عليّ سوى الابتعاد، لأن كنيسة كهذه ليس بامكاني ان أجد الخلاص فيها. وهكذا، ابتدأ حياةً صامتة ومنعزلة، لم تقطعها سوى مناسبات قليلة ليوجه فيها انتقاداته اللاذعة ضدّ الذين تركهم وتخلّى عنهم من الكاثوليك. وبعد أن كرّس معظم وقته للتأليف، قرّر أن يعتزل نهائياً مع القلائل من تُبَّاعه الذين كانوا يُدعون

بـ"الترتوليانيين" المتشدّدين، بعد أن كتب كتابه الأخير عـــن الاحتشـــام" (De Pudicitia) خـــلال حبريّـــة البابـــا القديـــس "كاليســـتوس" (٢١٧ ــ ٢٢٢). ورغـــم تـــأكيد القديـــس "ايرونيموس" على أن "ترتوليانوس" توفّاه اللـــه ما بـين سـنة ٢٤٠ و ٢٥٠ مسيحيّة، فان المؤرخين يعتبرون انه غادر هـذه الدنيـــا حـــوالي ســـنة ٢٢٥ ميلاديـــة. وحســـب القديـــس "أغوسطينوس"، فان "ترتوليانوس" قد عاش المرحلـة الأخـيرة من حياته منعزلاً عن الكاثوليك والمونتانيين على حـدٍ سـواء، لا يحيط به سوى قلّة من تلاميذه الذيـن دُعـوا "ترتوليـانيون" كما ذكرنا سابقاً. وهذه الملّة الترتوليانية قد عاشت ردحاً من الزمن متصلّبةً بآرائها، وبعيدة كلّ البعـد عـن النـاس، الى أن حـاول القديـس "أغوسـطينوس"، في بدايـة القـرن الخـامس، إعادة من تبقىّ من أفرادها الى حضن الكنيســة الكاثوليكيـة، الأمر الذي جعله يفرح فرحاً كبيراً بعودة الأبناء الضـالين الى حظيرة خراف المسيح.

وإذا أردنا، بعد كلّ ما تقدّم، أن نحدّد "ترتوليـــانوس" بكلام وجيز، فان كلمتي ثوري وانفعـالي تنطبقـان عليـه. وفي الواقع، فلم يكنِ عنده حدٌّ وسط. فعندما تلوح له فكرة مـا، كان يندفع كلياً للدفاع عنها، وللتأكيد عليها. وبالنسبة اليه، ليس هناك وسط بين الخير والشرّ، وبين الحقيقة والضلال. إنه يبشـر بالحقيقـة، أو بمـا يعتقـده حقيقـة، بحمـاس لا مثيـل لـه،

وباندفاع كلّي. وعندما يكتشف أنه على خطأ، فلا يتوانى عن أن يحرق كلّ ما كتب، بالحماس نفسه، وبالاندفاع نفسه. فعندما اعتنق المسيحية هاجم بعنف الوثنيين واليهود والهراطقة. ولم يكتفِ بان يدافع عن عقيدته، بل انتقل الى الهجوم المركّز بلغة مميّزة، حتى ان الذين يقرأون كتابه الدفاعي عن المسيحية (Apologeticum) يعتقدون ان المسيحيين، في "قرطاجة" نهاية القرن الثاني المسيحي، كانوا الأكثرية الساحقة، وان الوثنيين كانوا قد أصبحوا قلّة قليلة، مهزومة وخجلة من انتصار المسيحيّة عليها. وبالعكس عندما كان يلاحظ الضعف والاستهتار والمساومة في الكنيسة الكاثوليكية، كان يهاجم المسؤولين فيها بالعنف ذاته وبالثورة الانفعالية نفسها، حتى أنه انفصل كلياً عنها، وخير شاهد على كرهه لها ما كتبه في كتابه عن الاحتشام (De Pudicitia) حيث لم يعد يملك نفسه مطلقاً. والكنيسة التي بشّر بها لم تعد كنيسة الاساقفة والرؤساء لأنها كنيسة ساقطة، تغفر للزناة وتحتضن الخطأة الكبار، بل الكنيسة الروحانية التي لا ينتمي إليها إلاّ الأبرار والأطهار. ولقد توصّل الى الاقرار بانه لا توجد خطايا كبيرة وخطايا صغيرة. فالخطايا جميعها كبيرة ومميتة، وليس هناك من مغفرة للخطأة. إنه كان متطرفاً في كلّ شيء. والتناقض في الرأي لم يكن ليخيفه، بل العكس كان يستهويه. وتحت ستار منع الزواج الثاني بعد موت الشريك، توصّل الى منع الزواج مطلقاً، معتبراً أنه خطيئة بحدّ

ذاته. حتى أنه لـم يكتفِ بفرض الوشاح للعذارى، بلٍ راح يحدّد طول هذا الوشاح وعرضه بدقة لكي يكون متناسباً مـع تعليمه الروحي. وكمرشد روحي، كان يفرض بعض القوانين القاسية للخلاص، حتى أنه كان يقـول: إذا لـم تتبعـوا هـذه الالتزامات ستكونون، يوماً من الأيام، عرضة للاستهزاء أمام المختارين في السماء.

على صعيد آخر، وهو البليغ والفصيح لغوياً، كان يجد الكلمات المناسبة للتعبير عن فكرته بكل سهولة. كـان يتقـن العلوم اللغوية والعلوم الديالكتيكيّة والآداب بكلّ ما فيها من جماليات. وعندما لا يجد الكلمة المناسبة في اللغة، كان يشـتقّ كلمة جديدة، أو يوجد كلمة جديدة من اختراعه واستنباطه. فاللعبة الأدبية كان يمتلـك ناصيتهـا، والفكـرة الـتي يريـد أن يؤدي معناها بوضوح كان يخرجها بقـالبٍ جمـالي لكـي تحقـق الغاية التي يريد. وكقانوني مميّز، كان يعرف كيف يترافع عن قضية عزيزة على قلبه، وكان يتوسّل جميع المعطيات القانونية ليقنع خصمه، حتى ولو كانت القضية غير محقّة. لذلك نرانـا أمام مؤلفاته في صعوبة، لأنه يقول الكثير الكثير في كلمـات قليلة، ويتعذّر فهم كلّ ما يريد. من هنا صعوبة ترجمة مؤلفاته الى لغات اخرى. وحتى تفسير بعض ما كتب يكـون متعـذّراً في أكـثر الحـالات، والمثـل علـى ذلـك كتابـه عـن الـرداء (De Pallio) الذي لـم يزل شغل المفسّرين الشاغل.

وباختصار، ورغم اخطائه الكثيرة، فان "ترتوليانوس" يعتبر من أهمّ الكتّاب الكنسيين الذين كان لهم التأثير الكبير على تطوّر الفكر اللاهوتي في كنيسة المسيح. إنه،بدون شك، مبتكر اللغة اللاهوتية اللاتينية، ولا نجد له مماثلاً في نهاية القرن الثاني المسيحي، إن على صعيد البلاغة الادبية، وإن على صعيد الغنى اللغوي الذي تميّز به. إنّه، مع القديس "أغوسطينوس"، أهم كاتب كنسي باللغة اللاتينيّة، وأهمّ مجدّدٍ فيها. والحقيقة كانت هاجسه الدائم، حتى إن كلمة "حقيقة" وردت في أحد مؤلفاته ١٦٢ مرّة. وبهذا المعنى يقول باللاتينيّة:

"Nihil veritas erubescit, nisi solummodo abscondi"

ويزيد قائلاً: إن المشكلة الوحيدة بين المسيحيّة والوثنية تختصر بهذه الكلمات: "Vera vel falsa divinitas". وعندما أسس السيد المسيح ديانته كان يريد بذلك أن يكشف الحقيقة للبشرية "In agnitionem veritatis" (الدفاعي،٢١، ٣٠). لذلك فان اله المسيحيين هو الاله الحقيقي "Deus Verus"، والحقيقة وحدها هي التي تميّز المسيحيين عن الوثنيين. ولقد أعلن مراراً هو نفسه أنه مستعد للموت شهيداً في سبيل دينه المسيحي، الدين الحقيقي. لذلك تبقى صورته صورة الانسان الذي التزم بما آمن به حتى آخر نفس من حياته، رغم المفارقات التي أبعدته عن الكنيسة الكاثوليكية،

ولكنها لـم تبعده عن المسيح، الإله الحقيقي الذي من أجلـــه كلّ شيء حق، حتى الشهادة، شهادة الدم.

هذا عن حياته، فماذا عن مؤلفاته؟

٢
مؤلفات ترتوليانوس

إنه لمن الصعب جداً أن نتّبع تسلسلاً تاريخياً لمؤلفات "ترتوليانوس" نظراً الى المراحل الثلاث التي مرّ بها من يوم اعتناقه المسيحية الى يوم القطيعة التامة مع الكنيسة الكاثوليكية. ولكن المواضيع التي تطرّق لها تجعلنا نقسم مؤلفاته الى ثلاثة أقسام وهي: المؤلفات الدفاعية، والمؤلفات الجدليّة، والمؤلفات التوجيهيّة والأدبية والنسكية. وانطلاقاً من هذا التقسيم نعتقد ان القارىء سيرى بوضوح كيف تطوّر فكر "ترتوليانوس"، وما هي الأسباب التي دفعته ليبتعد نهائياً عن الكنيسة الكاثوليكية بعد أن كان خير مدافعٍ عنها، وهل هو على حق أم لا.

١ـ المؤلفات الدفاعية

تحوي المؤلفات الدفاعية خمسة كتب: الأول هو كتاب موجّه الى الوثنيين، والثاني كتاب دفاعي عن العقيدة المسيحيّة، والثالث كتاب بعنوان شهادة النفس، والرابع كتاب الى الحاكم "سكابولا"، والخامس كتاب ضدّ اليهود. وسنعرض هنا أهمّ ما جاء في هذه الكتب.

أ- الى الوثنيين (Ad Nationes)

هذا الكتاب، الذي يقسم الى كتابين، هو أجمل ما كتب "ترتوليانوس" عن وحدانية الله. فالكتاب الأول يدحض الاجراءات القانونية المتبعة ضدّ المسيحيين التي لا تخضع لمنطق وتتنافى مع مبادىء العدل الحقيقية، وذلك لأنها (هذه الاجراءات الظالمة) ثمرة الجهل وثمرة التحامل على الحقيقة نفسها. فالوثنيون يدينون ما يجهلون، وما لا يفهمون، لأنه لم يُعطَ لهم ذلك. فهم يفترون على المسيحيين ويغالطونهم، بينما يفعلون أسوأ منهم، خصوصاً وان جرائمهم اليومية هي أشنع الأمور. وحتى إذا كانوا على حق في إدانتهم المسيحيين على أمورٍ اقترفوها، فانه ليس عدلاً أن يدين الخاطىء خاطئاً مثله، وهذا الأمر محفوظ للسلطات الكنسية التي تمثل الله على الأرض، أو بالأحرى محفوظ لله وحده. فلا سلطة للوثنيين على المسيحيين، خصوصاً وإنه حق لكلّ انسان ان يختار الديانة التي يقتنع بتعاليمها.

وأمّا الكتاب الثاني فهو نقدٌ لاذع للديانة الوثنية، وبنوع خاص للمعتقدات الرومانية التي تعدّد الآلهة التي تقسم، عندهم، الى ثلاثة أقسام: آلهة الفلاسفة، وآلهة الشعراء، وآلهة الأمم. وهذه الآلهة هي من صنع البشر، وتتنافى مع المفهوم الحقيقي للألوهة التي يمثلها الإله المسيحي،

الإله الحقيقي. من هنا دعوته الى اعتناق الوثنيين المسيحية لأنها دين الحق والدين الحقيقي، ولأن منطق الحقيقة نفسها لا يتنافى مع معتقداتها وتعاليمها. ويخلص "ترتوليانوس" الى القول: "إن أحكامكم ليست بشيء لأن المسيحي يعني الممسوح... وهذه ميزة الطيبة والفضيلة" (الى الوثنيين، الفصل الأول، ٣، ١٠).

ب ـ الدفاعي (Apologeticum)

إن كتاب "الدفاعي" هو أهم مؤلفات "ترتوليانوس"، رغم تشابهه مع كتابه "الى الوثنيين". فهو يظهر مزيداً من الوحدة في الفكرة والمبنى، ويعتبر بناءً كاملا بحدّ ذاته. وبينما نرى أن التدليل والحجج في كتاب "الى الوثنيين" يحتفظ بطابعٍ فلسفي وجدلي، إذا بالاستدلال في كتاب "الدفاعي" يأخذ شكلاً أكثر شرعية وقانونية. فـ "ترتوليانوس" يُظهر فيه تحفظاً أكبر منه في "الى الوثنيين" لأنه لا يعني بهذين الكتابين القارىء نفسه. كتاب "الى الوثنيين" موجّه الى العالم الوثني بصورة عامة، فيما كتاب "الدفاعي" يسعى للبلوغ الى حكّام المقاطعات الرومانية. فيه يهاجمهم، وفي الوقت نفسه يريد اقناعهم.

أمّا جوهر محتوى "الدفاعي" فيمكننا تلخيصه بالآتي: الجهل وحده يفسّر الحقد والمذابح والاضطهادات التي يتعرّض لها المسيحيون. وبهذا الصدد يقول: "الحقيقة تعرف أنها تعيش غريبةً في هذا العالم، وان لها أعداء بين صفوف الغرباء، ولكنها تعرف أيضاً أن لها عائلتها، ومنزلها، وأملها، ورصيدها، ومجدها في السموات. ورغبتها الوحيدة، وهي في انتظار مجد السموات، أن لا يُحكم عليها قبل أن تعرف. فما الذي تخسره قوانينكم، الحاكمة بأمرها، ضمن حدود الأمبراطورية، لو أنَّ الحقيقة عُرفت واقتنع بها الكثيرون؟" (الدفاعي، ١، ٢). لكن الاجراءات القانونية المعتمدة من قبل السلطات الحاكمة تناقض النهج وكل مبادىء العدالة، والوثنيون أنفسهم لم يكونوا ليستطيعوا تبرير حقدهم وبغضهم لكل من حمل صفة "المسيحي". إن قيمة أي قانون بشري ترتبط بهدفه وبأخلاقيته. لذلك لا يمكن للديانة المسيحية أن تناقض قرارات الدولة. بالاضافة الى أن الأباطرة الظالمين وحدهم هم الذين، دون سواهم، أصدروا قوانين ضدّ المسيحيين: "هكذا كان دائماً حال من اضطهدونا، أناس ظالمون، زنادقة وسفلة. وأنتم أنفسكم لطالما أدنتموهم وأعدتم الاعتبار الى من يصدرون بحقّهم الأحكام الجائرة" (الدفاعي، ٥، ٥).

بعد هذه المقدمة التي تستغرق الفصول الســـتة الأولى من "الدفاعي" يتكلّم "ترتوليانوس"، ولكن دون توسّـع، عـن الجرائـم السـريّةٍ (مـن الفصـل السـابع الى الفصـل التاسـع)، ويتوقـف مطـوّلا عنـد قضيّـة الجرائـم العامّـة المنسـوبة الى المسيحيين. ويبرهن بالوقائع على انه لا يوجد أيّ دليـل علـى ارتكـابهم جريمـة قتـل الاطفـال المنسـوبة الى أحـد أسـرارهم المقدسة، أو اشـتراكهم في مـآدب المجـون، أو إقامـة علاقـات جنسيّة بين أفـراد العائلـة الواحـدة الـتي تعتـبر مـن المحرّمـات الشنيعة. وبهذا المعنـى يقـول: "وحدهـا الشـائعات هـي الـتي تؤكد، منذ زمن بعيد، جرائم المسيحيين" (الفصلان ٧ و١٣). وبالعكس، فان الوثنيـين هـم الذيـن أقدمـوا علـى مثـل هـذه الأعمال الفظيعة. ربّما الاتهامات الموجهة الى المسيحيين عن احتقـــار ديـــن الدولـــة هـــي أكـــثر جدّيـــة (Intentatio laesae divinitatis)، او بالأحرى الاتهامات بالخيانـة العظمى (Titulus laesae augustioris majestatis). فالمسـيحيون، في نظره، لا يشاركون في تكريم الاصنام، وذلك لأنها (هـذه الاصنام) ليست سوى مخلوقات بشرية اختفت من الوجـود، والصورٍ والتماثيل التي تمثلها هي مادية ولا حياة فيها. وليس مستغرباً ان يقدم المسيحيون على الهزء بآلهة مـن هـذا النـوع فوق خشبات المسرح، وأن يحتقروها داخـل معـابدهم. لكـن المسـيحيين يكرّمـون خـالق العالـم، الـذي هـو وحـده الالـه الحقيقي، والذي أظهر نفسه من خلال الكتب المقدسة. فليس

من العدل اتهامهم بالالحاد لأن الآلهة المزعومة التي يعبدهـــا الوثنيون ليست آلهة على الاطلاق. وبهذا المعنـى يقـول: "ان اعتراف آلهتكم الذي بواسطته يقرّون أنهم ليسوا آلهة، وبأنـه لا يوجد إله غير الذي ننتسب إليه، يكفي لردّ التهمة القائلـة إن المسـيحيين يسـيئون الى الديانـة العلنيـة، وبخاصـة الديانـة الرومانية. وإذا كانت آلهتكم غير موجودة، فان ديانتكم هي أيضاً غير موجودة. وإذا كانت ديـانتكم غـير موجـودة، لأن آلهتكم هـي غـير موجـودة، فانـه حـقٌ اننـا غـير مذنبـين تجـاه ديانتكم. بل العكـس هـو الصحيـح، إذ سـيرتدّ عليكـم لـومٌ توجهونه إلينا، انتم الذين تعبدون الكذب ولا تكتفون باغفال ديانة الإله الحقيقي، بل تذهبون الى حدّ محاربتها. فانكم بذلك ترتكبون جريمة زندقـة حقيقيـة" (الدفـاعي، ٢٤، ١ـ٢). ثـم يطالب "ترتوليانوس" باطلاق حرّية العبادة في اختيـار الديانـة التي يريد، ويقول: "تنبّهوا جيـداً، فقـد تكـون جريمـة زندقـةٍ ومروق أن تنتزعوا من الناس حرّية الدين وأن تحرّموا عليهـم اختيار إلههم، أي أن لا تسمحوا لي بتكريم من أريد تكريمـه، وتجبروني على تكريم مـن لا أريـد تكريمـه. فليـس ثـمّة مـن يرضى بأن يكرّم بالقوة، حتى الانسان لا يريد ذلك ولا يقبل بـه. وعلـى ذلـك تُعطـى للمصريـين حريـة التعـاطي مـع خزعبلاتهم، ووضعهم الطيور بمصاف الآلهة، والحكم بـالموت على من يقتل إلهاً من هذه الفصيلة. فلكلّ منطقة ولكلّ مدينة الإله الخاص بهـا... ونحـن وحدنـا يحـرّم علينـا أن تكـون لنـا

ديانتنا، لأننا، على حدّ ما تزعمون، نسيء الى الرومانيين، ولا يُنظر إلينا كرومانيين لأن الاله الذي نعبد ليس إلهاً من آلهتهم. ولحسن الحظ أنه إله جميع البشر، شئنا أم أبينا، ويمتلكنا جميعاً. وأنتم تسمحون بعبادة أي شيء ما عدا الاله الحقيقي، وكأنه ليس إله الجميع، الذي ننتمي إليه جميعا" (الدفاعي، ٢٤، ٦-١٠).

ثم ينتقل "ترتوليانوس" الى دحض الرأي السائد والقائل إن عبادة الأصنام هي التي منحت "روما" السلطة التي تمارسها على العالم، فيقول ما فحواه: إن الاله الحقيقي هو وحده الذي يمنح السيادة على العالم لمن يشاء، وليس العناد ولا التشبّث هما اللذان يحولان دون تكريم آلهة الدولة من قبل المسيحيين، بل القناعة بأن تكريماً من هذا النوع موجّه الى الشياطين. وهم لا يستطيعون أن يقدّموا الذبائح لهذه الآلهة، وان على نية الامبراطور، لأن هذه الآلهة عاجزة عن إغاثته. لذلك، فان رفض المسيحيين ليس جريمة، ولا يجوز أن يُعتبر كذلك، بل على العكس من ذلك، فهم يرفعون الصلوات الى الاله الحقيقي، ويتضرّعون إليه، على نية الحاكم. فالسلطة هي لله وحده، مهما كانت، ومن أي نوع كانت. وبهذا المعنى يقول أيضاً: "نحن نصلّي من أجل خلاص الأباطرة، نصلّي للّه الازلي، الاله الحقيقي، الاله الحيّ، الذي يفضّل الأباطرة أنفسهم رضاه على كل الآلهة الأخرى. إنهم

يعرفون من أعطاهم الأمبراطورية، ويعرفون، بصفتهم بشراً، من منحهم الحياة، ويشعرون بأنه وحده اللّـــه صاحب السلطة، وهم يأتون في الدرجة الثانية مباشرة بعده، قبل جميع الآلهة. وكيف لا يكون الأمر كذلك وهم فوق جميع البشر الذين يُعتبرون فوق الأموات لأنهم أحياء؟ يعرفون حق المعرفة الى أين تمتدّ حدود قوى أمبراطوريتهم، وهكذا يرون أن اللّه موجود، ولأنهم يدركون عجزهم عن القيام بأي عمل ضدّه، يعترفون بأنهم أقوياء به. وإلاّ لماذا لا يعلن الامبراطور حرباً على السماء؟ لماذا لا يجرّ السماء أسيرة وراء عربة انتصاره؟ لماذا لا يرسل حرساً الى السماء؟ ولماذا لا يفرض على السماء جزية؟ لا يفعل لأنه لا يستطيع. فالامبراطور لا يكون كبيراً إلاّ بقدر ما هو في موقعٍ أدنى من موقع السماء: وهو في الحقيقة مُلكٌ لمن يمتلك السماء والخليقة. إنه امبراطور بمن صنعه إنساناً قبل ان يجعله امبراطوراً، ومنبع سلطانه هو ذاته منبع النفث الذي يحييه" (الدفاعي، ٣٠، ١-٣).

والمعروف عن "ترتوليانوس" أنه، في سبيل نفيه كون المسيحيين أعداء الدولة والجنس البشري، ولكي يؤكد على الظلم اللاحق بهم من جرّاء عدمٍ الأعتراف بشرعية مؤسّساتهم، يرسم صورة لطيفة جداً عن الشعائر الدينية المسيحية فيقول: "نحن "جسد" من حيث شعورنا المشترك بايمان واحد، وبوحدة التنظيم، وبرابط الرجاء. نحن نؤلّف

رابطة وجمعية للألتفاف حول اللّه بصلواتنـــا مثـــل فرقـــة عسكرية متماسكة. وهذا العنـف يـروق للّــه. ونحن نصلّـي ايضاً على نية الأباطرة ووزرائهم، كما نصلّي من أجل القوى حوله، ومن أجل العصر الذي نعيش فيـه، ومـن أجـل سـلام العالـم، ومن أجل إرجاء النهاية. ولئن تجمّعنا فلكـي نقـرأ في الكتب المقدسة، اذا مـا أرغمنـا الزمـن الـذي نحن فيـه علـى البحث عن تنبيهـات للمسـتقبل أو اجتهـادات مـن المـاضي. ونحن، على الأقل، نغـذّي ايماننـا مـن خـلال هـذه الكلمـات المقدّسـة، ونمكّـن ثقتنـا، ونوثـق روابـط انضباطنـــا بالتزامنـــا المبادىء. وفي هذه الأجتماعات نحثّ بعضنا على عمل الخير وعلى الايمان وعلى التأديب والرقابة الذاتية باسم اللّـــه. وفي هذه الاجتماعات ايضاً تصدر احكام لها وزنها الكبير، باعتبار أننا واثقون من وجود اللّـــه بيننـا، كمـا نعتـبر حكمـاً مسبقاً بالنسبة الى الدينونة العامة، اذا ما ارتكب أحدنا خطأً يقصيـه عن الصلوات الجماعية، وعن الأجتماعات، وعن كل علاقـة بالأشـياء المقدسـة. ويـترأس الاجتماعـات شـيوخٌ مـن ذوي الخبرة، وهؤلاء ينالون هذا الشرف الكبير ليس بالمـال، بـل بالشهادة لفضيلتهم، لأنــه مـا مـن شيء متعلّـق باللّـه يقـدّر بالمال. واذا كان لدينا صندوق مال مشترك فليس ذلك بمبلغ فخري يقدّمه افراد النخبة كما لو كانت الديانة معروضـة في المزاد العلني، بل كلّ واحد منّا يقدّم شيئاً زهيداً في يوم معيّن من الشهر، أو في اليوم الذي يختاره، أو حين يستطيع ذلـك،

دون أن يرغم أحدّ على الدفع، بل يترك الأمر لكلّ فردٍ حسب طاقته وامكانياته. فالصندوق يشبه مستودعاً للتقوى. ولا يصرف المبلغ في سبيل المآدب او لجلسات السكر، بل من أجل إطعام الفقراء او دفنهم، ولمساعدة الشبّان والشابات الذين لا مال لهم ولا أهل، وللخدم الطاعنين في السنّ، وللمعوزين، وللمسيحيين الذين يتعذبون في سبيل اللّه، سواء في المناجم، او في الجزر البعيدة، او في السجون، من أجل ايمانهم الذي يعترفون به ويجاهرون. وممارسة عمل الخير هذه هي، في نظر الكثيرين، وصمة معيبة، اذ يقول هؤلاء:"انظروا كيف يحبّون بعضهم بعضاً "،لأن الذين ينتقدوننا يكرهون بعضهم بعضاً، كما يقولون ايضاً:"انظروا كيف انهم مستعدون للموت في سبيل بعضهم بعضاً "، وذلك لأنهم هم انفسهم مستعدّون لقتل بعضهم بعضاً "(الدفاعي، ٢٩، ١-٧).

امّا في القسم الأخير من الكتاب، وهو من الفصل السادس والاربعين الى الفصل الخمسين، فيحاول "ترتوليانوس" أن يدحض فيه المقولة التي تدّعي أن الديانة المسيحية ليست سوى فلسفة جديدة، لا غير. فالمسيحية، في نظره، هي أكثر من نظريات في أصل البشر. هي وحي إلهي وحقيقة أظهرها الله للانسانية جمعاء. لذلك، فان مضطهديها لا يستطيعون القضاء عليها:"إن قساواتكم الأكثر فظاعةً لا

تجدي نفعاً بل هي اغراء يجذب الىٰ ديننا. وكلّ مرّة تحاولون ان تحصدوننا فيها، فان عددنا يزداد لأن دم المسيحيين هو بذار مقدس" (الدفاعي، ٥٠، ١٣).

هذا باختصار عن كتاب "الدفاعي" الذي يعتبر أهمّ كتاب من مؤلفات "ترتوليانوس". ولأهميته القصوى قد ترجم، بعد مدّة وجيزة، الى اللغة اليونانية من كاتب فلسطيني، كما يذكر ذلك المؤرخ الكنسي "أوسابيوس القيصري". ولقد أجمع المؤرخون على ان كتاب "الدفاعي" قد لعب دوراً مهماً جداً في تاريخ الفكر المسيحي عبر العصور.

ج - شهادة النفس (De Testimonio Animae)

كان من عادة الفلاسفة الهيلّينيين مثل "بوسيدونيوس"، و"فيلون"، و"كريزيبيوس"، وغيرهم ان يستقوا معرفتهم بالله من خلال تأملهم للعالم الأكبر وللعالم الأصغر، أعني الكون بأمتداده اللامتناهي والنفس البشرية في داخل الأنسان. وعلى مثالهم حاول "ترتوليانوس" أن يبرهن عن هذه الحقيقة، فكتب في كتابه "الدفاعي"، الفصل السابع عشر، يقول:"هل تريدون أن نثبت وجود اللّه من خلال أعماله الكثيرة والرائعة، تلك الأعمال التي تحفظنا وتسندنا وتفرّحنا،

وحتى التي تخيفنا؟ ان شهادة النفس البشرية، وإن كانت في سجنٍ ضيّق داخل الجسد، تخدعها تربية سيّئة، او في ثورة عصبية من جرّاء الاهواء الشهوانية، او مستعبدة للآلهة المزيّفة، فهي تسمّي اللّه باسمه لأنه اسم الاله الحقيقي، خصوصاً عندما تعود الى ذاتها وكأنها تستيقظ من نوم عميق او من مرض، وقد أصبحت في حالتها الطبيعية. "اللّه كبير"، "اللّه طيّب"، و"إن شاء اللّه"، تلك هي الصرخة الكونية. والنفس البشرية تعترف به ايضاً قاضياً :"اللّه يرى"،و"أعتمد على الله"، و"الله سيكافئني". يا لشهادة النفس المسيحية بطبيعتها" (الدفاعي، ١٧، ٤-٦).

هذه الحجّة التي أوردها "ترتوليانوس" في كتابه "الدفاعي"، والتي اعتبرها شهادة النفس المسيحية بطبيعتها (Testimonium animae naturaliter christianae)، قد استفاض في شرحها في كتاب بعنوان "شهادة النفس" (De testimonio animae) الذي يعود تاريخ كتابته الى سنة ١٩٧ مسيحية، السنة التي كتب فيها كتابه "الدفاعي". فالطابع الدفاعي واضح في الكتاب المؤلّف من ستة فصول، حيث نرى "ترتوليانوس" يبذل جهده ليعطينا شهادة النفس البشرية التي تفسدها "التربية"من اجل إثبات وجود الله وصفاته، واثبات الحياة بعد الموت، واثبات حقيقة العقاب في الآخرة. فلا حاجة الى بحث فلسفي، بل كل هذه الحقائق موجودة في

النفس. والطبيعة، معلّمة النفس، ترشدها الى أنها صورة الله في هذا الكون. وبهذا المعنى يقول:"أريد هنا ان أستشهد بدليل جديد، معروف أكثر من أي أدب، واعمق من أية عقيدة، ومنتشر أكثر من اي كتاب، ومتفوّق على كل انسان، اي على كلّ ما هو بشري. فيا ايتها النفس اظهري ذاتك. فاذا كنت إلهيّة وأبدية، كما يعلّمنا الفلاسفة، فاذن انت لا تكذبين. او اذا لم تكوني إلهيّة البتّة لأنك قابلة للموت، كما ينفرد بهذا الأعتقاد "ابيقوروس" وحده، اذن فلا يجوز ان تكذبي. فهل انت ابنة السماء أم مولودة من الأرض؟ هل أنت مكوّنة من أرقام أو من ذرّات؟ هل تبدأين مع الجسد أم تأتين بعد هذا الجسد؟ وأخيراً، من أيّ مكان أتيتِ، وبأية طريقة كانت، فأنت تصنعين من الانسان حيواناً عاقلاً، قادراً على الحكم والمعرفة. لكنني لا أتوجّه اليك أنت التي تكوّنتِ في المدارس، والتي تمرّستِ في المكتبات، وتغذّيتِ في الأكاديميات أو في مذهب الرواقيين اليونان الذين تقيّأتهم الحكمة. بل أدعوك أنتِ الى الحضور، أنتِ البسيطة، البربرية، الجاهلة، أنتِ التي يمتلكها أولئك الذين ليس لديهم سواكِ، حتى أنتِ التي تخرجين مباشرة من الشارع، من الساحة، أو من المحترف.فان جهلكِ هو ما احتاج إليه، لأن ليس ثمّة من يصدّقك حالما تعلمين أقلّ شيء. أسألكِ عمّا تحملين معك في الانسان، وماذا تعلّمت ان تكتشفي في ذاتك ومن خلال صانعك، كائنا من كان" (شهادة النفس، الفصل الأول).

نرى هنا أن "ترتوليانوس"، على نقيض المدافعين عن العقيدة المسيحية من اليونانيين، يشدد على عدم فائدة الرجوع الى الفلسفة، لأن الطبيعة، الطاهرة والبسيطة، تقدّم للحقيقة شهادة تفوق كل علم. وكلمة "النفس المسيحية طبيعياً" لا تعني معرفة الله مسبقاً. لذلك يوضح "ترتوليانوس" قائلاً: "أعرف أنك لستِ مسيحية، لأن النفس تصبح مسيحيّة ولا تولد مسيحيّة" (الفصل الأول من شهادة النفس). وهذا التعبير يعني الاعتراف العفوي بالخالق، اعترافاً يمنحه التأمل بالكون، او تعطيه الخبرة، ويظهر من خلال التعجّب اليومي الذي يعلنه البشر امام بهجة كلِّ شيء. لذلك فالحسّ المشترك هو الذي يُنبئنا بوجود كائن أسمى. والعفوية الطبيعية هي التي تجعلنا مندهشين امام عظمة الخالق في مخلوقاته.

وباختصار، فان العودة الى النفس البشرية هي عودة الى اكتشاف الله بكلّ بساطة، لأن هذه النفس لا تعرف إلاّ ما تحسّ به طبيعيّاً، وهذا الاحساس نابع من كونها تسكن في الله والله يسكن فيها. ورغم انتقاد البعض لـ "ترتوليانوس" على أن كتابه "شهادة النفس" لم يكن بمستوى مؤلفاته الباقية، فان كثيرين من اللاهوتيين والفلاسفة والمفكرين رأوا في البراهين التي قدّمها حول حقيقة وجود الله تحليلاً رائعاً يقنع حتى القارىء المعاصر نفسه.

د ـ الى سكابولا (Ad Scapulam)

هذا الكتاب هو كتاب مفتوح الى الوالي الروماني لمقاطعة "أفريقيا" من سنة ٢١١ ـ ٢١٣ مسيحية، الذي أمر باضطهاد المسيحيين وبحرقهم على الصلبان وبرميهم الى الوحوش. ولقد استغلّ "ترتوليانوس" المناسبة لكتابته متوجهاً الى الوالي قائلاً: "إنه لحقٌّ للأنسان، وميّزة من ميّزات طبيعته، ان يتمكّن كلّ شخص من ان يعبد إلهه حسب معتقداته وقناعاته. فدين إنسان ما لا يسيء، بالضرورة، الى آخر، ولا هو يخدمه. ولا يجوز، بكلّ تأكيد، لدينٍ ما أن يرغم ديناً آخر، أو أن يضيّق عليه" (الى سكابولا، الفصل الثاني).

يبدو أن "ترتوليانوس" وضع هذا الكتاب حوالي سنة ٢١٢م، وذلك لأنه اعتبر ان كسوف الشمس الكامل في الثاني عشر من شهر آب من السنة نفسها كإشارة من الغضب الإلهي على ما يجري للمسيحيين: ولقد وزعه على خمسة فصول. الفصل الاول، وهو مقدّمة جريئة، هو نداء شجاع يقول فيه: إن الدافع اليه ليس قلق "ترتوليانوس" على نفسه، ولا خوفاً من الأضطهاد، بل محبّة مسيحي لاعدائه أنفسهم، وبرهانٌ على مدى اهتمامه بخلاصهم، ولأنه ضربٌ من الجنون، ومخالفة للحق الاساسي الذي ترتكز عليه حرية المعتقد، ان يُرغم المسيحيون على تقديم الذبائح للأصنام.

فالمسيحيون ليسوا أعداء أحد، وبالتالي فهـــم لا يضمـــرون العداء للامبراطور الروماني لأنهم يعرفون أنه يستمدّ سلطته من إلههم. وهم لذلك لا يستطيعون إلاّ أن يحبّوه ويطيعوه. وعليهم أن يتمنّوا السعادة له وللامبراطورية التي يحكمها الى انتهاء الزمان، لأن روما ستبقى الى يوم ذلك. وبهذا المعنى يقول:"نحن، اذن، نكرّم الامبراطور التكريم المسموح لنا به حياله، لاننا نعتبره أقرب المخلوقات البشرية الى اللّه، ولأنه يستمدّ قدرته من اللّه، ولا يعلو عليه غير اللّه وحده ... ونحن نقدّم الذبائح على نية الامبراطور، إنما لإلهنا الذي هو في الوقت نفسه إلهه هو ايضاً، وبالطريقة التي أمرنا بها إلهنا، اي بالصلاة فقط. فاللّه، خالق الكون، لا يريدنا ان نقدم له العطور والدم، فذلك هو طعام الشياطين " (الى سكابولا، الفصل الثاني).

ومع ذلك، فلقد تألم المسيحيون لأنهم يعرفون أن ما من حكومة إلاّ وستعاقب لكونها سفكت دماء المسيحيين. ولقد كانت الدلائل على غضب الله قد بدأت تظهر بوضوح في تلك الأيام. لذلك يلفت "ترتوليانوس" الى موت بعض حكّام المقاطعات من الذين تمزّقت ضمائرهم في لحظاتهم الأخيرة ندماً على اضطهادهم تلاميذ المسيح (الفصل الثالث من البحث). امّا الفصل الرابع فيبدأ بتحذيرٍ يدعو الى الدهشة اذ يقول:"نحن لا نريد ان ندخل الخوفً الى قلبك،

نحن الذين لا نعرف الخوف، بل نريد ان يخلص جميع البشر، ولذلك نستحلفهم أن لا يعارضوا الـله" (الفصل الرابـع مـن البحث). بامكان الحكام ان يقوموا بواجباتهم دون أن يخالفوا الحقـوق الانسـانية. والحاكـم "سـكابولا" نفسـه سـيناقض تعليماته بنفسه اذا ما انتزع اعلاناً كاذباً مـن الذيـن يقولـون إنهم مسيحيّون. واما في الفصـل الأخـير، فـ "ترتوليـانوس" يستحلف "سكابولا" ليشـفق علـى نفسـه، اذا لـم يـرد أن يشفق على المسيحيين، ويعفو عن مدينـة "قرطاجـة"، اذا لـم يوافق على خلاص نفسه هو بتغيير موقفه. فالظلم لـن يـؤدي الى شيء، بـل سـيزيد عـدد المؤمنـين بالمسـيح. وبهـذا المعنـى يقول:"ليس لنا سـيّدٌ سـوى الـله. إنـه أمـامك ولا يمكـن ان يكـون خفيّـاً، ولا تسـتطيع أنـت أذيتـه. امّـا اولئـك الذيـن تدعوهم اسيادك فسيموتون في يوم من الأيام. ومع ذلك، فان هذه الديانة لن تنقرض، بـل سـتكبر بقـدر مـا تبـدو منهكـة. وسيشعر الجميع، أمام مثابرة من هذا النـوع، بـالقلق، لأنهـم يريدون معرفة السبب، وما أن يعرفوا الحقيقة حتـى يعتنقوهـا للحال" (الى سكابولا، الفصل الخامس).

هذا باختصار فحـــوى الكتـــاب الـــذي وجهـــه "ترتوليـانوس" الى الـوالي الرومـاني "سـكابولا" الـذي اشـعل الأضطهاد في "أفريقيا" التي كانت تحـت أمرتـه، والـذي راح

ضحيته عدد كبير من المسيحيين ما بين سنة ٢١١ و ٢١٣ مسيحية.

هـ ـ ضدّ اليهود (Adversus Judaeos)

إن مناسبة كتابة هذا الكتاب هي مناظرة تمّت بين مسيحي ووثني متهوّد بحضور "ترتوليانوس" نفسه. ونظراً الى ان المناظرة قد اكتنفها جوّ من الغموض، فلقد اراد ان يوضح الحقيقة كما تراها المسيحيّة بعمق. وبهذا المعنى يقول:"لقد راق لنا، بالتالي، ان نتفحّص القضايا التي طرحت في المناظرة، والتي، بسبب غموض الجدل، لم توضح الحقيقة كما هي. لذلك انّي أتقدّم بالحلول الوافية من أجل قراءة صحيحة للاسئلة المطروحة" (ضد اليهود، الفصل الأوّل).

الفصول الثمانية الاولى من هذا الكتاب تثبت ان اسرائيل، بانفصاله عن الرب وبرفضه نعمته، قد أبطل قوة العهد القديم الذي أصبح، بعد ذلك، بحاجة الى تفسير روحاني. والحدث نفسه يفسّر دعوة الأمم الى المشاركة في الخلاص (الفصل الاول). فالشريعة وجدت قبل "موسى"، إذ ان الله أعطاها لجميع الأمم، ولقد أعلنت لآدم وحوّاء في الفردوس. وهي امّ كل المبادىء والتعاليم الالهية الايجابية. امّا شريعة اليهود، المنقوشة على ألواح من حجر، فلقد ظهرت

متأخرة جداً عن الشريعة غير المكتوبـــة، اعـــني الشـــريعة الطبيعيّـة. شـريعة "موسـى" ليسـت اذن ضروريـة مـن أجـل الخلاص. والختـان (الفصـل الثـالث)، والتقيـد بيـوم السـبت (الفصل الرابـع)، والذبـائح القديمـة (الفصـل الخـامس)، قـد ألغيت جميعها. فشريعة المحبّة حلّت مكان شريعة العـين بـالعين والسن بالسن. وواضع هذا العهـد الجديـد، كـاهن الذبيحـة الجديدة، وحارس السبت الابدي قد جاء (الفصل السادس)، وهو المسيح الذي أعلنه الانبياء ملكاً، لـن ينقضـي ملكـه الى الأبد، على مملكةٍ كونية (الفصل السابع). ولقد تنبّأ بها كلّها النبي "دانيال"، خصوصاً عـن ولادتـه وآلامـه وتدمـير مدينـة القدس (الفصل الثامن).

امّا القسم الثاني، وهو من الفصل التاسع الى الفصل الرابع عشر، فيبيّن على أن النبوءات المسيحانية قد تحقّقت في شخص المسيح المخلّص. إنها تحقّقت من خلال كلّ ما صنعـه الرب على هذه الارض، مبرهناً بذلك أنه ابن الآب السماوي وحـامل البشـارة الجديـدة الى العالـم. ولئـن لـم يؤمـن بـه اليهود، فذلك لا يعني أنّه ليس المسيح المنتظر. هو الذي حمل الخلاص الى كلّ انسان في هـذا العالـم. هـو الألـف والياء، البداية والنهاية، وجامع كلّ شيء في شخصه الالهي. وعليـه، فالايمان به هو ضرورة خلاصية، ومن لا يؤمن هو الى الهلاك.

وباختصار، فان كتاب "ضدّ اليهود" هو دعوة واضحة وصريحة لابناء العهد القديم للالـتزام بشـريعة العهـد الجديـد التي حملها المسيح المخلّص.

٢ـ المؤلفات الجدلية

تحوي المؤلفات الجدلية عشرة كتب: الكتاب الأول هو إقصاء الهراطقة، والكتاب الثاني هو ضدّ ماركيون، والكتاب الثالث هـو ضـدّ هرموجـانوس، والكتـاب الرابـع هـو ضـدّ الفالنتينيين، والكتاب الخامس عن العماد، والكتاب السادس هو سكوربيتشي، والكتاب السـابع هـو عـن جسـد المسـيح، والكتاب الثامن هو عن قيامة الجسد، والكتـاب التاسـع هـو ضدّ براكسياس، والكتاب العاشر هو عن النفس. وسـنعرض هنا أهمّ ما جاء في هذه الكتب.

أـ إقصاء الهراطقة (De Praescriptione Haereticorum)

إن هذا الكتاب هو خير دليل علىٍ تعمّق "ترتوليانوس" في القانون الروماني. فيه يحاول وضع حدٍ للجدل القائم بـين الكاثوليك وكافة الهراطقة بادخاله حجة الإقصاء، وهي حجة قانونية تسمح للمدافع بـأن يوقـف مجـرى الدعـوى بالشـكل الذي تقدم بها صاحبها. وهذه الحجة تؤدي، بـالضرورة، الى

رفض الدعوى. أمّا موضوع النزاع بين الكنيسة وخصومها فهو الكتاب المقدس. وفي رأي "ترتوليانوس" إن المناقض لا يستطيع استعمال الكتاب المقدس في الجدل لأن هناك دحض (منع) يستبعد كلّ حجّة من هذا النوع. وهو الى ذلك لا يمكنه الرجوع الى التوراة لأنها ليست ملكه. وبهذا المعنى يقول: "لقد بلغنا، إذن، الى النقطة الجوهرية في موقفنا. وهذا الهدف هو بالتحديد ما أردنا البلوغ إليه، والذي مهّدنا له في مقدمة خطابنا وأنهيناه الآن (من الفصل الأول الى الفصل الرابع عشر)، وذلك لكي نعطي اليوم حلاً للصراع الذي يدعونا إليه أخصامنا. فهم يشهرون الكتاب المقدس ويدخلون، بجرأة وقحة، الاضطراب والقلق الى بعض النفوس. وإبّان المعركة يتعبون الأقوياء، وينتصرون على الضعفاء، ويسرّبون الشكّ الى قلوب الحائرين المتردّدين. لذلك نقف منهم هذا الموقف، قبل القيام بأيّ إجراء آخر، وهو اننا نمنعهم من مناقشة الكتاب المقدس. وبما أنّهم يحصرون كلّ أسلحتهم في هذه النقطة بالذات، ولكي لا يلجأوا إليها، علينا أن نرى، بوضوح، الى من يعود حقّ استعمال الكتاب المقدس، بحيث يمنع كلّ من لا حقّ له فيه من اللجوء إليه في النقاش أو إبّان الصراع (الفصل الخامس عشر). ثمّ يستشهد "ترتوليانوس" برسالة القديس بولس الأولى الى تلميذه "تيموتاوس" (٦، ٣، ٤) وبرسالته الى "طيطوس" (٣، ١٠)، حيث يمنع الرسول الهراطقة من

استعمال الكتاب المقدس (الفصل السادس عشر)، إذ لا يجوز لهم استعماله لأنّ ذلك يكون استغلالاً لما جاء فيه (الفصل السابع عشر). وهذا يعرّض ايمان الضعفاء الى خطر كبير، خصوصاً عندما يوافقون على الجدال في موضوع الكتاب المقدس مع خصومٍ من هذا النوع. وعلى كلّ حال فانها مجادلات لم تحمل يوماً الاقناع الى المنشق (الفصل الثامن عشر). فالتوراة تعود فقط الى الذين يملكون قاعدة الايمان. والسؤال الأساسي هو التالي: "من أين أعطيت العقيدة التي تصنع المسيحيين، ومن أعطاهم اياها، ومتى؟ إنه حيث توجد حقيقة النظام وقاعدة الايمان المسيحيين، يوجد كذلك الكتاب المقدس، ويوجد تفسيره الصحيح، وتوجد جميع التقاليد المسيحية الحقيقية" (الفصل التاسع عشر).

ففي الاقصاء الأول يقول: إن السيد المسيح قد عهد برسالة التبشير بالانجيل الى الرسل، وبالتالي فما عدا اولئك الذين اقامهم المسيح ليس ثمّة من يمكن القبول به كمبشّر بالانجيل. وفي الإقصاء الثاني يقول: لقد أسّس الرسل الكنيسة وأعلنوا لها البشارة الجديدة، وعهدوا إليها بمهمة التبشير بالانجيل للآخرين. وعليه "فان ما علّموه، وما أظهره لهم المسيح، لا يمكن، كما سأبيّنه الآن، إثباته، إلاّ من خلال الكنائس التي أسّسها الرسل أنفسهم. وعلى عكس ذلك، فكل عقيدة هي خاطئة عندما تناقض حقيقة الكنائس والرسل

والمسيح والله" (الفصل الحادي والعشرون). فكيف نثبت كون العقيدة الكاثوليكيّة تستمدّ أصولها من التقليد الرسولي؟ البرهان هو التالي: "نشارك الكنائس الرسولية، وذلك لأن عقيدتنا لا تختلف عن عقيدتها. وهذا هو ضمان الحقيقة التي لدينا" (الفصل الحادي والعشرون). وهذا الواقع يشكل إقصاءً كاملاً لكل الشيع الضّالة، أي لكل الهرطقات، بمعنى أنه لا يعود من ضرورة للتوقّف عند مختلف المجادلات. فنحن نقف حيث المدافع يرفض قول الشاكي بواسطة الإقصاء، ويحذف كل اعتبار يتأتّى من حجج هذا الأخير. ومع ذلك ف "ترتوليانوس" يعلن عن استعداده "لأن يترك الكلمة لخصمه لوقت معيّن" (الفصل الثاني والعشرون). وأوّل اعتراضات الخصم هو زعمه أن الرسل لم ينقلوا الحقيقة لجهلهم بعض الأمور، أو أنهم، على الأقل، لم يبلّغوا الجميع بكل ما اطّلعوا عليه (الفصول من ٢٢ ـ ٢٦). والاعتراض الثاني يدّعي ان الكنائس لم تكن صادقة في ابلاغ وديعة الايمان (الفصل السابع والعشرون). لذلك فانه من الخطأ الافتراض أن البشارة انتظرت أحد الهراطقة كي تستعيد حرّيتها، وان الانجيل، خلال هذه المرحلة، قد أدخل عليه الفساد، فالصحيح دائماً يسبق الخطأ، والوجود المسبق لعقيدة الكنيسة هو علامة نقائها (الفصل التاسع والعشرون). والمثل الذي أعطاه المسيح يثبت أن القمح الجيّد بُذِرَ قبل الزؤان العقيم. ويتبيّن لنا من ذلك كله ان التعليم الذي أعطي في البدء يأتي

من اللـه، وهو حق وصحيح، فيما الآراء التي أُدخلت، بعد ذلـك، غريبـة وخاطئـة. مبـدأ أولويّـة مـا هـو صحيـح (Principalitas Veritatis) ، والتـأخّر النسـبي للخطـأ (Posteritas mendacitatis) يعلو على شتّى الهرطقات (الفصل الحادي والثلاثون). فالكنيسة لم تسمح يوماً بأي مس بالكتاب المقدس، بينما نرى أن أعداءها قد شوّهوه، وهم يدّعون تصحيحه (الفصل الثامن والثلاثون). والهرطقة لا تختلف إلاّ قليلاً عن الوثنية بالنسبة الى الايمان. فالاثنان يرفضان الحقيقة، ويسعيان الى هدمها، والاثنان مولودان من الشيطان (الفصل الأربعون). وسلوك الهراطقة هو معيب لأنهم لا يخافون الله (الفصول من ٤١ ـ ٤٤). وفي الختام (الفصل الرابع والأربعون) يؤكد "ترتوليانوس" على ان كتابه هذا ليس سوى مقدّمة لدراسات لاحقة ستتناول الأخطاء المتعدّدة التي يراها في الهرطقات: "وهنا، وبالفعل، فلقد اتّخذ بحثنا موقفاً عاماً مناهضاً للهرطقات التي يجب إقصاؤها، بضرورة وعدل، دون العودة الى الكتاب المقدس. وإذا ما أذن الله لنا بنعمته، فسنهيّء الأجوبة المتبقّية، التي تُقصي هذه الهرطقات، وذلك من خلال أبحاث منفصلة" (الفصل الرابع والأربعون).

وباختصار، فان كتاب "إقصاء الهراطقة" هو الأكمل والأهمّ، والنموذج الحقيقي لمؤلفات "ترتوليانوس". فالأفكار

الرئيسة التي نجدها فيه منحته تقديراً كبيراً مـــن المؤرخـــين واللاهوتيين، خصوصاً وانه يبقى جديداً في طروحاته العديدة. وبما أنه يستحيل علينا تحديـد تـاريخ كتابتـه، غـير ان منطقـه ولغته وتوجيهاته تبيّن لنا على أنه كتب في المرحلة الـتي كـان فيها كاثوليكياً متشدّداً، أي حوالي سنة ٢٠٠ مسيحيّة. وهو، الى ذلك، يعيدنا الى الأجواء الـتي عاشـتها الكنيسـة في ذلـك العهد من تفكك ومن محاولات عديدة لشقّ الصف المسيحي، انطلاقـاً مـن تحـامل الرافضـين لتوجيهـات العقيـدة الحقيقيـة، وسعياً وراء نظريات لـم يثبتها التاريخ بعدئـذٍ، بـل بقيـت في إطار البدع والهرطقات.

ب ـ ضدّ ماركيون (Adversus Marcionem)

من مؤلفات "ترتوليانوس" أيضاً كتابه "ضدّ ماركيون"، الذي يعتبر مـن أكبرهـا ومـن أوفاهـا دراسـة عـن الهرطقـات الخاصة التي وعد بها في نهاية كتابه "إقصاء الهراطقـة" الـذي اتخذ الطابع العام في الكلام عن هذه الهرطقـات. فهـو يقسـم الى خمسة كتب يفنّـد فيهـا هـذه الهرطقـة. في الكتـاب الأول يدحض الصراع القائم، في نظر "مـاركيون"، بـين إلـه العهـد القديم وإله العهد الجديد. وبهـذا المعنـى يقـول: "إن الحقيقـة المسيحية قد أكّدت بوضوح المبـدأ التـالي: لا وجـود للـه إن لـم يكن إلهاً واحداً. والذي نؤمن بوجوده هو الذي يؤكد لنا

أنه لا يكون إلهاً إن لـم يكن واحداً... فمن الضـــــرروري أن يكون الكائن الذي يمثل العظمة الفائقة واحداً، إذ ليـس مـن صنوٍ له، وإلاّ لما كان فائق العظمة" (ضد مـاركيون، ١، ٣). فخالِق العالـم هو إذن الاله الطيّـب المحـبّ، كمـا يبيّـن ذلـك الكتاب الثاني. أمّا الكتاب الثالث فيعالج نظرة "ماركيون" الى المسيح. فعلى الاعتراض القـائل إن المخلّـص الـذي تنبّـأ عنـه العهد القديم لـم يأتِ بعد، يجيب "ترتوليانوس" بالتدليل على أن المسيح الذي جـاء الى الأرض هـو نفسـه السـيد المخلّـص الذي وعد به الأنبيـاء، وهـو المرسـل مـن قبـل الخـالق. وأمّـا الكتابان الرابع والخامس فيشرحان العهد الجديـد كمـا تبنّـاه "ماركيون" وينتقدان ما جاء على لسان هذا الأخير، مثبتـان عدم وجود أي تناقض بـين العهدين، القديـم والجديـد، وان النصوص الواردة عنده تدحض العقائد المناهضة للايمـان الـتي تبنّاها مـن خـلال هرطقته. وايضاحـاً لتاريخيـة كتابـه، يقـول "ترتوليانوس": "إن كل ما استطعنا تقديمـه ضـد مـاركيون في السابق من الأفضل عدم الأخـذ بـه. وهـا هـو كتـاب جديـد نقدّمه ليحلّ محـلّ العمـل السـابق. وبمـا أنّـني وضعـت كتيّـبي الأوّل على عجلة مـن أمـري، فـانني اسـتبدله ببحـثٍ أوسـع وأوفر شموليّة. غير أنني، لسوء الحظ، أضعته قبل صدوره من جرّاء خدعة ارتكبها بحقّي أحد الاخوان الذي أصبـح، في مـا بعد، زنديقاً وكافراً. فلقد نسخ هذا الأخ قسماً من الكتـاب بطريقة غير أمينة للنص، ووضعه بين أيدي الجمهـور. لذلـك

اضطّررت الى تصحيحه، والفرصة التي أتاحتها لي الطبعة الجديدة دفعتني الى تكملته. فالنص الحالي، الذي هو ثالث نصّ لأنه يحلّ مكان النص الثاني، والذي يجب اعتباره الأول بدل الثالث، كان بحاجة الى مقدّمة من أجل طمأنة القارىء إذا ما وقع صدفة في شرك الطبعات المختلفة التي تمّ نشرها وتوزيعها" (ضد ماركيون، ١، ١).

وباختصار، فان كتاب "ضدّ ماركيون" يبيّن لنا كم كان "ترتوليانوس" متّقد العاطفة، انفعالياً ومتحمساً، دقيقاً في تحاليله ودراسته، ينزل بخصمه جميع التهم والشتائم، حتى أنه يستهزىء به غالب الاحيان. ولكنه، في الوقت نفسه، يبرهن لنا عن شخصيّة واعية، وعن ميزة نقدية لا تماثل، وعن تعمّق بالنصوص يحتذى. إنه مثال المدافع المجادل على المستوى الفكري الذي يعرف الكتاب المقدس بعمق، ويعرف كيف يستدرج خصمه الى معركة لا يخرج منها إلاّ رابحاً.

ج ـ ضدّ هرموجانوس (Adversus Hermogenem)

"هرموجانوس" كان رسّاماً غنوصياً قرطاجياً، علّم ان المادة هي أزليّة ولا فناء لها، وجعلها صنواً لله حتى أنه اعتبرها إلهاً ثانياً مشابهاً للاله الحقيقي. فتصدّى له "ترتوليانوس" في كتابه هذا، مفنّداً جميع تعاليمه، ومؤكداً على

وحدوية اللـه، وعلى تعاليم الكتاب المقدس. وفي وصفه لـــه يقـول: "تاركـاً (هرموجـانيوس) المسـيحيين وملتزمـاً بتعـاليم الفلاسفة... فانه تعلّم عندهم أن المادة هي في نفس المســتوى مع اللـه، وكأنها وُجدت منذ الأزل ولـــم تولـد أو أن هنـاك يداً صنعتها. فلا بداية لها ولا نهاية حسب رأيه. وانطلاقاً منها خلق اللـه كلّ شيءٍ".

نظريات "هرموجانوس" هذه دحضها "ترتوليانوس" في خمسة وأربعين فصلاً، كانت دفاعاً رائعاً عن العقيدة المسيحيّة حـول الخليقـة وعمليّـة الخلـق. ففـي الفصـول مـن الأول الى الثامن عشر يثبت ان الفكرة الصحيحة عن اللـه تنفـي أزليـة المـادة. ثـم ينتقـل الى نقـدٍ تحليلـي للطريقـة التي يفسّـر فيهـا "هرموجـانوس" الكتـاب المقـدّس (الفصـول ١٩ ـ ٣٤). وفي الختام يعرض للتناقضات الموجودة في نظريات "هرموجانوس" حول جوهر المادة الأبديـة وصفاتهـا الالهيـة (الفصـول ٣٥ ـ ٤٥). فالمـادة ابتـدأت في الزمـن، واللـه هـو خالقهـا، وهـي ليست شرّيرة كما يدعي، بل هي من صنـع اللـه، وكـل مـا خلقه اللـه هو صالح.

د ـ ضدّ الفالنتينيين (Adversus Valentinianos)

كتاب "ضدّ الفالنتينيين" لـ "ترتوليانوس" هو تعليـــق انتقادي، موجّه ضدّ العقيـدة الغنوصيـة الفالنتينيـة، ويستند، بنـوع خـاص، وفي الجوهــر، الى كتــاب "ضــدّ الهرطقـات" للقديس "ايريناوس"، أسقف مدينة "ليون" الفرنسية. كذلـك هو اقتباس، نوعاً ما، لمؤلفات القديس "يوستينوس" الروماني الشـــهيد، و"ميلتيـــادوس"، سفســـطائي الكنـــائس، و"بروكولوس"، المثل المسيحي في فصاحته وطهارة شيخوخته. وبهذا المعنى يقول: "لن يدّعي أحد أننا ابتكرنـا الوثـائق الـتي استندنا إليها. فهذه الوثائق سبق لها أن نُشرت، سواءٌ في مجال تأكيد الآراء أو دحضها، أو في مؤلفات وضعت بتأنٍّ من قبل عددٍ كبيرٍ من القديسين المرموقين، ومــن أنـاس صـالحين. ولا أعني هنا من عاشوا في المرحلة السابقة فقط، بلً أقصد أيضـاً أولئك الذين عاصروا الهراطقة أنفســهم. وعلـى سـبيل المثـل أذكــر يوســتينوس، الفيلســوف والشــهيد، وميلتيــادوس، سفســطائي الكنـائس، وايريـناوس المسـتقصي الدقيــق لكــلّ العقـائد، وبروكولـوس، مثـال الشـيخوخة المتعفّفـة والبلاغــة المسيحيّة. كلّ هؤلاء أريد أن أسير على خطاهم في كلّ عملٍ أضعـه حـول الايمـان، وبصـورة خاصّـة في العمـل الـذي أنـاً بصدده الآن" (ضدّ الفالنتينيين، ٥).

يتألف هذا الكتاب، في مجمله، من تسعة وثلاثين فصلاً. فالمقدمة توحي باستقلالية واضحة (الفصول ١ ــ ٦)، إذ يعرض فيها "ترتوليانوس" الطابع السريّ للفالنتينيين، ويقارن بينها وبين الأسرار القديمة، ويجد في الجهتين نية خلق اناس مدرّبين، كما يجد تعدّداً في الشيع. ثمّ يعود، في الفصل السادس عشر، الى كتابه "ضدّ هرموجانوس"، ويعلن عن نيّته في وضع دراسة أوسع يتناول فيها الموضوع نفسه. وهذا العمل، الذي يقوم به، يقول عنه: "إنّه السلاح الأوّل الذي نمتلكه من أجل دفاعنا عن عقيدتنا" (الفصل الثالث). كما يدعوه أيضاً "العمل الصغير حيث أخذنا على عاتقنا ان نعرض لهذا السرّ فقط" (الفصل السادس). ويزيد: "عليّ أن أؤجل أيّة مجادلة وأكتفي بالعرض دون أي شيء آخر... وعلى القارىء اعتباره بمثابة المناوشة التي تسبق الحرب" (الفصل السادس).

وباختصار، إنه كتاب جدلي يرفض فيه تعاليم بدعة الفالنتينيين، ويدعو الى اتّباع ايمان الكنيسة الحقيقية، ملتزماً بما جاء قبله عند الذين سبقوه في هذا المجال.

هـ ـ العماد (De Baptismo)

هذا الكتاب له أهميّة خاصّة بالنسبة الى ليتورجية التهيّئة وسرّي العماد والتثبيت، لا سيّما وإنّه أول كتاب كتب في هذا الموضوع، لا بل الدراسة الوحيدة التي قام بها كاتب مسيحي عن أحد أسرار الكنيسة قبل المجمع النيقاوي. ويمكن وصفه بانه من الأدب المناهض للهرطقة إذ يدين بانطلاقته الى الهجمات التي وجّهت، في "قرطاجة"، ضدّ الكنيسة، من قبل احدى اعضاء جماعة الـ "قاينيّين" (Caïnites) التي تدعى "كنتيلاّ" (Quintilla). هذه المرأة طلعت بحجج عقلانية "فحوّلت عدداً كبيراً من المؤمنين بسبب عقيدتها السامّة، إذ وضعت بين أهمّ أهدافها القضاء على سرّ العماد" (العماد، الفصل الأوّل). ولقد ردّ عليها "ترتوليانوس" بهذا البحث الوجيز، المؤلف من عشرين فصلاً، حيث يتكلّم كأستاذٍ يتوجّه الى تلاميذه الموعوظين، فيقول: "إن بحثاً حول هذا الموضوع لن يكون عديم الفائدة من أجل تعليم من لا يزالون في طور التنشئة، وكذلك الذين اكتفوا بالايمان دون التعمّق في جذور التقاليد، وهم، بسبب جهلهم، لا يمتلكون سوى ايمان معرّض للتجارب" (العماد، الفصل الأوّل).

أمّا سبب اعتراض "كنتيلاّ" على سرّ العماد فهو السؤال التالي: كيف بامكان الاستحمام الجسدي بالماء أن

يطهّر النفس، ويحميها من الموت الأبدي؟ وقبـــل أن يـــردّ "ترتوليانوس" عليها، يبدأ كتابه بابتهاج فـرح قـائلاً: "طوبى لك يا سرّ العماد المسيحي الذي يغسل خطايا ضلالنا الأصلي ويجعلنـا أحـراراً مـن أجـل الحيـاة الأبديـة" (العمـاد، الفصـل الأوّل). وينهي كلامه بهذه المقارنة: "لكننا نحـن، السـمكات الصغيرة، الذين أخذنا اسمنا من يسوع المسيح، نولد في المـاء، ولا نخلص إلاّ إذا بقينا فيها" (الفصل الأول).

إن اللـه، في نظر "ترتوليانوس"، استعمل وسيلة عادية كهذه، ويجب ان لا يتشكك الروح المادي من ذلك. وله أن يختار العناصر البسيطة من أجل إتمـام تدابـير عنايتـه (الفصـل الثاني). ولقد كان للماء، منذ بدايـة الكـون، الأفضليـة عنـد اللـه (الفصل الثالث)، ولقد قدّسها وأرادها أن تكون حاملـة قدرته (الفصل الرابـع). وهـذا تقليـد اعتـادت عليـه كنيسـة "أفريقيا"، وهو تكريس الماء العمـادي. وبهـذا المعنـى يقـول: "كلّ أنواع المـاء، بفضـل الامتيـاز القديـم الـذي ميّزهـا منـذ البدء، تسهم اذن في سرّ تقديســنا، عندمـا نتضـرّع الى اللــه ونبتهل إليه أن يباركها. وما أن نرفع ابتهالنا حتى يأتي الروح مـن السـماء، ويرفـرف فـوق الميـاه الـتي يقدسـها بروحـه، فتكتسب القدرة على التقديس بدورها" (الفصل الرابع).

فمنذ أقدم الأزمنة، اعتبرت المياه رمزاً للتطهير ومركز نشاط روحاني، خصوصاً لأن روح الله رفرف فوق الهوّة السحيقة. والطقوس الوثنية، التي ليست سوى تقاليد شيطانية مزيّفة للأسرار، وكذلك المعتقدات الشعبية ذاتها، تعطي البرهان على هذا الأمر (الفصل الخامس). فالتطهير الجسدي لا يمنح النعمة وحده، بل الحركات المقدسة التي تضاف إليها البسملة، أعني باسم الآب والابن والروح القدس (الفصل السادس). والمعمودية يتبعها للحال المسح بالزيت المقدس (الفصل السابع)، ومن ثم التثبيت الذي يمنح الروح القدس بوضع اليدين (الفصل الثامن). وما عبور البحرِ الأحمر، والمياه المتفجّرة من الصخرة (الفصل التاسع)، فضلاً عن معمودية يوحنا (الفصل العاشر)، سوى رمزٍ لهذا السرّ العظيم. واذا قال أحد إن المعمودية غير ضروريةٍ للخلاص، لأن المسيح نفسه لم يعمّد (الفصل الحادي عشر)، فكيف نفسّر خلاص الرسل الذين لم يتعمدوا، سوى "بولس"؟ ويجيب "ترتوليانوس"قائلاً: إن المعمودية لم تكن مفروضة قبل قيامة المسيح (الفصل الثالث عشر). صحيح أن القديس "بولس" أعلن في رسالته الأولى الى القرنثيين، الفصل الأول، العدد السابع عشر، أنه لم يرسل كي يعمّد، ولكن علينا ان نعطي كلامه هذا المعنى الحقيقي، إذ لا يوجد سوى تجدّد واحد وهو الذي تمتلكه الكنيسة (الفصل الخامس عشر). لذلك ان طقوس الهراطقة ليست صحيحة (الفصل الخامس عشر).

وضرورة الاعتماد لا تحتمل سوى استثناء واحد، وهو حالة الاستشهاد، التي يدعوها "ترتوليانوس" بـ "المعمودية الثانية" أو "معمودية الدم" (الفصل السادس عشر). وبهذا المعنى يقول: "هناك معموديتان تتدفقان من جرح الخاصرة المثقوبة (خاصرة المسيح)، فالذين يؤمنون بدمه عليهم أن يغتسلوا بالماء، والذين اغتسلوا بالماء عليهم أيضاً أن يحملوا دمه" (الفصل السادس عشر).

وأما خادم هذا السرّ الحقيقي فهو الأسقف نفسه. والكهنة والشماسة بامكانهم إعطاء هذا السرّ، لكن باذن خاص من الأسقف (الفصل السابع عشر). كذلك العلمانيونً بامكانهم إعطاءه لأن: "كل ما يناله الانسان بالدرجة نفسها، بامكانه ان يعطيه بالدرجة نفسها... العماد هو من الله، وباستطاعة الجميع أن يمنحوه... ويكفي ان نلجأ الى هذه الامكانية عند الضرورة، إذا كانت ظروف المكان والزمان والانسان تتطلب ذلك. وفي هذه الحال فان الظرف الطارىء او المستعجل يبرّر ذلك. ومن رفض المساعدة في ظرف كهذا يتحمّل مسؤولية هلاك انسان" (الفصل السابع عشر). ولكن لا يجوز منح هذا السرّ بخفيّة ودون تعقّل، فايمان طالب المعمودية يجب أن يُمتَحَن بانتباه وعناية فائقين. ولذلك لا يحبّذ "ترتوليانوس" عماد الأطفال. وبهذا المعنى يقول: "يستحسن منح سرّ العماد حسب الظرف واستعداد كلّ

شخص، وحتى سنّه، وعلى الأخص عندما يتعلّق الأمر بالأطفال الصغار. وهل من الضروري، عندما لا يكون الوضع ملحّاً جدًّا، أن نعرّض العرّابين لخطر الاخلال بوعودهم في حال الموت، أو أن ينخدعوا بطبيعة سيّئة لا بُدَّ أن تزداد سوءاً مع الأيام؟ صحيح أن السيّد قال: دعوا الأطفال يأتون إليّ. نعم، فليأتوا، ولكن عندما يكبرون أكثر، في عمرٍ يمكّنهم من تلقّي التعليم، فيدركون حقيقة الذي يذهبونَ إليه. وليصبحوا مسيحيّين عندما يستطيعون معرفة المسيح. فلماذا تكون هذه السنّ البريئة مستعجلة لتقبّل غفران الخطايا؟" (الفصل الثامن عشر).

أمّا أفضليّة زمن إعطاء سرّ العماد، فـ "ترتوليانوس" يعطيها لعيدي الفصح والعنصرة. ولكن يمكن إعطاء المعمودية في وقت آخر إذا كان هناك من ضرورة (الفصل التاسع عشر). وقد نجد بعض التمايز في الاحتفالات أو المظاهر الاحتفالية، ولكن النعمة التي يتقبّلها طالب المعمودية هي ذاتها في الحالتين (الفصل التاسع عشر). وينهي كتابه باعطاء بعض النصائح استعداداً لتقبّل هذا السرّ العظيم (الفصل العشرون).

والملحوظ أخيراً أن كتاب "ترتوليانوس" عن سرّ العماد قد كتب ما بين سنة ١٩٨ و ٢٠٠ مسيحيّة، أعني قبل أن

يصبح "مونتانيًّا"، وذلك لأنه يشدّد فيه على احترام الأسقف رغم هذه الكلمة التي نقرأها في الفصل السابع عشر: "الحسد من الاسقفية هو أمّ جميع الانقسامات". وهو في ذلك خلاصة واضحة عن الذي كان يجري في كنيسة "أفريقيا" حول مفهوم هذا السرّ، وحول مادة العماد وطقوسه، وحول المسحة ووضع اليدين، وحول خادم السرّ، وحول الزمان والمكان الذي يجب أن يُعطى فيهما. ولا بُدَّ من التذكير بأن هذا الكتاب قد كتب باللغة اليونانية قبل أن يكتب باللغة اللاتينية. ولقد ذكرنا سابقاً ان "ترتوليانوس" كان يتقن اليونانية الى حدّ أنه كان بامكانه أن يكتب فيها. وفي ما بعد قد وجد باللغتين في طبعة واحدة.

و- سكوربيتشي (Scorpiace)

كلمة Scorpiace، في اللغة اللاتينيّة، تعني العلاج ضدّ لدغة العقرب. ولقد أخذها "ترتوليانوس" عنواناً لكتاب صغير مؤلف من خمسة عشر فصلاً ليدافع فيه عن الشهادة ضدّ ادعاءات الغنوصيين الذين يسميهم العقارب. فهؤلاء يدّعون ان التضحية بالحياة ليست ضرورية، وان الله لا يفرضها علينا. بينما "ترتوليانوس" يؤكّد، عكس ما يزعمه الغنوصيون، على ان الشهادة تصبح واجباً مسيحياً عندما تتعذّر على المسيحي السبل الأخرى لتحاشي المشاركة في

عبادة الأصنام. ويستشهد بالعهد القديم نفسه إذ إن الموت كان يفضّل على الكفر (الفصول ٢ ـ ٤). وقـول الغنوصيين إن وجهة النظر هذه تجعل من الـله قاتلاً هو قول مرفوض، لا بـل بـالاحرى هـو تجديف علـى الـله. فالشـهادة، في نظـر "ترتوليانوس"، هي ولادة جديدة تمنح النفس وجوداً لا نهاية له.

امّا الدافع لكتابة هذا الكتاب فهو زمن الاضطهادات التي أمر بها الـوالي "سـكابولا" حـوالي سـنة ٢١٣ مسـيحيّة، والتي كان الغنوصيون فيها يشجّعون المسـيحيين علـى الكفـر بايمانهم للتخلّص مـن المـوت لأن الـله، في نظرهـم، لا يـأمر بالشـهادة، واذا أمـر بهـا يصبـح قـاتلاً. ولقـد اسـتفاض "ترتوليانوس" في شرح قيمة الشهادة المسـيحيّة لأنّ الحقيقـة، التي هي الـله بالذات، تستحق أن يموت الانسان في سـبيلها. فالالتزام المسيحي هو التزام حتى الموت، وإلا فايماننا يبطل اذا لـم نجاهر به حتى الرمق الأخير.

ز ـ جسد المسيح (De Carne Christi)

إن كتاب "ترتوليانوس" هذا عن "جسـد المسـيح"، والكتاب الثاني الذي سنتحدّث عنـه بعـد ذلـك عـن "قيامـة جسد المسيح"، هما مرتبطـان ارتباطـاً وثيقـاً لأنهمـا يقدّمـان

برهاناً لا يرقى الى صحّته شـــك حـــول حقيقـــة قيامـــة الجسد. فالهراطقة، بدلاً من أن يعترفوا بهذه العقيـدة ويؤمنـوا بها، كانوا ينكرون حقيقة جسد المسيح ويحيون بذلك أخطاء الهرطقة "الدوسيتيّة" التي كانت تدّعي ان يسوع لـم يكن لـه إلا مظهر الجسد. لذلك نراه يحـدّد هدفـه في مطلـع الكتـاب قائلاً:"لنرى ما هو جوهر جسـد سـيدنا يسـوع المسـيح، لأن الجميع يعترفون بطبيعته الروحية. فالجدل يدور حول جسده، وحقيقته، ونوعيّته. ويتساءلون اذا كان هذا الجسد قد وُجـد حقاً، ومن أين أتى، وما كانت طبيعته سابقاً. فاذا ما توصّلنـا الى اثبات هذه النقاط، نكون، في الوقت عينه، استطعنا تحديد حقيقة قيامتنا نحن".

الكتاب كتـــب لحـــلّ هـــذه المســـائل الثـــلاث. و"ترتوليانوس" حاول، قبل كـلّ شـيء، اثبـات حقيقـة ولادة المسيح. ولقد برهن على أنهـا ممكنـة، وانهـا جـرت حقـاً، لا وهماً. فيسوع عاش ومات في جسـدٍ بشـري حقيقـي، ولـم يأخذ طبيعته من الملائكة، ولو أنه دعي مـلاك اللـه، ولا مـن النجوم، كما يدّعـي "أبيلّـوس" (Apellus)، ولا مـن أيّـة مـادة روحية أخـرى، كمـا يدّعـي "فـالنتينوس" (Valentinus)، لأنـه جعل نفسه شبيها لنا في كلّ شيء ما عدا الخطيئـة. وهـو، في المقـابل، لـم يولـد مـن زرع بشـري، لأن جسـد آدم الأوّل وجسد آدم الثاني لـم يعرفا أباً أرضياً. وبهـذا المعنـى يقـول:

"بما أن آدم الأول أخذ من الأرض، فمن الحق ان نخلص الى ان آدم الثاني بدوره صنعه الله، حسب قول الرسول، روحاً محيياً، انطلاقاً من الأرض، - وبمعنى آخر انطلاقاً من جسد لم يكن يحمل، مثلنا، دنس الولادة البشرية" (الفصل السابع عشر).

نرى هنا أن "ترتوليانوس" يحاول فضح غشّ الغنوصيين وخداعهم. فهؤلاء يدّعون ان المسيح لم يأخذ شيئاً من العذراء، ويزعمون أنه ولد "بالعذراء"، أو "في العذراء"، وليس "من العذراء". ولكي يدافع عن حقيقة هذه الأمومة، تطرّف "ترتوليانوس" الى حدّ التنكّر لطهارة العذراء (الفصل الثالث والعشرون)، ملحًّا على طبيعة المسيح البشرية الى حدّ اعتقاده أيضاً أنه من المستحسن نعته بالبشاعة. وبهذا المعنى يقول: "إن جسده لم يكن يمتلك الجمال البشري، كي لا نتحدّث عن المجد السماوي. الأنبياء لم يعطونا عنه أيّة تفاصيل، والآلام والاهانات التي تعرّض لها كفيلة بان تعرّفنا إليه" (الفصل التاسع).

وفي النهاية يؤكد "ترتوليانوس" على أن كتابه هذا ليس سوى مقدّمة لكتابه عن "قيامة جسدنا"، فيقول: "يبقى علي ان أؤكدّ حقيقة قيامة اجسادنا في بحث قصير آخر. وانني أنهي بحثي هذا الذي يمثل مقدّمة عامة ويمهّد السبيل لأظهر

بوضوح كيف كان الجسد الذي قام فيه المسيح" (الفصـــل الخامس والعشرون).

ح ـ قيامة الجسد (De Resurrectione Carnis)

هذا الكتاب هو تكملةٌ للكتاب الذي سبق، وهو تأكيد على "قيامة الجسد" ضدّ الذيـن ينكـرون ذلـك مـن الوثنيـين والصادوقيين والهراطقة. ففي الفصـل الأوّل والفصـل الثـاني يعرض لمبادئهم ويبيّن وهن تعليمهم، ويؤكد علـى أن المنطـق السليم يقرّ هذه العقيدة لأن الجسد مخلوق مـن اللـه، ولقـد افتداه المسيح، ويجب ان يـدان في الوقـت نفسـه مـع النفـس البشرية في نهاية العالـم (الفصول من ٣ ـ ١٥). وبعـد تفنيـد الاعتراضات في الفصلين السادس عشر والسابع عشر، يقول "ترتوليانوس": "كنت لغاية الآن أسعى، من خلال ملاحظات تمهيديّة، لأن أضع قواعد الدفاع عن الكتاب المقـدس، وكـل ما جاء فيه حول قيامة الجسد" (الفصل الثامن عشـر). لكـن الموضـوع الأساسـي، الموضـوع الحقيقـي، هـو قيامـة الجسـد حسب العهدين، القديم والجديد (الفصـول مـن ١٨ ـ ٥٥)، ودرس المقاطع التوراتية يجب أن تسبقه دراسة حول الطريقـة الموافقـة لتفسـير الاسـلوب الرمـزي لكـل مـا جـاء في هذيـن الكتابين. امّا القسم الأخير (الفصول مـن ٥٦ ـ ٦٣) فيعـالج حالة الجسد بعد القيامة ووضعه، بالاضافة الى طهارته وكماله

وهويّته بالنسبة الى حالته القديمة. ويختم قائلاً: "وهكذا، من خلال التفسير الواضح والظاهر للسرّ بكامله، فلقد تبدّد كل ريب، وخصوصاً الشكوك الماضية، وحتى الأمثلة التي تعطى من خلال النبوءة الجديدة، التي تنزل غزيرة من فيض البارقليط" (الفصل الثالث والستون). وهنا لا بُدَّ من ان نلحظ ان التأثير الـ "مونتاني" هو واضح في فكر "ترتوليانوس" إذ إن الكتاب قد كتب في المرحلة الثانية من حياته الفكرية، أعني مرحلة اعتناقه التعاليم الـ "مونتانيّة".

وباختصار، فان كتاب "قيامة الجسد" هو تأكيد لما جاء في الكتاب المقدس حول هذا الموضوع، ردًا على من رفض الاعتراف بذلك، ولا سيّما الوثنيين، والصدوقيين اليهود، والهراطقة المعترضين على فكرة وجود قيامة بعد الموت.

ط ـ ضدّ براكسياس (Adversus Praxean)

في سلسلة الكتب الجدلية (المناقشة) كتاب "ضدّ براكسياس" الذي وضعه "ترتوليانوس" حوالي سنة ٢١٣ مسيحيّة، وفيه يتّهم "براكسياس" بالهرطقة ضدّ الثالوث الأقدس، وبالوقوف في وجه النبوّة الجديدة ومعارضتها، أعني بوجه الـ "مونتانية" التي كان قد اعتنقها (ترتوليانوس). ويلقي عليه المسؤولية في حرم "مونتانوس" واتباعه من قبل اسقف

"روما"، رغم الموافقة السابقة التي حصل عليهـــا. وبذلـــك يقول: "ان براكسياس هو اول من استورد من آسيا الى روما ذلك النوع من الفسـاد والهرطقـة. ولقـد كـان، في الحقيقـة، انساناً تنتابه الهواجس والظنون، وقد نفخته الكبريـاء وأعمـاه الغرور إذ سبق له أن كان مرشداً ومعرّفاً. وكـان قـد أمضـى وقتاً قصيراً في السجن. ولو أنه سلّم جسده للحرق لما أفـاده ذلك بشيء، لأنه لـم يكـن يمتلـك محبّـة اللـه. لقـد حـارب مواهب اللـه وقضى عليها. واسقف رومـا كـان قـد اعـترف بمواهب مونتانوس وبريسكا وماكسيميليا النبوّية، ومن جـراء هذا الاعتراف منح سلامه لكنائس آسـيا وفريجيـا. وفي ذلـك الوقت بالذات وجه براكسياس اتهامات كاذبة ضـدّ الانبيـاء أنفسـهم وهـاجم كنائسـهم، مشـدّداً علـى سـلطة أسـلاف الاسقف على كرسي روما. وبهذه الطريقة أرغم اسقف روما على استرجاع رسائل السلام التي سبق له أن وجّهها، وعلـى عدم الاعتراف بالمواهب الالهية التي هم عليها. وبهذه الطريقة أيضاً أدّى براكسياس خدمة مزدوجة لشيطان روما، إذ طـرد النبوءة وأدخل الهرطقة، مرغماً البارقليط على الهرب وصالباً الآب" (الفصل الأول).

"براكسياس" كان يعتقد ان الآب والابن هما واحد. وبرأيه: "إن الآب هـو الـذي تجسّـد في العـذراء مريـم، وهـو الذي ولد منها، وهو الذي تألـم، وهـو الـذي كـان يسـوع

المسيح"(الفصل الأول). وعندما انتشر تعليمـــه في مدينـــة "قرطاجة"، أسرع "ترتوليانوس" لدحضه في هذا الكتاب. فـ "ضدّ براكسياس" يعتـبر عـن حـق الاسـهام الأهـم في تثبيـت عقيدة الثالوث الأقـدس، والكتـاب الوحيـد الـذي نعرفـه في مرحلة ما قبل المجمع النيقاوي. فالمصطلحات التي يلجـأ إليهـا واضحة، دقيقة، وصائبة، وأسلوبه قوي، مشرق، ومصقـول. ولقد استعمل آباء المجمع النيقاوي قسماً كبـيراً مـن تعابـيره، ولا يحقّ لنا ان نقلّل من قيمة تأثيره على اللاهوتيين اللاحقين. كذلك نرى ان "هيبّوليتوس"، و"دنيسيوس الاسكندري"، قد أخذوا عنه الكثير الكثير. والقديس "أغوسطينوس" في كتابـه عن الثالوث الأقدس (De Trinitate) اعتمد المماثلة التي أوردها "ترتوليانوس" بين الثالوث الأقدس وعمليات النفس البشرية، الموجـودة في الفصـل الخـامس مـن الكتـاب، مكرّسـاً القسـم الأوفر من الفصل الثامن الى الفصل الخامس عشر، من كتابه، من أجل تطوير فكرة "ترتوليانوس".

بعد الفصل التمهيدي حول "براكسياس" وتعليمـــه، يعالج "ترتوليانوس" العقيدة الكاثوليكيّة المتعلّقة بالثالوث. فهو يدعوها احياناً التدبير الالهي. ومن أجل ان يهدّيء المخـاوف والافكار المسـبقة، يرسـم مقارنـة بـين هـذه العقيـدة ونظريـة القانون الروماني الذي يعترف، بالفعل، بعدّة أبـاطرة، ولكـن بامبراطورية واحدة. فالدولة محكومة من قبل سـلطة واحـدة،

غير مجزّأة. ومع ذلك فان السلطة الواحدة، بعجزها عن ممارسة نشاطٍ فعّال ومؤثّر بواسطة شخص فرد على اتّساع مساحة من الارض شاسعة، فقد تقسّمت السلطة، لا السلطان نفسه. وهكذا، فكل امبراطور يمارس وحده السلطة ضمن المجال العائد له. وهذا ما ينطبق على السلطة التسلسلية الالهية، التي لا تتجزّأ في العقيدة المسيحية. ثم يشرح "ترتوليانوس" ميلاد الأبن الذي اعطي اسم "الكلمة"، واسم "حكمة الله". واذ يورد الاستشهادات التوراتية ليبرهن عن تعدّدية الأقانيم الالهية، يدحض التفسير الخاطىء، بل الهرطقة التي يعلنها "براكسياس"، استناداً الى الكتاب المقدس، وذلك باستشهاده (باستشهاد ترتوليانوس) بانجيل القديس "يوحنا". ثم يبرهن أيضاً على أن الروح القدس، البارقليط، هو غير الآب والأبن. وهكذا يطوّر "ترتوليانوس"، بشكل كامل، عقيدة الثالوث الأقدس، حيث نجد مقاطع ملفتة للنظر كهذا المقطع، حيث يقول:" ومع ذلك فهم ثلاثة، لا من حيث النوعية، بل من حيث الترتيب، ولا من حيث الجوهر، بل من حيث الشكل، ولا من حيث القدرة، بل من حيث المظهر. إنهم من جوهر واحد، ونوعيةواحدة، وقدرة واحدة، لأنه ليس هناك سوى إلهٍ واحدٍ. وبالنظر الى مكانتهم، والى شكلهم، والى مظهرهم، فاننا نشير اليهم تحت أسماء الآب والابن والروح القدس" (الفصل الثاني).

وباختصار، فان كتاب "ترتوليانوس" يبيّن العلاقة القائمة بين الآب والابن والتي لا تسيء الى التدبير الالهي نفسه، لأنها مبنيّة على التميز، لا على التقسيم (الفصل التاسع). وهو اوّل كاتب لاتيني يستعمل كلمة ثالوث (Trinitas) كتعبير تقني لاهوتي، وعنه أخذ الكثيرون من بعده كما ذكرنا.

ي - النفس (De Anima)

هذا الكتاب عن "النفس" يعتبر أوسع أبحاث "ترتوليانوس" بعد كتابه "ضدّ ماركيون". فهو موجّه ضدّ المغالطات العصرية التي كانت قائمة في زمانه ولقد اعتبره، هو نفسه، تكملة لكتابه "معنى النفس" (De censu animae)، حيث دافع فيه، ضد "هرموجانوس"، عن أصل النفس الالهي. ويؤكد فيه نيّته، بعد مناقشته "هرموجانوس" حول أصل النفس، ان ينتقل، بعدئذٍ، الى المسائل اللاحقة التي ستدفعه حلولها الى امتشاق اسلحته في وجه الفلسفة. وهكذا، فهو يرفض، في المقدمة (الفصول من ١-٣)، أية قيمة لاعلان "سقراط" الذي اعترف بالخلود الشخصي في كتاب "فيدون" لـ "أفلاطون". فالكلام على النفس هو من شأن الوحي الالهي، وليس شأن المفكرين الوثنيين الذين أصبحت أساليبهم

معروفة. فهم يخلطون الاقتراحات الصحيحة بـــالتحليلات الكاذبة، ويستحقون على ذلك لقب "بطاركة الهراطقة".

امّا القسم الاوّل (الفصول من ٤ ـ ٢٢) فيبحـــث في الصفات الاساسية العائدة للمبدأ الروحاني للنفس. ورغم ان النفس هي من نفث الـله، فان لها بداية في الزمن. لذلك فـان عقيدة "أفلاطون" هي خالية من اي مضمون، ولا اســاس لها على الاطلاق (الفصل الرابع). بينما تعليم الرواقيـين، الـذي يعطي النفس طبيعة مادية، يلقــى قبـولاً عنـده، فيقـول:"إنـني استوحي ايضاً تأثير الرواقيين، الذين يؤكدون، بتعابير شــبيهة بتعابيرنـا، جوهـر النفـس الروحــاني، لا سـيّما وان النفــث والروح متقاربان بطبيعتهما، وبامكانهم اقناعنا بان النفس هي جوهر مادي" (الفصل الخامس). وبالاســتناد الى الانجيـل، فـ "ترتوليانوس" يدحض الفرضية الافلاطونية المعارضة، ويبرهن عن ماديــة النفـس. وفي فصـول خاصـة يبحـث في احتجابهـا وشكلها ولونها، ويدافع عن وحدتها. كما يعالج التشابه بـين النفس والـروح، بالاضافـة الى الذكـاء، محـوّلاً إيّـاه الى مجـرّد وظيفة من وظائف النفس، والى أجزاء أو اقسام، أو قـدرات وطاقات، والى عددٍ كبير من المسائل المتعلّقة بوحدتهـا. وهنـا يشير الى الارادة الحـرّة ضـد معتقـد الفـالنتينيين حـول ثبـات الطبيعة البشرية.

وامّا القسم الثاني (الفصول مـــن ٢٣ ـــ ٣٧، ٤)، فيدرس فيه أصل النفس ومصدرها، داحضاً، بادىء ذي بدء، التعاليم التي يعلنها الهراطقة، والمنطلقة من نظرية "أفلاطون"في النسيان، ويثبت وهـن هـذه الفرضيـة الفلسـفية وهشاشـتها. والفصـول الـتي تتبـع هـي الأهـم بالنسـبة الى أنطروبولوجيـة "ترتوليانوس"، حيث يدحض فكرة الوجود السـابق للنفـس، وإدخالها الجسد بعد الولادة، ويبيّن ان الجنين هو كائن حـيّ. فـالنفس والجسـد يصـلان الى الوجـود معـاً، وفي آن واحـد. وبهذا المعنى يقول:"كيـف يحبـل بكـائن حـيّ؟ هـل أن ماهيّـة الجسد والنفس تتكوّن في الوقت نفسه؟ أو إن أحدهما يسبق الآخر في تكوينه الطبيعـي؟ امّـا نحـن فنؤكّـد علـى ان الاثنـين يُحبل بهما معاً، ويتكوّنان ويكتملان معاً، مثلما يولدان معـاً. وفي رأينا ليس هناك ما يفصل بين الحبل بهما، فاصل يمكن إن ينسب أفضليّة لأحدهما على الآخر. فعليكم ان تحكموا على بدايات وجود الانسان مـن خـلال لحظاتـه الأخـيرة. وبما ان الموت ليس سوى انفصال النفس عن الجسـد، فالحيـاة، اذن، التي هي نقيـض المـوت، لا يمكننـا ان نحدّدهـا إلاّ بانهـا اتحـاد الجسـد والنفـس. واذا كـان الانفصـال يطـرأ علـى المـاهيتين بالموت في الوقت عينـه، فشـريعة اتحادهمـا لا بُـدَّ ان تفـرض التزامن بالنسبة الى ماهيّتي الحياة. فنحن نقرّ، اذن، بان الحياة تبدأ مع بداية الحمل، لأننا نؤكد ان النفس توجد منذ الحمل، والحياة تبدأ كالنفس في الوقت عينه والمكـان عينـه "(الفصـل

السابع والعشرون). ولكن "ترتوليانوس" يميّز بين زرع الجسد وزرعٍ النفسٍ. ففعل التناسل عنده ينتج عنه الكائن البشري نفسا وجسدا. وعلى ذلك فهو يتحدّث عن "زرع يعطي النفس، زرع يتدفّق حالاً من النفس ". وهذا ما جعله يُتّهم بالهرطقة التي تقول بان الله يخلق النفس الفردية بصورة مباشرة.

وامّا القسم الثالث من الكتاب (الفصول من ٣٧،٥ ـ ٥٨)، فيجيب على الأسئلة الاخرى المطروحة حول النفس. هذه الاسئلة هي التالية: نموّ النفس، بلوغها، خطيئتها، مصيرها بعد الموت. وفي رأيه إن الارواح تبقى في الينبس (Hadès) الى يوم القيامة، ما عدا نفس الشهداء الذين يدخلون مباشرة بعد موتهم الى السماء:"المفتاح الوحيد الذي يفتح أبواب الفردوس هو دم حياتكم" (الفصل الخامس والخمسون). وهنا يذكر "ترتوليانوس" باستشهاد القديسة "بربيتوا" في السابع من آذار سنة ٢٠٢ مسيحية، فيقول: "ما الذي جعل بربيتوا البطلة لا ترى، في يوم عذابها، إلاّ رفاقها في الشهادة، من خلال الوحي الذي تلّقته من السماء، إلاّ لكون السيف الذي يحرس بابها يمنع الولوج إليها إلاّ للذين ماتوا في المسيح وليس في آدم ؟ غير ان الأنفس الموجودة في الينبس تتعرّض للعقاب، وتتقبّل العذابات، خلال الوقت

الذي يفصل بين الموت والدينونة، متوقّعة حزنـــاً أو مجـــداً مؤكدين.

وباختصار، فان كتاب "ترتوليانوس" عن "النفـــس"، الذي استند فيه الى مؤلفات الطبيب "سورانيوس الافسسي"، والى تعاليم الرواقيين، هو دراسة وافية لطبيعة النفس البشرية، ولأصلها، وللموت، وللنومٍ الذي هو صورة عن هذا الموت. وكما ذكرنا، فانه تأثر أيضاً بـالتعليم "المونتـاني" الـذي دافـع عنه بكلّ وضوح طوال دراسته هذه. ولقد كتبه ما بـين سـنة ٢١٠ و ٢١٣ مسيحية، في مرحلة الصـراع الـذي كـان بينـه وبين الكنيسة الكاثوليكية. ورغم الفارق الواضح بين ما جاء فيه وبين العقيدة الكاثوليكية حـول بعـض النقـاط الجوهريـة، فانه يبقى مرجعاً مهمـاً للمفهـوم المسـيحي للنفـس البشـرية، عكس ما علّم به كثيرون من الذين كـانوا ينكـرون خلودهـا ووجودها. وعليه، فان "ترتوليانوس"بقي المعلم الذي عاد إليه كثيرون من آباء الكنيسة ولاسيّما "أغوســطينوس" اللاهوتـي الكبير، الذي وجد في دراسته نقاطاً جوهريّة، دعماً لمـا كتبـه في هذا الموضوع، كما رجع إليه في ما يختـص بدراسـته عـن الثالوث الأقدس.

٣ـ المؤلفات التوجيهية والأدبيّة والنسكيّة

تحوي المؤلفات التوجيهية والأدبيّة والنسكيّة ستّة عشر كتاباً: الأول كتاب الى الشهداء، والثاني كتاب عن المشاهد، والثالث كتاب عن تبرّج النساء، والرابع كتاب عن الصلاة، والخامس كتاب عن الصبر، والسادس كتاب عن التوبة، والسابع كتاب الى امرأته، والثامن كتاب عن العفّة، والتاسع كتاب عن الزواج الأحادي، والعاشر كتاب عن وشاح العذارى، والحادي عشر كتاب عن الاكليل، والثاني عشر كتاب عن الهرب من الاضطهاد، والثالث عشر كتاب عن عبادة الأوثان، والرابع عشر كتاب عن الصيام، والخامس عشر كتاب عن الاحتشام، والسادس عشر كتاب عن الرداء. وسنعرض هنا أهمّ ما جاء في هذه الكتب.

أـ الى الشهداء (Ad Martyras)

إن كتاب "ترتوليانوس" "الى الشهداء" يعتبر من مؤلفاته الاولى الذي، رغم قصره (ستة فصول فقط) وبساطة أسلوبه، استحوذ على إعجاب الاجيال المتعاقبة. فهو يتضوّع بأريج البطولة المسيحية في أيامها الاولى. ولقد وجّهه الى مجموعة من المعترفين الذين كانوا ينتظرون، في السجن، دنوَّ موتهم في سبيل إيمانهم، وذلك ليشجّعهم وليحثّهم على

الصمود. والكلمات الاولى من الكتاب تصـــــف اولئـــك المعترفين بـ "المبـاركين" (Benedicti)، وبـ "الشـهداء المعنيّـن" (Martyres designati)، لأنهم كانوا من الموعوظين المؤهّلـين الى الدخول في الكنيسـة السـيدة والأم (Domina mater ecclexia) التي قدّمـت لهـم العـون بواسـطة اخوانهـم المسـيحيّين. كمـا يرجوهم بأن يقبلوا منـه هـذه المسـاهمة في دعمهـم الروحـي (هـذه الكلمـات المشـجّعة). ولا يعـرض عليهـم فقـط نـزع الشعور بالخوف أمام الاستشهاد، بل يبثّ فيهم حماسة إجابيّة حيالـه، ويمجّـده (يمجّـد الاستشـــهاد)، داعيـاً إيّـاه بـأعظم الاعمال. فالموت في سبيل المسيح لا يمكن ان يكـون القبـول اللامبـالي بالألـم وحسـب، بـل إنـه الدليـل السـاطع علـى الشجاعة والجرأة. إنه صراع بكل ما في الكلمـة مـن معنـى، يشبه الصراع في الحلبة والمقارعات العسكرية. وبهـذا المعنـى يقول في الفصل الاول: "لا أدّعي أن لي سلطة التحدّث إليكم وحثّكـم. فـلا المدرّبـون، ولا الموجّهـون هـم وحدهـم الذيـن يشجّعون المتصارعين، بل أيضـاً أولئـك الذيـن لا خـبرة لهـم، وحتى الجمهور كلّه، فانّهم يحثّون هؤلاء المتصـارعين، وربّمـا تشجيعهم هذا يفيدهم أكثر من غـيره، ويعـود عليهـم بالخـير الكبير".

أمّا في الفصل الثاني فيحثّ "ترتوليانوس" المعترفين على عدم الخوف من مغادرة هذا العالـم. ويقول: "إذا ما تذكّرنـا

ان العالـم هو سجن كبير، نفهم حينئذٍ أنكم أنتم خرجتم من هذا السجن ولـم تدخلوا إليه. العالـم مغلّف بطبقاتٍ كثيفـة من ظلماتٍ تعمي عقل البشر. العالـم يحمل قيوداً أكـثر ثقـلاً وهي تكبّل نفوس البشـر. العالــم يتنشّـق روائـح، ايـن منهـا روائحِ السجون، لأنها عيوب البشر ومفاسـدهم. وأخيراً لا آخراً فان العالـم يحتوي على عددٍ كبـير مـن المجرمـين، أعـني كلّ الجنس البشري. ثـمّ إن العالــم ينتظـر دينونـة اللــه ولا ينتظـر دينونـة الحـاكم الرومـاني. مــن هنــا، ايهــا الاخــوة المباركون، اعتبروا أنكم انتقلتم من سجن الى ملجأ ومـلاذ. سجنكم مظلم، لكنكم أنتم نور. أنتم مثقلون بالقيود، لكنكم أحرار في اللـه" (الى الشهداء، الفصل الثاني).

وأمّا في الفصل الثالث، فيعود الى صورة الصراع الذي دعـا إليـه اللــه المعـترفين المدعوّيـن الى المـوت، ويدفعهــم الى اعتبار السجن حقـل تدريـب. فيقـول: "ستجابهون صراعـاً رائعاً حيث الحَكَمُ فيه هو اللـه الحـيّ، ومدرّبكـم هـو الـروح القدس، والأجر إكليل أبـدي، جوهـره ملائكـي، ومواطنيّتـه السموات، ومجده لا نهاية له. ولذلك فان مديركـم، يسـوع المسيح، قـد مسـحكم بروحــه وأنزلكــم الى الحلبــة، وقــد استحسن، قبل أن يأتي يوم المعركـة، ان ينـتزعكم مـن حيـاة أكثر ترفاً. ولقد فرض عليكمٍ معاملة أشـدّ قسـاوة لـيزيدكم قوّة، لأنه عادةً يضعون جانبـاً المقـاتلين ويخضعونهـم لتدريـب

شديد كي يهتمّوا بتنمية قوّتهم البدنية. يحمونهم من الفساد، ومن الأطعمة السامّة، ومن المشروبات. ثم يعمدون الى إزعاجهم وإتعابهم، كما يتعمّدون إدخال القلق الى نفوسهم. وبقدر ما تكون تدريباتهم شاقّة، بقدر ذلك يكون الأمل بالنصر راسخاً"(الى الشهداء، الفصل الثالث).

وأمّا الفصول اللاحقة (من ٤ ـ ٦)، فانّها تعدّد تجارب غير عاديّة، مثل التضحية بالحياة، لا لشيء إلاّ لإرضاء الغرور والطمع، أو مثل تلك التي يفرضها القدر أو الصدفة. أمّا الشهداء فيتألّمون من أجل الله. واذا كانت الكلمات الاخيرة من الكتاب تذكر معركة مدينة "ليون" التي وقعت في ١٩ شباط سنة ١٩٧ مسيحيّة حيث هزم فيها "ألبينوس" (Albinus)، فلأن البحث يعود فعلاً الى ذلك التاريخ. من جهة أخرى فان بعض المؤرخين افترض ان الشهيدة "بربيتوا" والشهيدة "فيليسيته" ربّما كانتا من بين جماعة المعترفين الذين ذكرهم الكتاب. فالاثنتان كانتا من الموعظات، ولقد ماتتا في سبيل ايمانهما سنة ٢٠٢ مسيحية. لذلك نعتقد ان الكتاب كتب في هذا التاريخ وليس قبلاً.

وباختصار، فان كتاب "ترتوليانوس" "الى الشهداء" كان حثّاً على الشهادة المسيحيّة التي كانت، في نظره، أعلى درجات القداسة والعطاء في سبيل المسيح والكنيسة.

ب ـ المشاهد (De Spectaculis)

في هذا الكتاب يدين "ترتوليانوس"، بشكل قاطع، كل ألعاب السيرك والمدارج الرومانيّة ومباريات المتصارعين على أنواعها. وهو يقسم الى قسمين، تاريخي (الفصول من ٤ ـ ١٣)، وأدبي (الفصول من ١٤ ـ ٣٠). أمّا في القسم الأول فيبرهن على أن المسيحي لا يمكنه ان يحضر هذه التسليات، لأن مصدرها، وتاريخها، وأسمها، واحتفالاتها، كما المكان الذي تقام فيه، تثبت على أنها نوع من عبادة الأصنام. والمسيحي تخلّى عنها عندما نطق بوعوده لحظة المعمودية. وأمّا في القسم الثاني، فيبيّن "ترتوليانوس" أن هذه الألعاب تهيّج، بعنفٍ، الأهواء، وتقضي على كل خلقيّة، ولا يمكن أن تتفق مع ديانة الفادي. كذلك الفصل الأخير يرسم صورةً مدهشة عن أروع مشهدٍ يمكن للعالم أن يشاهده، وهو: "مجيء المسيح قريباً"، و "اليوم الأخير، أي يوم الدينونة،مع كل تأثيراته الأبدية، اليوم الذي لا تنتظره الأمم، وهو عنوان هزيمتهم، عندما يشيخ العالم بفعل الزمن، مع كلّ ما أنتجه، وسيحرق بنارٍ واحدةٍ" (الفصل الثلاثون). وهذا الكتاب هو موجّه الى الموعوظين كما جاء في الكلمات الأولى: "يا خدّام الله، يا من سيبلغون إليه عمّا قريب، ليكرّسوا له ذواتهم، حاولوا جيداً أن تفهموا إيمانكم، وبواعث الحقيقة، وقوانين النظام المسيحي التي تحرّم المشاهد العامة بين سائر خطايا

العالـم وملاذه". ولقد وضعه "ترتوليانوس" خلال المرحلة التي سبقت اعتناقه "المونتانيّـة"، وبالتـأكيد قبـل البحثين المتعلّقـين بعبادة الأصنام وبتبرّج النساء. وفي ما عدا تلميـح سـريع الى اضطهاد اندلع وهو منكبٌّ على عمله، فـلا يوجـد لدينـا أيّـة معلومات دقيقة عن تاريخ كتابته، سـوى ان سـنة ١٩٧ هـي أرجح من سنة ٢٠٢ مسيحيّة.

ج ـ تبرّج النساء (De Cultu Feminarum)

يقـول "ترتوليـانوس": لا يكفـي أن يتخلّـى المـرء عـن عبادة الأوثان يوم المعمودية، فديانـة المسـيح يجـب أن تدخـل حياتنـا اليوميّـة. لذلـك كتـب هـذا الكتـاب ليحثّ النسـاء المسيحيّات على عدم الانجراف وراء ازياء وثنيّة، وليعتمـدنَ، في لباسهنّ، ثياب الاحتشام والتواضع.

الكتاب يتألف من قسمين. القسم الأول بعنوان "ثياب الأزواج"، والثاني بعنوان "تبرّج النساء". وهذا الأخير ليـس تكملةً للأول، بل يبحث في الموضـوع بطريقـة أشمـل وأعمـق لأن الأوّل لـم يكن "ترتوليـانوس" راضيـاً عـن فحـواه. ففـي الفصل الأول، أو المقدمة، يذكر المسـيحيين بـان الخطيئـة قـد دخلت العالـم بسبب خطيئة المـرأة الأولى. والثـوب الوحيـد المناسب لبنات حوّاء هـو ثـوب التوبـة والتكفـير، أمّـا الزينـة

والتبرّج فهما من أعمال الشيطان كما يثبت ذلك كتـــــاب "أحنوخ" في الفصل الثاني، الذي يكرّس "ترتوليانوس" فصلاً كاملاً في كتابه للدفاع عن مصداقيته (الفصـــل الثـالث). وفي الفصل الرابع يميّز بـين الزينـة (Cultus)، والتـبرّج (Ornatus)، ليجعل من الأولى خطيئة كبرياء، ومن الثانيـة دعـارة وبغـاء. وفي كلامـه علـى الزينـة (مـن الفصـل الخـامس الى الفصـل السابع) يديـن جميـع الحلـى، سـواء أكـانت مـن الذهـب، أو الفضّة، أو اللؤلؤ، أو الاحجار الكريمة. فقيمـة هـذه الأشـياء تعـود فقـط الى نـدرة وجودهـا. وصبـغ الثيـاب، عنـد "ترتوليانوس"، هو إهانـة موجّهـة الى الطبيعـة. وبهـذا المعنـى يقول: "إن اللـه لا يُسرّ بما لـم يصنع، إلاّ إذا اعتقدنا أنه لـم يستطع ان يخلـق الخرفـان بصـوفٍ أزرق أو أحمـر. واذا كـان يستطيع ولـم يفعل، فلأنه لـم يرد ذلك، وما لـم يُرِدْهُ اللـه لا يجوز صنعه. وبالتالي، فالاشياء التي لا تـأتي مـن اللـه، خـالق الطبيعـة، ليسـت جيّـدة بطبيعتهـا، بـل يجـب اعتبارهـا مـن الشيطان، مفسد الطبيعة، إذ لا يمكن أن تـأتي مـن غـيره، إن لـم تكن آتية من اللـه" (الفصل الثامن). فهبات اللـه ونعمـه هي التي تنظّـم رغباتنـا، وإلاّ أصبحنـا فريسـة الكبريـاء، الـتي "تعلّق بعنقٍ رقيقٍ جداً غابات بأسرها وجزراً، وتجعـل شـحمة الأذن تستهلك ثروة كبيرة" (الفصل التاسع).

وأمّا في القسم الثاني من الكتاب فيعالج فيه تبرّج المرأة، ويتطرّق الى المسألة ذاتها، ولكن بترتيبٍ معاكس. فهو يتحدّث أولاً عن المساحيق، ثم عن الحلى والزينة. وفي الفصل الاول يوصي بالاحتشام باعتباره الفضيلة المسيحية الأولى: "بما أننا جميعاً معبد الله، فالاحتشام خادم هذا المعبد وكاهنه. فلا يجوز،اذن، أن يُسمح بادخال أيّ شيء يكون دنيويًّا أو مدنّساً، خوفاً من أن يهان الله الساكن في المعبد، فيتخلّى نهائياً عن المسكن المدنّس". وهذه الفضيلة تحرّم على النساء تغيير عمل الخالق، أي الجسد، باستعمال المساحيق وصبغ الشعر: "يُخطئنَ تجاه الربّ اللواتي يستعملنَ العقاقير لدهن بشرتهنَّ، وتلوين وجناتهنَّ باللون الأحمر، وطلاء عيونهنّ بالأسود. لا ريب في أن عمل الله لا يروقهنَّ، ويجدنَ فيه مادّةً للانتقاد، ويصدرنَ حكماً بالادانة على خالق كل شيء" (الفصل الخامس). كذلك يشرح "ترتوليانوس"، كما في الكتاب الاول، وبالطريقة نفسها، محبّة الحلي والمجوهرات الذهبية والفضيّة. ويحاول أن يقنع المرأة المسيحيّة أن عليها أن تبدو مختلفة عن المرأة الوثنية بمظهرها الخارجي. وفي الفصل الأخير يأتي على ذكر الأحداث ويوصي النساء المسيحيات بان يكنّ دائماً على استعداد لتحمّل أهوال الاضطهاد، فيكتب ما ترجمته: "هذه الرقّة التي تحاول، برخاوتها وتخنّثها، أن تقضي على قوّة الايمان، يجب احتقارها. وإلاّ فانني لست أدري إن كان المعصم المعتاد على حمل

الأساور سيرتضي قساوة القيود. ولا أدري إن كانت الساق التي عرفت لذّة حمل الخاتم ستتحمّل ضغط الحديد! وأخشى أن لا يترك العنق الذي تحيطه اللآليء وعقود الزبرجد مكاناً لحدّ السيف!... ولكن، في كلّ الأزمنة، واليوم أكثر من أي يوم آخر، يمضي المسيحيون حياتهم في الحديد وليس في الذهب. فأثواب الشهداء تتجهّز. ونحن ننتظر الملائكة التي ستأتينا بها" (الفصل الثالث عشر).

وباختصار، فانه من المؤكد أن بعض المبالغات قد وردت في الكتابين، لكن الثاني هو أكثر اعتدالاً من الأول، من حيث اللهجة ورحابة الصدر في الحكم على الأمور. والكتابان (أو القسمان في الكتاب الواحد) هما سابقان لكتابه عن "الصلاة" حيث نلاحظ غياب الأفكار المونتانية. لذلك نجدهما في الخط الكاثوليكي الواضح، رغم التشديد القاسي، ولكن هذه كانت ميزة العصر في ذلك الزمن. والصورة تكفي لتعطينا فكرة عن عيش المسيحيين بين الوثنيين والمثل الصالح الذي كان مفروضاً عليهم. وهكذا يكون "ترتوليانوس" قد صوّر ما رآه وما أراد ان يكون عليه المسيحيون في عصره، لأن المثل الصالح يقود الوثنيين الى المسيحية. هكذا اعتقد، وهذه هي الحقيقة.

د ـ الصلاة (De Oratione)

هذا الكتاب الذي كتبه "ترتوليانوس" ما بين سنة ١٩٨ و ٢٠٠ مسيحية، وجهه الى الموعوظين الذين كانوا يتهيّئون لقبول سرّ العماد المقدس. ولقد بدأه بالتأكيد على ان العهد الجديد قد أدخل شكلاً من الصلاة لم يسبق له مثيل في العهد القديم من حيث مضمون الصلاة وروحها، شكلاً أسمى من حيث الحميميّة مع الله، فضلاً عن ايمانها ورجائها به، وخصوصاً من حيث إيجازها وتأدية المعنى بكل بساطة. وكل هذه الصفات نجدها في الصلاة الربّانيّة (الأبانا)، التي تختصر الانجيل بكامله. ثم يشرح هذه الصلاة الربانية شرحاً لم يسبق له مثيل في لغة من اللغات (من الفصل الثاني الى الفصل التاسع)، مضيفاً اليه عدداً من النصائح العملية. فلا يجوز لأي كان التقرّب من الله قبل أن يصالح أخاه ويطرد من قلبه كلّ غضب، وكل اضطراب روحي (الفصول من ١٠ ـ ١٢)، الأمر الذي يتطلّب، قبل كلّ شيء، طهارة القلب، لا تطهير اليدين وحسب (الفصلان ١٣ و١٤). كما أنه يدين عادة خلع المعطف أثناء الصلاة والجلوس بعد نهايتها (الفصلان ١٥ و١٦)، لأن هذا الوضع هو غير لائق في حضرة الله الحي. كذلك يوصي برفع اليدين وانخفاض الصوت وقت الصلاة (الفصل ١٧)، لأن هذه الطريقة ترمز الى التواضع والاحتشام. ولا يجوز لأحد ان يمتنع عن قبلة

السلام بعد الصلاة لأنها هي بالفعل ختم (Sceau) الصـــلاة. وهـذه العـادة لا تعـرف إلاّ اسـتثناءً واحـداً هـو يـوم الجمعـة العظيمة حيث يمتنع المؤمنـون عـن تنـاول أيّ طعـام، حسـب العادة المتبعة منذ البداية (الفصل ١٨). وأما في أيـام المراحـل (الفصل ١٩)، فان الذين يمتنعون عن الطعام لا يجـوز لهـم أن يمتنعـوا كذلـك عـن تنـاول القربـان المقـدس، بـل فليحملـوه (القربان) الى منازلهم، وليتناولوه في بيوتهم عند نهاية الصيام. وبالاضافة الى ما تقدّم، فـ "ترتوليانوس" يشدّد علـى وجـوب ارتداء العذارى وشاحاً داخل الكنيسـة، ويلـحّ بقـوّة في هـذا المعنى (الفصول من ٢٠ ـ ٢٢). كذلك يشدّد على عـادة أن يجثوا المؤمنون أيام الصيـام والمراحـل، وعنـد صـلاة الصبـح، لكن هذه العادة لا تتّبع في عيدي الفصح والعنصرة (الفصـل ٢٣). ويمكن تسبيح الخالق في كلّ مكان عندما تتوفّر الفرصة وتفرض الضرورة ذلك (الفصل ٢٤). وليس ثـمة وقتاً معيّنـاً يُفْرَضُ للصلاة، ولكن من الضرورة التأمل خلال أهم لحظات النهار مثل الساعة الثالثة والسادسة والتاسـعة. وبهـذا المعنـى يقول: "يجـدر بـالمؤمنين أن لا يتنـاولوا طعامـاً ولا يذهبـوا الى الحمّام قبل تـلاوة الصـلاة، ذلـك ان غـذاء الـروح يجـب أن يسبق غذاء الجسد، وشؤون السماء يجـب أن تسـبق شـؤون الأرض" (الفصل ٢٥). كما أنه لا يجوز لنا أن نستقبل ضيفـاً أو أن نودّعـه دون أن نرفـع معـه أفكارنـا الى اللـه. ومـن المستحسن أيضاً، حسب عادة مشكورة، ان ننهي كلّ صلاة

بهلّلويا أو بمزمور (الفصلان ٢٦ و٢٧). وأمّـــا الفصـــلان الأخيران (٢٨ و٢٩)، فهما تبجيل للصلاة على أنها ذبيحة روحيّة، ويمدحان قدرتها وفعاليتها.

وباختصار، فإن كتاب "ترتوليانوس" عن الصلاة هـــو توجيه عملـي، يشـدّد فيـه علـى الأنظمـة المتّبعـة في الكنيسـة الأولى، ويتوجه الى الشعب المسيحي عامّة، أكثر منـه الى فئـة معيّنة. ولئن كان هاماً وثـميناً فليس من حيـث عمـق أفكـاره وحسب، بل لأنه يعبّر، بطريقة ملفتة، عـن المفهـوم المسـيحي الصحيح للحياة.

هـ ـ الصبر (De Patientia)

هذا الكتاب "عن الصبر" الذي كتبه "ترتوليانوس" ما بـين سـنة ٢٠٠ و٢٠٣ مسـيحيّة، والـذي أخـذ عنـه الكثـير القديـس "قبريـانوس القرطـاجي" في كتـاب "منفعـة الصـبر" (De bono patientiae)، يصف فيه المسـيحي المثـالي الـذي كـان يتـوق الى أن يكـون مثلـه، والـذي يعتـبره صـاحب الفضيلـة المسيحيّة الحقيقية التي تعلو على كلّ فضيلة. وبهذا المعنى يبدأ كلامه قائلاً: "اعترف أمام اللـه السيّد بأنني كنت جريئاً جداً، وجسوراً الى حـدّ التهـوّر، بـاقدامي علـى وضـع كتـابٍ عـن الصبر. فأنا، بالفعل، غير قـادر علـى ممارسـة هـذه الفضيلـة،

وذلك لافتقاري الىٰ أيّة صفة خيّرة... ولكن سيكون ذلـــك عزاءً لي أن اتحـدّث عـن فضيلـة لا أنعـم بهـا. وسـأفعل مثـل المرضى الذين يشـيدون بحسـنات الصحّـة لأنهـم لا يتمتّعـون بها. وعلى ذلك، فأنا الشقي الذي يعاني دائماً من ثورات قلّة الصبر، علّي أن ألهث وراء هذه الفضيلة، وأن أطلبها دائمـاً، وأن أصلّي بمواظبة لكي أنال عافية الصبر هذه، تلـك الـتي لا أملكها" (الفصل الأوّل).

وفي التفاصيل يقول: إن الصبر يعود الى مثاله الحقيقي، ألا وهو الخالق الذي يطلـع نـوره علـى الصـالحين كمـا علـى الظالمين. والمسيح يعطينا مثالاً علـى ذلـك في تجسّـده وحياتـه وآلامه وموته. ولكي نستطيع كسب هذه الفضيلـة علينـا أن نطيـع اللـه بصـورة خاصّـة. فقلّـة الصـبر هـي أمّ الخطايـا، والشـيطان أبوهـا. وهـذه الفضيلـة تسـبق الايمـان وتعقبـه، والايمان لا يمكن أن يوجد بدونها. وفي الحيـاة اليوميـة أيضـاً هناك مجالات كثيرة لممارستها، خصوصاً عندما نخسر الأملاك والأمـوال، ونتحمّـل الاهانـات والتحدّيـات والمصـائب والسقوط. أمّا نفاد الصبر فيأتي غالباً من الرغبة في الانتقـام. والواجب يفرض علينا أن نتحمّل الشدّة والمحنة سواء أكانت خفيفة أم كبيرة وثقيلة. وأما مثابرتنا على الصبر فنكافأ عليها بالسعادة التي تُمنح لنا من اللـه بعد هذه الدنيا. ولذلك نرى "ترتوليانوس" يكثر من مديح فضيلة الصبر التي تقود الى كل

أنواع المسلكية الخلاصية، وتساعد على النـــــدم، وتهـــيّء للمحبة المسيحيّة الحقيقيّة. إنها (فضيلة الصبر) تقوّي الجسـد وتتيـح لـه أن يتحمّـل بصمـود أكيـد التعفّـف والاستشـهاد. والعهدان، القديم والجديد، يعطيـان الأمثـال الواضحـة علـى ذلك، مثل صبر النبي "أشعيا"، وصبر القديس "اسـطفانوس". لذلك إن قيمة هذه الفضيلة وثـمارها، فضـلاً عـن جمالهـا، لا مثيل لها. وبهذا المعنى يقول: "حيث هو اللـه موجود، توجـد فضيلة الصبر التي هي الطفل الذي يغذيه اللـه نفسه. وعندما ينزل روح اللـــه، يرافقـه الصـبر ولا يفارقـه أبـداً " (الفصـل الخامس عشر).

وفي النهاية ينبّه "ترتوليانوس" القـــارىء الى الفـــرق الجذري بين الصبر المسـيحي والصـبر عنـد الوثنيـين. فالصـبر المسيحي هو المثابرة في الخير، بينما الصـبر عنـد الوثنيـين هـو المثابرة في عمل الشرّ.

و- التوبة (De Paenitentia)

نظراً الى أن هذا الكتاب يعـود الى المرحلـة الاولى مـن حياته المسـيحيّة، أعـني الى الفـترة الـتي كـان فيهـا كاثوليكيـاً متعصّبـاً، وهـي حـوالي سـنة ٢٠٣ الـتي انفجـر فيهـا بركـان "فيزوف" (Vésuve) الذي يذكره في الفصل الثاني عشر، فان

البحث هو على أهميّة كبرى بالنسبة الى تاريخ التوبـــــة في الكنيسة، و"ترتوليانوس" يظهر فيه معلماً كبيراً ومرجعاً بكـل معنى الكلمة. ففي القسم الأول من الكتاب يدرس سرّ التوبة الـذي يجب أن يلـتزم بـه كـلّ راشـد ينـوي التقـدّم الى سـرّ المعمودية (من الفصـل الرابـع الى الفصـل السـادس). أمّـا في القسم الثاني فيبحث بـ "توبـة ثانيـة" وضعهـا اللـه، بعظيم رحمته، "في الكنيسة التي يجب أن تفتـح أبوابهـا لمـن يقرعهـا، ولكـن لمـرّة واحـدة فقـط، لأنهـا تلـك تكـون المـرّة الثانيـة" (الفصل السابع). وهذا ما يبرهن على وجود غفران بعد سرّ التهيّئة. واذا كان "ترتوليانوس" يشدّد على كون نعمة التوبة لا تمنح إلاّ مرّة واحدة، فانه لا يفعل ذلك إلاّ لأسبابٍ نفسيّة وعملية، وليس من أجل سببٍ عقائدي، كما يدلّ على ذلك المقطع التـالي: "إمنـح، يـا سـيّدي، الى خدّامـك، نعمـة تعلّـم وسماع مسلكيّة التوبة، ولكن بالقدر الـذي يناسـبهم، وليـس لكي يُخطئوا. وبكلام آخر، ليتهم، بعد المعمودية، لا يتعرّفون الى التوبة ولا يتوسّلونها. وإنه لمن المؤسف التكلّم عـن سـعي الى رجاء آخـر مـع العلـم أنهـا الفرصـة الأخـيرة في الظـرف الحاضر. فالخوف من الحديث عن دواء في التوبـة محفـوظ لمـا بعد قد يؤدّي الى الاعتقاد بـان ارتكـاب الخطيئـة أمـر سـهلٌ ويجعل المؤمنين لا يشدّدون في الالتزام الكامل بعـدم الوقـوع فيها. وهذه الفكرة هي بعيـدة كـلّ البعـد عـن اعتقادنـا، ولا يجوز أن تفسّر فكرتنا على هذا النحـو، أو أن يعتقـد أحدهـم

بأننا نعني بذلك أن الباب مفتوح للتوبة، وأن فيض رحمـــــة السماء يُعطي حقاً للتهوّر البشري. فلا يجوز لأحد أن يصبـح أقلّ فضلاً بحجّة أن اللـه أوفر جودة، فيعاود ارتكاب خطيئـة بقدر المرّات الـتي ينـال فيهـا الغفـران. وإلاّ، صدّقونـي، فـان الذي لا يضع حداً لخطيئته لن يتمكّن في يوم مـن الأيـام مـن الافلات مـن العقـاب. لقـد نجونـا مـرّة في المعموديـة. لذلـك فلنتحاشى التعرّض للاخطـار، حتـى ولـو بـدا لنـا أن النجـاة متوفّرة مرّة ثانيةً" (الفصل السابع).

من كلّ ما تقدّم يتبيّن لنا أن "ترتوليانوس"، وقد شعر بمسؤوليته تجاه قرّائـه، يـتردّد في الالحـاحِ علـى التوبـة الثانيـة لخشـيته مـن أن يُخطـيء هـؤلاء اعتـدادا وزهـواً. وبالمقـابل يحذّرهم من المغالاة الأخرى التي قد تصل بهم الى حدّ اليـأس، فيقول: "لا يجوز أن تيأس نفوسـكم، اذا مـا كـان عليكـم أن تتوبوا ثانية. يجب أن نتردّد في العـودة الى الخطيئـة، ولكـن لا تدعوا التوبة مجدّداً تحملكم على التردّد. تـردّدوا في التعـرّض للخطر مرّة أخرى، ولكن لا تخجلـوا مـن أن تتحـرّروا أيضـاً وأيضاً: فاذا ما تجـدّد المـرض يجـب تجديـد العـلاج" (الفصـل السابع).

ولكن، ما هي هذه التوبة الثانية التي يتحدّث عنهـــا "ترتوليانوس" في هذا الكتاب؟ إنها التوبة التي تسبق المصالحة

مع الكنيسة. ولكي ينالها الخاطيء عليه القيام بالاعـــــتراف العلـني، ومـن ثـم باعمـال الاماتـة الجسـديّة، كمـــا جـاء في الفصول من ٩ ـ ١٢، حيـــث يقـول: "إن هـذه التوبـة الثانيـة والوحيدة، بقدر ما تكون الضرورة إليها ماسّـــة، بقـدر ذلـك يجب أن يكون اختبارها شاقًّا: فلا تقتصر على جعل الخاطيء يدرك سوء فعله وحسب، بل يجب أن يظهر للعلن من خلال عملٍ ما. هذا العمل يُدعى في اللغة اليونانية المتداولة عادةً الـ "إكزومولوجيزيس" الذي بواسطته نعترف للربّ بخطيئتنا، لا لأنه يجهلها، بل لأن الاعتراف يهيّء الرضى، ويحقّق التوبـة، والتوبة تهدّيء غضب اللـه. فالـ "إكزومولوجـيزيس"، إذن، هي تأديبٌ يعلّم الانسان التواضع والشعور بـــالذلّ، ويفـرض عليه أسلوباً من شأنه أن يستدرّ به الرحمة والعطف. أمّا في ما يتعلـق باللبـاس والطعـام، فهـذا التـأديب يفـرض النـوم علـى الخيش والرماد، وأن يكتسي الخاطيء بالاسمال، وأن يستسلم الى الحزن، وأن يقوّم أخطاءه بمعالجة قاسية. من جهة أخـرى، فان النادم على خطاياه يكتفي، من حيث الطعام والشـراب، بأشياء بسيطة يتطلّبها خير النفس، لا لذّة الأحشاء. وغالباً ما يغذي الصلاة بواسطة الصيام. يئنّ، ويبكـي، ويصـرخ عاليـاً نحو اللـه ربّه. يسجد عند اقدام الكهنة، ويجثـو علـى ركبتيـه أمام أحبّاء اللـه. ويكلّف إخوانه أن يلتمســوا لـه الرحمـة مـن اللـه كي ينال الغفران " (الفصل التاسع).

وأمّا السجود أمام الكهنة، الذي نوّه به "ترتوليانوس"، فهذا يدلّ على أن هذا النوع من التوبة كان شرعة كنسيّة قديمة، وينتهي بحلٍّ رسمي وعلني للخطايا. لذلك يتوجه "ترتوليانوس" الى "الذين يتهرّبون من هذا الواجب، ويعتبرونه بوحاً علنياً بمكونات ذواتهم، ويؤجّلونه من يومٍ الى يوم: أمن الأفضل أن ندان سرًّا من أن ننال المغفرة جهراً"؟ ثم يصف، في الفصل الأخير، الفصل الثاني عشر، العقوبة الأبدية في الجحيم، عقوبة الذين يتهاونون في أمر خلاص نفوسهم، لأنهم لا يريدون اللجوء الى خشبة الخلاص هذه، وهي خشبة الخلاص الثانية. وبالطبع، إن الخطايا التي يعنيها "ترتوليانوس" هي الخطايا الكبرى والخطيرة، وليس الخطايا العرضيّة في المفهوم الكنسي. وهذا التشديد الذي نراه عنده يجعلنا نشعر الى أيّ مدى كان التزامه عميقاً بالعقيدة المسيحيّة وبالتعاليم والتوجيهات الكنسيّة، لا سيّما وان هاجس خلاص النفوس كان دائماً يلازمه في كلّ ما قام به.

ز ـ الى الزوجة (Ad Uxorem)

لقد كتب "ترتوليانوس" ثلاثة كتب في موضوع الزواج، الاوّل عندما كان كاثوليكيّاً، والثاني عندما أصبح "مونتانياً "، والثالث عندما انفصل نهائياً عن الكنيسة. امّا الكتاب الأوّل بعنوان "الى الزوجة"، فهو أفضلهم، ولقد كتبه

ما بين سنة ٢٠٠ و ٢٠٦ مسيحية، ويتألف من قسمين، يعطي فيهما زوجته النصائح التي يجب ان تتّبعها بعد مغادرته هذا العالم، وهو بمثابة وصيّة روحيّة يتركها لها لتعمل بها من بعده.

في القسم الأوّل يوصيها بأن تبقى أرملة لأن هناك أسباباً كثيرة تعارض زواجها من رجل آخر. وليس ثمّة عذراً يتيح لها أن تتزوج ثانية. فشهوة الجسد، ومباهج العالم، والرغبة في ازدياد النسل، لا يجوز أن تدفع بالمسيحي الى الأرتباط بزواج ثانٍ، لأن خادم الله بامكانه أن يسيطر على تأثيرات من هذا النوع. فالروح أقوى من الجسد، والهموم الدنيوية يجب أن تترك من أجل شؤون السماء. أمّا الأولاد فليسوا سوى عبء بسبب المرحلة العصيبة التي تتهيّء، وربما شكّلوا خطراً على الايمان في حالات كثيرة. واذا اراد الله لامرأة أن تفقد زوجها بالموت فليس من حقها أن تحاول اصلاح الأمور من خلال زواجٍ ثانٍ. فزواج من هذا النوع ليس سوى حاجز في وجه القداسة، بدليل أن الكنيسة ترفض الحفلات التكريمية الكبيرة للزواج الثاني مثل الحفلات التي تسمح بها للزواج الأول (ربما كان هكذا في القرون الأولى للكنيسة أمّا اليوم فالشأن غير ذلك). ولكن، وهنا يستدرك "ترتوليانوس" وينبّه زوجته، في القسم الثاني من الكتاب، في حال الحاحها على زواجٍ ثانٍ اذا كانت الضرورة تدعوها الى

ذلك، يجب أن تختار زوجاً مسيحياً، لأن الزواج بين المسيحيين وغير المسيحيين قد شجبه القديس بولس في رسالته الأولى الى القرنثيّين، ٧، ١٢ - ١٤، وهو يشكّل خطراً على الايمان وعلى الأخلاق، حتى ولو كان الزوج الوثني يبرهن عن تسامح كبير. وبهذا المعنى يقول:"بين "اللآلىء" التي في حوذتك، ضعي أيضاً الممارسات الدينية التي تميّزك في حياتك اليومية. وبقدر ما تسعين الى إخفائها، بقدر ذلك تثير ريبة الوثني وفضوله. وهل تعتقدين أنك تهربين من المراقبة عندما ترسمين اشارة الصليب فوق سريرك أو على وجهك؟ أو عندما تطردين بنَفثٍ من فمك كائناً نجساً؟ أو عندما تنهضين كما تفعلين أثناء الليل، لتلاوة صلاتك؟ في كل ذلك ألا تبدين بأنك تمارسين طقساً سحرياً؟ ألا تعتقدين ان زوجك سيطلب معرفة ماذا تتناولين سراً قبل ان تأكلي اي طعام آخر؟ واذا ما لاحظ أنه خبز، ألن يصدّق ما يقال حول هذا الموضوع؟ حتى ولو لم يسبق له سماع هذه الأقاويل، هل سيكون من السذاجة بحيث يصدّق التفسير الذي تقدّمينه له، دون أن يعترض، أو يتعجّب من أن يكون حقاً خبزاً وليس رقيّة سحرية ؟ إفترضي وجود أزواج يتسامحون بذلك كله، فانهم لا يفعلون هذا إلاّ لكي يسخروا من النساء المؤمنات ويحتقرونهنَّ " (٢، ٥).

ويزيد "ترتوليانوس" قائلاً: امّا الخطر الأكبر على المرأة المسيحية، فهو مشاركتها في الطقوس الوثنية بمناسبة أيام الشياطين أو أعياد الأباطرة. النساء اللواتي يعتنقنَ الدين المسيحي بعد الزواج لهنَّ عذرهنَّ، لكن الأمر يختلف كثيراً عندما تتزوج المسيحيّة من وثني و تعرّض بذلك ديانتها:"ليس ثمّة زواج ناجح من هذا النوع: إنه من صنع الشياطين، وقد دانه الربّ " (٢، ٧). وتفسير هذه الزيجات المختلطة مرجعه الى ضعفٍ في الايمان، والى محبّة الثروات وملذّات هذا العالم. وهنا يقارن "ترتوليانوس" بين هذه الملذات وسعادة الزوجين المسيحيين، فيقول:"كيف لي ان أصف سعادة زواج تعقده الكنيسة، وتقرّه الذبيحة، وتقدّسه المباركة، وتسجّله الملائكة، ويصدّقه الآب ويوافق عليه؟ فالاولاد، على هذه الأرض لا يجوز أن يتزوّجوا دون موافقة أهلهم. وكم هو طيّب النير الذي يجمع مؤمنَيْن في الرجاء ذاته، وفي الشريعة ذاتها، وفي الخدمة ذاتها ! فالأثنان هما اخوان، والاثنان يخدمان السيد نفسه وليس بينهما خلاف في الجسد أو الروح. وهما، فعلاً، اثنان في جسدٍ واحد، وحيث يكون الجسد واحداً، يكون الروح واحداً. معاً يصلّيان، ومعاً يسجدان، ومعاً يصومان، ومعاً يتعلّمان، ويشجّع أحدهما الآخر فيتماسكان، ويشدّ أحدهما إزر الآخر. وهما متساويان في كنيسة الله، ومتساويان في وليمة الله، ويتقاسمان الأحزان، ويتعرّضان معاً للاضطهادات وللتعزيبات. لا يخبّيء

أحدهما شيئاً عن الآخر ولا يتسبب أحدهما بكدرٍ للآخر، ولا يحزنه. ينشدان معاً المزامير والتراتيل التي تسبّح الله، فيتسابقان في تسبيح سيدهما المشترك. والمسيح يفرح برؤية هذين الزوجين فيرسل لهما سلامه. وحيث يكونان يكون هو نفسه، وحيث يكون هو لا يستطيع الشيطان الدخول"(٢، ٨).

هذه باختصار خلاصة هذا الكتاب التوجيهي القيّم الذي كتبه "ترتوليانوس" الى زوجته واعتبر وصيته الروحية لها ولكل الأزواج الذين يعيشون المسيح من خلال زواجهما المسيحي الحقيقي.

ح ـ الحضّ على العفّة (De Exhortatione Castitatis)

هذا الكتاب وجّهه "ترتوليانوس" الى صديق له كان قد فقد زوجته، وفيه يدعوه الى التعفّف، وإلى عدم الزواج ثانية، لأنه يعتبر أن تكرار الزواج هو مخالفٌ لارادة الله، ومحرّمٌ من قبل الرسول بولس (الاولى الى القرنثيين، ٧، ٢٧، ٢٨). واذا كان مرغماً على التسليم بأن اللّه يتساهل ويوافق على زيجات من هذا النوع، إلاّ أنّه يعلن، رغم ذلك، أن هذه الزيجات ليست سوى نوعٍ من الزنى والفسوق (الفصل التاسع). وهنا يتّضح التحوّل "المونتاني" الذي طرأ على

"ترتوليانوس". فبينما كان في الكتاب الموّجه "الى زوجتـــــه" يشيد بحسنات الزواج المسيحي، يبدو في هذا الكتاب كالنادم على السماح بهذا الزواج لأنه أصبح يعتبره فجـوراً شـرعيّاً، ويشيد بالبتوليّة والتعفّف. وفي هـذا المجـال يستشـهد بالرائيـة "بريسكا" (Prisca)، قائلاً: "وعلـى هـذا فـان النبيّـة بريسـكا تعلن أن كل خادم لسرّ الزواج يحسن منح الأشياء المقدّسـة، لأن التعفّف يؤدي الى انسجام النفـس، والاطهـار يشـاهدون الرؤى، وعندما يسجدون يسمعون أصواتاً تعلن لهم بوضوحٍ أسراراً سريّة وخلاصيّة" (الفصل العاشر).

يتبيّن من هذا النص أن الكتاب قد كتب ما بين سنة ٢٠٤ و ٢١٢ مسيحيّة، أعـني في المرحلـة الثانيـة مـن حياتـه، المرحلة المونتانية، قبل أن يـترك الكنيسـة الكاثوليكيـة نهائيـاً. وهو في ذلك يبدو متشدّداً، حتى أنّنا نشـعر مـن قـراءة هـذا الكتاب أنه ضدّ الزواج من الأسـاس، ويعتـبره عمـلاً شـائناً. فالانقلاب واضـح، والالـتزام بـالروح النبويّـة الجديـدة الـتي اعتنقها واضح ايضاً.

ط ـ الزواج الأحادي (De Monogamia)

كتابه هذا عن "الزواج الأحادي" هو أوفر الكتـــب الثلاثـة، الـتي وضعهـا عـن الـزواج الاول والثـاني، إشـراقاً

بأسلوبه، وتطرّفاً بافكاره، وهجوماً بمعتقده. فالمقدمة (الفصل الاول) تدلّ دلالة واضحة على أن "ترتوليانوس" استبعد تأثير الكنيسة المعدّل والمنظّم، وانضمَّ جدّياً، وبصورة نهائية، الى صفوف "المونتانيين". والفرضيّة التي يطرحها تمثّل، في رأيه، الحدّ الوسط بين هرطقة الغنوصيين الذين يرفضون فكرة الزواج كليّاً، وإباحة الكاثوليك الذين يسمحون به أكثر من مرّة. وبهذا المعنى يقول:"الرأي الاوّل يُعتبر تجديفاً، والثاني فجوراً وفحشاً. الاول يريد حذف الله من الزواج، والثاني يحاول أن يخزيه. ولكن نحن، الذين نحمل عن جدارة لقب "الروحيين"، وبفعل المواهب اللدنيّة التي نمتلكها علناً وبوضوح، فاننا نرى أن التعفّف جديرٌ بالتكريم، كما حريّة الزواج خليقة بالاحترام، لأن التعفّف والزواج مطابقان لارادة الخالق. التعفّف يشرّف قانون الزواج، والسماح بالزواج يخفّف من هذا القانون. فالتعفّف يتمتّع بحرّية مطلقة، أمّا الزواج فمقيّد بالأنظمة. الاول موضوع اختيار حرّ، فيما الثاني محتجزٌ داخل حدود معيّنة. ونحن لا نعترف إلاّ بزواج واحد، مثلما لا نعترف إلاّ بالهٍ واحد" (الفصل الاول). فـ "ترتوليانوس" يعتبر، اذن، الزواج الثاني، غير شرعي، وشبيهاً بالزنى (الفصل الخامس عشر). ويدافع عن عقيدته ضدّ تهمة التجديد، مستنداً الى شهادة الروح القدس (الفصلان الثاني والثالث)، والى سلطة العهد القديم (الفصول من ٤ ـ ٧)، والى الاناجيل (الفصلان ٨ و ٩)، والى رسائل القديس بولس

الرسول (الفصول من ١٠ - ١٤).ولكي يبرّر نفسه من القساوة المبالغ بها التي يأخذونها عليه، دعم رأيه في أن نفور الوثنيين من الزواج ثانيةً يبيّن أن ضعف الجسد لا يمكن ان يُعتبر حجّة كافية (الفصلان ١٦ و ١٧).

الكتاب كتب حوالي سنة ٢١٧ مسيحيّة، لأن "ترتوليانوس" يؤكّد في الفصل الثالث على أن مئة وستين سنة قد انقضت منذ وجّه القديس بولس الرسول رسالته الاولى الى القرنثيين، اي سنة ٥٧ مسيحيّة. وهو إدانة علنيّة، وباسم البارقليط، للزواج الثاني، معتبراً أن الزواج الاول، في حال حصوله، ليس سوى تسامح بسيط من قبل الله.

ي - وشاح العذارى (De Virginibus Velandis)

"وشاح العذارى" هو عنوان بحث ناقش فيه "ترتوليانوس" مسألة أولاها أهميّة كبرى. ففي المقدمة يأتي على ذكر بحثٍ سابقٍ باللغة اليونانية حول الموضوع نفسه، فيقول: "سأبيّن، باللغة اللاتينية أيضاً، لياقة ارتداء الوشاح بالنسبة الى العذارى منذ اللحظة التي يعبرنَ فيها العمر المعيّن، وسأثبت أن هذا الالتزام تفرضه الحقيقة التي لا يستطيع أحدٌ رفضها".

فبعد دراسته هذه العادة وتطوّرها التدريجي، يؤكد على أنَّ الأعراف، التي تفرض على النساء حجب وجههنَّ، في بعض المناسبات، تصلح أيضاً لغير المتزوّجات. وكلام الرسول بولس في رسالته الاولى الى القرنثيين، ١١، ٥ ــ ١٦، لا يستثني النساء المتزوجات كما يدّعي بعض المسيحيين. والكتاب المقدس، والعادات المسيحية القديمة، تفرض أيضاً على الفتيات أن يغطّينَ رؤوسهنَّ. ولماذا لا يفعلنَ ذلك داخل الكنيسة، طالما أنّهنَّ يفعلن ذلك في الخارج؟ وهنا يصف "ترتوليانوس"، بحماس شديد، التأثير الدائم لعمل الروح القدس المعزّي (البارقليط)، قائلاً: "بما أنَّ قانون الايمان هو دائمٌ ومستمرّ فان النقاط الأخرى المتعلّقة بالنظام والتقاليد تقبل بتعديلاتٍ جديدة، بفضل نعمة الله التي تستمرّ في عملها حتى النهاية. وبالفعل، ماذا يعني افتراضٌ كهذا: فيما الشيطان يتابع عمله، مضيفاً كلَّ يومٍ جديداً على حِيَلِ الفساد والآثام، هل من الجائز أن يتوقف عمل الله أو أن لا يستمرّ ويتطوّر؟ ولأيّ غرضٍ أرسل الله الروح المعزّي إلاّ لكون الانسان، بخموله، غير قادرٍ على استيعاب الأمور دفعةً واحدة، فكان ضرورياً، إذن، أنّ يوجّه النظام شيئاً فشيئاً، وان يبلغ الى درجة الكمال بواسطة نائب السيد، أي الروح القدس... ما هو، إذن، دور الروح المعزّي سوى إعلان الكتاب المقدس، وتهذيب العقل، واصلاحه"؟ (الفصل الأول).

ولكن، رغم هذا النداء الى الروح المعزّي (البارقليط)، والانتقادات المريرة الموجّهة الى الاكليروس، والتي تملأ البحث، فان الانفصال بين الكاثوليك والمونتانيين لم يكن وقع بعد في مدينة "قرطاجة". والبرهان على ذلك ما جاء في الفصل الثاني من البحث عن تقليد الكنائس الشرقية ونهجها، خصوصاً بالنسبة الى وحدة الكنيسة حيث يقول: "هم ونحن نملك إيماناً واحداً، وإلهاً واحداً، ومسيحاً واحداً، ورجاءً واحداً، وأسرار معمودية واحدة. وليسمح لي أن أقولها لمرّة أخيرة: نحن نكوّن كنيسة واحدة" (الفصل الثاني).

وبذلك يكون "ترتوليانوس"، من خلال هذا البحث المقتضب، الذي كتبه حوالي سنة ٢٠٧ مسيحيّة، قد لفت النظر الى عادات الكنيسة الواحدة حول اللباس المسيحي، وخصوصاً حول الوشاح الذي اعتبره ميزة الحشمة المسيحيّة وميزة العفة والطهارة والالتزام بالشريعة الالهية.

ك ـ الاكليل (De Corona)

يُعتبر هذا الكتاب، رغم كونه كتاب مناسبة، بحثاً في علاقة الدين بالدولة. فـ "ترتوليانوس" يناقش فيه مسألة اشتراك المسيحيّين في الخدمة العسكريّة. والمناسبة هي أنه عندما مات الامبراطور "سبتيموس ساويروس" في الرابع من

شهر شباط سنة ٢١١ مسيحيّة، وهب أولاده مبلغاً من المال للجيش، وهذه الهبة عُرفت باسم Donativum. وعندما ابتدأوا بتوزيع هذا المال تقدّم الجنود وهم مكلّلون بأكاليل من غار، سوى واحدٍ لم يضع الاكليل على رأسه، بل حمله بيده، الأمر الذي لفت نظر الجميع وراحوا يحقّقون بذلك. ويشرح "ترتوليانوس" هذا الحدث قائلاً: "أخذ الجميع يشيرون إليه ويهزأون به، ويتحدّونه، ويضايقونه، وارتفعت الجلبة فبلغت الى الخطيب. ثم خرج الرجل من الصفوف، فسأله الخطيب على الفور: "لماذا تنفرد عن الآخرين في مظهرك؟" أجاب الرجل: لأنه غير مسموح لي أن أضع الاكليل على رأسي كالآخرين. وعندما سأله الخطيب بجدّة عن سبب ذلك، أجاب الرجل: "أنا مسيحيّ"... بُحث وضعه، وتداول به المسؤولون، فأحيلت قضيّته الى محكمةٍ عُليا، ثم اقتيد المجرم الى الحكّام... ووضع في السجن بانتظار هبة المسيح (Donativum Christi) أي اكليل الشهادة. وبعد فترة وجيزة ابتدأت تتردّد أحكام تدين مسلكه وموقفه. وهل كانت هذه الاحكام من قبل بعض المسيحيين الذين تحاملوا عليه، أم من قبل الوثنيين التي لم تكن أحكامهم أفضل؟ لا أدري. ولقد قيل إنه كان عنيداً، ومتلهّفاً للموت. وعندما دُعي للقيام بواجبه، بالنسبة الى مظهره الخارجي، تسبّب بمضايقة جميع الذين يحملون اسم المسيح... وبما أنّ هؤلاء تقدّموا بالاعتراض القائل: هل يُسمح لنا بوضع أكاليل على رؤوسنا؟

رأيت من واجبي معالجة هذه القضية، وهي موضوع النقاش الحالي" (الفصل الأول).

البحث وُضع للدفاع عن جندي، وللتدليل على أن أكليل الغار الوثني على رأس المسيحي يتنافى مع ايمانه. وهو في ذلك يعود الى عادة مسيحيّة قديمة تؤكد على أن هذا النوع من الأكاليل منافٍ لمبادىء الديانة المسيحية نفسها. زد على ذلك أن هذه العادة هي عادة وثنيّة، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بعبادة الأوثان. فالعهدان، القديم والجديد، لا يذكران ممارسة من هذا النوع. وأخيراً لا يجوز للمسيحي أن يتوّج رأسه بالاكليل العسكري لأن الحرب والخدمة العسكرية تتنافيان مع الايمان. فالمسيحي لا يعرف سوى قسمٍ (نذر) واحد، وهو قسم العماد، ولا يعترف بغير خدمة واحدة، وهي خدمة المسيح، ربه وملكه. وهذا هو معسكر النور، أمّا المعسكر الآخر فهو معسكر الظلام.

ثم يلفت "ترتوليانوس" نظر القرّاء الى كتاب "كلوديوس ساتورنينوس" (Claudius Saturninus) الذي هو بعنوان "الاكاليل" (De Coronis)، والذي فيه شرحٌ وافٍ لهذا الأمر. وفي ذلك يقول: "الذين يريدون معرفة المزيد بامكانهم أن يجدوا مناقشة أوسع للموضوع لدى كلوديوس ساتورنينوس، وهو كاتب ذو موهبةٍ رائعة وفريدة. ولقد

وضع، فعلاً، كتاباً حول مسألة الأكاليل حيـــــث يعـــرض لأصولها، ولأنواعها، ولطقوسها" (الفصل السابع).

كذلك نجد في كتاب "الاكليل" نقداً لاذعاً للكاثوليك الذين رفضوا الروح المعزّي (البارقليط) ونبوءاته، كما يسخر من الاكليروس، فيقول: "يقينًا، فكما استبعدوا نبوءات الروح القدس، كذلك هم مستعدّون لرفض الاستشهاد. وهم يتداولون، بالفعل، أن سِلماً طويلاً وحقيقياً هو معرّض الآن للخطر. ولا شكّ عندي في أن قسماً منهم أدار ظهره للكتاب المقدس، وهم يحضّرون أمتعتهم استعداداً للهرب من مدينة الى أخرى، لأنهم غير مهتمّين بتذكّر أيّ شيء آخر من الكتاب المقدس. وأنا أعرف أيضاً رعاتهم: إنّهم أسود في السلم، وإِيَلْ في المعركة" (الفصل الأول).

بهذه الكلمات نعرف أن "ترتوليانوس" كان على قطيعة مع الكنيسة الكاثوليكية، بحيث أن تاريخ كتابة هذا البحث يعود الى سنة ٢١١ مسيحيّة، وأنّ الصراع بينه وبين رعاتها كان على أشدّه، سواء من خلال مواقفهم التي اعتبرها مواقف مساومة، أم من خلال مواقفه التي ارادها مواقف بطولة، بكل معنى الكلمة.

ل ـ الهرب من الاضطهاد (De Fuga in Persecutione)

هذا الكتاب الذي كتبه "ترتوليـــانوس" ســـنة ٢١٢ مسيحيّة، ووجهه الى صديقه "فابيوس" (Fabius)، وكـان قـد أعلن عنه في كتابه "الاكليل"، في الفصل الأوّل، هو ردٌّ على السؤال التالي: هل يحقّ للمسيحي أن يهرب من الاضطهاد؟

في كتابه "الى زوجته"، ١، ٣، أعلن قائلاً: "في زمـــن الاضطهاد يُستحسن الهرب مـن مكـان الى آخـر، فـلا نـترك مجالا لاعتقالنا، وربّمـا لانكـار ديانتنـا مـن جـرّاء التعذيـب". ولقد أكد علـى الفكـرة نفسـها في كتابـه "الصـبر"، الفصـل الثالث عشر. ولكن في هذا الكتاب، فانه، على عكس ذلك، يعتبر أن الهرب من الاضطهاد يخالف ارادة اللـه، لأن مصـدر الاضطهاد هو اللـه نفسه، الذي أراده ليثبّت ايمـان المؤمنـين، وحتى لو كان للشـيطان دورٌ في ذلـك. واذا عدنـا الى متّـى، ١٠، ٢٣، الذي قال في انجيله: "عندما يبـدأون باضطهـادكم أهربوا من مدينة الى أخرى"، فـ "ترتوليـانوس" يحصـر ذلـك بالرسل فقط، وبزمانهم، وبظروفهم، وليـس بـالزمن الحـاضر (الفصـل السـادس). حتـى وإنّـه ليـس مسـموحاً الهـرب مـن المعاملات السيّئة والتخلّص منها بواسطة الرشوة بالمـال، لأن الدافـع هـو نفسـه، أي الخـوف مـن الاستشـهاد. أن يُفتـدى انسانٌ بالمال وقد افتداه المسيح بدمه، فهـذا أمـرٌ يغيـظ اللـه

(الفصل الثاني عشر). لذلك يؤكد "ترتوليانوس" على أن الاضطهاد هو لخبرة ايماننا، ولقد سمح به الله لكي نحصل على نعمة الشهادة التي هي أكبر نعمة يعطيها الله للمسيحي. ولهذا لا يجوز الهرب، حتى ولو كان الهرب لخيرنا. بل الخير الخير هو الموت في سبيل الله وفي سبيل من افتدانا بدمه.

م ـ عبادة الأصنام (De Idololatria)

السؤال الذي يطرحه "ترتوليانوس" في هذا الكتاب، وهو: هل يحقّ للمسيحي أن يخدم في الجيش، يذكّرنا بكتابه "الاكليل"، الذي وضعه في السنة نفسها، أي سنة ٢١١ مسيحيّة، ويتجاوز فيه الموضوع المحدّد لأنه كان في نيّته تحرير المسيحي من كلّ قيد يشدّه الى الأصنام. فلا يكتفي بادانة صانعي الأصنام وعبّادها (الفصل الرابع)، بل كلّ مهنةٍ أو فنٍ يخدمان الوثنية. من هنا فانه يقصي عن الكنيسة الفلكيين، ومعلّمي المدارس، وأساتذة الآداب، وعلماء الرياضيات، وبنوع خاص مدرّبي المصارعين، وبائعي البخور، والسحرة (الفصول من ٨ ـ ١١). وبديهي أن تثير هذه الاستثناءات الواسعة صعوبتين اثنتين، إذ يطرح السؤال: كيف السبيل الى كسب العيش؟ فيجيب "ترتوليانوس": إن الايمان لا يخشى الجوع. فاذا كان المسيحي تعلّم أن يحتقر الموت ويستهين به،

فلن يتردّد، بالتأكيد، في احتقار متطلّبات القوت البشـــــري (الفصل الثاني عشر). والمشكلة الثانية هي التاليـة: اذا كـان التعليم غير مسموح به للمسيحيين، فالتربية تصبح مستحيلة. وهنا يقدّم "ترتوليانوس" تنـازلاً ملفتـاً: التعليـم محظـور، هـذا مؤكد، لكن المطالعة والـدرس مسـموح بهمـا. وبهـذا المعنـى يقول: "لننظر الى ضرورة العلـوم الأدبيـة. ولنعتـبر أنـه، مـن جهة، غير مسموح بها، ومن جهة ثانيـة، هـي ضروريـة، ولا يمكن الاستغناء عنها. فدراسة الآداب هي جائزة للمؤمنين، لا تعليمها، لأن مبدأ الدراسة يختلف عن مبدأ التعليـم. ولنـأخذ حالـة مسـيحي يمـارس مهنـة تعليـم الآداب المملـؤة بمديـح الأصنام. لا ريب في أنه بتعليمه ينصح ويوحي بما يعلّمه: وهو عندما يعلّم، فانه بالتـالي يؤكـد، وعندمـا يـروي، فانـه يقـدّم شهادة... ولكن عندما يدرس المؤمن هذه الأمور، واذا كـان لديـه الاسـتعداد الكـافي لتفهّـم حقيقـة عبـادة الاوثـان، فلـن يقبلها، ولن يوافق عليها، وبحجّـةٍ أَولى اذا كـان بـدأ يفهمهـا منذ زمن بعيد. أمّا اذا كان حديث الفهم، فمن المستحسن أن يعتمد ذكاءه، بادىء ذي بدء، في ما يعرف، أي ما هو متعلّق بالله وبالايمان، فيرفض، لا محالة، هـذه الأمـور، ولـن يقبلهـا مطلقاً. وهكذا يظلّ معافىً روحياً، كمثل الذي يتقبّـل السـمّ وهو يعرف حقيقتـه، أكـثر من الـذي يجهـل أنـه سـمّ، لكنـه يرفض تناوله. فالضرورة تُعتبر، بالنسبة اليـه، عُـذراً، لأنـه لا يجد سبيلاً آخر للتعلّم" (الفصل العاشر).

كذلك يدين "ترتوليانوس" كلّ ما هو رسمٌ وفنٌّ ونحت (الفصل الخامس)، ويحظّر الاشتراك في الاعياد العامة (الفصل الخامس عشر). وهكذا يُطرح السؤال الثاني: ما هي دوائر الدولة التي يجوز للمسيحي أن يعمل فيها؟ في رأي "ترتوليانوس" ليس في استطاعة أحد تجنّب عبادة الأصنام، باشكالها المختلفة والمتعدّدة، في أي من الوظائف الحكومية. وبالتالي فلا يجوز لأي مؤمنٍ أن يتسلّم وظيفة حكومية (الفصل الثامن عشر). فكل عضو في الكنيسة كفر بأباطيل الشيطان في المعمودية، وسيكون، في السماء، أوفر سعادة لأنه أبعد عنه أمجاداً من هذا النوع. وهنا يعلن (ترتوليانوس) أن الدولة هي عدوّة الله، فيقول: "فليذكّركم هذا الواقع بأن جميع قوى هذا العالم ومناصبه ليست فقط غريبة عن الله، بل هي عدوّة له" (الفصل الثامن عشر). وهكذا يرفضٍ "ترتوليانوس"" العلاقة بين الايمان والامبراطورية، وخصوصاً الخدمة العسكرية، فيقول: "لا يوجد تجانس بين القَسم البشري والقَسَم الالهي، بين راية المسيح وراية الشيطان، بين معسكر النور ومعسكر الظلمات. ولا يمكن لنفس واحدة أن تخدم سيّدين: الله والقيصر" (الفصل التاسع عشر).

ن ـ الصيام (De Ieiunio Adversus Psychicos)

هذا الكتاب، الذي هو مهمٌّ جداً بالنسبة الى تـــاريخ الصيـام في المسـيحيّة، هـو بحـث وجّهـه "ترتوليـانوس" ضـدّ الكاثوليك، الذين يسـميّهم "النفسـانييّن" (Psychiques)، بعـد أن انضمّ الى "المونتانيّة" وراح يدافع عن تعاليمها. والموضوع ينحصر في مسألة الصيام التي أحدثت سابقاً مجادلةً عنيفة بـين الفريقين. فالكاثوليك، في نظره، هم "عبيد الشهوات الحسيّة، والمشتعلون بالشراهة" (الفصل الأول). ولقد اتّهمهم برفـض قواعد "المونتانيّة" التي أضـافت أيّامـاً علـى الصيـام، وأطـالت فترة الصوم عموماً، حتى المساء، وأنهـا لا تتنـاول إلاّ الطعـام الخالي من اللحم، والعصير، ومرق التوابل، والثمار الناضجة، ولا تلمس شيئاً يكون له طعـم النبيـذ، كمـا انّهـا تمتنـع عـن الحمّام بمناسبة هذه الأيّام التكفيريّة (الفصل الاول). كلّ هذه الممارسات دينت على أنها طـرق مسـتحدثة ومسـتوحاة مـن الهرطقات أو من النبوءة المزيّفة. فينبري "ترتوليانوس" للدفاع عن "المونتانيّة" ويعرض حججه علـى شـكل دفـاع، ويبيّـن، انطلاقاً من العهدين، القديم والجديـد، ضـرورة الصـوم بعـد خطيئة آدم، وحسنات الزهد والتقشّف، ناكراً أن يكون ثـمّة تجديد في هذا النوع من الوقفات (الفصل العاشر). وبعـد أن يدحض تهمة الهرطقة والنبـوءة المزيّفـة، ينصـرف الى مهاجمـة الكاثوليك، بعنـف، بسـبب تسـامحهم مـع أنفسـهم. يتّهمهـم

بأنهم "يقيمون الملاهي داخل السجن، كي يدنّسوا شـــرف الشهداء" (الفصـل الثاني عشـر)، وبأنهم أكثر زندقة من الوثنيين (الفصل السادس عشر).

التعابير اللاذعة كانت ميزة هذا الكتاب، ولم يسبق لـ "ترتوليانوس" أن استعمل مثلها في كتبه الباقية ضدّ الكاثوليك. لذلك اعتبر هذا البحث صورة واضحة عن القطيعة النهائية بينه وبين الكنيسة التي دافع عنها ضدّ الوثنيين واليهود بأشدّ التعابير قساوة مثل التي نقرأها في كتاب "الصيام".

س ـ الاحتشام (De Pudicitia)

هذا البحث حول "الاحتشام" ليس أقلّ عنفاً من سابقه، لكن الموضوع الذي يعالجه هو أوفر أهميّة. فالأمر يتعلّق بسلطة المفاتيح التي هي، حسب المفهوم "المونتاني" لـ "ترتوليانوس"، تعود، ليس الى التسلسل السلطوي الكنسي، بل الى التسلسل السلطوي الروحي، أي الى الرسل والأنبياء. وهو يمثّل، بصورة أساسية، مجادلة شديدة ضدّ نظام التوبة في الكنيسة الكاثوليكيّة الأفريقيّة، وبنوعٍ خاص ضدّ اسقف، لم يذكر اسمه، قد أعلن: "انني أغفر خطايا الزنى والفسق للذين تابوا وكفّروا". ويسترسل "ترتوليانوس" قائلاً: "إنّني أرغب

الآن في الاطلاع على فكرتك، ومعرفة المرجع الذي يتيح لك أن تغتصب هذا الحق للكنيسة. فاذا كان السيد قد قال لبطرس "على هذه الصخرة أبني كنيستي"، و"إليك اعطيت مفاتيح ملكوت السموات"، أو "كلّ ما تربطه أو تحلّه على الارض يكون مربوطاً أو محلولاً في السماء"، فانت تفترض ان هذه الكلمات نقلت إليك سلطان الحلّ والربط، أيّ لكل كنيسة مرتبطة ببطرس، فأيّ نوعٍ من البشر أنتم، لأنكم تحوّرون كلّياً نيّة الله الذي أعطى هذه النعمة الى شخص بطرس فقط"؟

إن كلمات "أي كنيسة مرتبطة ببطرس" لا معنى لها إلاّ اذا لم تقتصر فقط على أسقف "روما"، بل اسقف "كل" كنيسة مرتبطة ببطرس من حيث الايمان أو النشأة. فهي تنطبق، اذن، على كنيسة "قرطاجة" التي تأسّست، حسب التقاليد، من قبل مبشّرين قدموا من "روما".

واذا قارنّا بين هذا البحث حول "الاحتشام"، والبحث الذي سبقه حول "التوبة"، لوجدنا تعارضاً كبيراً بين الاثنين. ففي تاريخ نظام التوبة يُعتبر بحث "ترتوليانوس" عن "الاحتشام" أول مرجع يذكر الخطايا المميتة الثلاث وهي عبادة الاصنام، والفسق، والقتل، التي لا تغفر في نظره. ولقد ميّز بين الخطايا التي تغفر والخطايا التي لا تغفر

(Peccata remissibilia et irremissibilia). وهذا التمييز لم يكن موجوداً بالفعل في كتابه عن "التوبة" (De Paenitentia)؛ فيدّعي ان الكنيسة لا تملك سلطان مغفرة خطايا بهذه الخطورة بعد المعمودية، كما أن شفاعة الشهداء بمذنبين من هذا النوع غير مجدية.

ع ـ الرداء (De Pallio)

هذا البحث هو أصغر أبحاث "ترتوليانوس" على الاطلاق، وهو في ستة فصول. ولقد كتبه للدفاع عن نفسه بعد أن وَجّه إليه كثيرون النقد لأنه استعاض عن لباسه العادي بهذا الرداء. وفيه يذكّر مواطنيه بأن الثوب قد جلبه الرومان بعد انتصارهم على مدينة "قرطاجة"، ويرمز الى الهزيمة والخراب، بينما الرداء قد ارتداه، في الزمن القديم، أناس ينتمون الى كل الطبقات والفئات. من ناحية أخرى، فان التغيير هو قانون عام. وتجديد الزيّ والمظهر مقبول لدى كلّ كائن في الطبيعة. فالعالم يتغيّر، والأرض تتغيّر، والأمم وقادتها جميعهم الى زوال. والحيوانات، لكي تتزيّن، ترتدي ريشها أو تتعرّى، وكذلك يتغيّر لونها وشكلها. ولا عجب، اذن، اذا ما لجأ الانسان بدوره الى التغيير. فتاريخ اللباس طويل، منذ نشأته الى يومِ السقوط. ومن العدل أن لا يكون التجديد، دوماً، برهاناً على التطوّر. لكنّ "ترتوليانوس"

يعجب، مع ذلك، لكون مواطنيه يتحجّجون بأصل الـــرداء ويـأخذون عليـه كونـه يونانيـاً. ألـم يحـاولوا دائمـاً الاقتـداء باليونانيين، حتى في الاشياء التي لـم تكن أهلاً للاقتـداء؟ أمّـا اذا كانوا يهتمّون فعلاً بهذه الانتقادات الموجّهة ضدّ اللباس، فـالأفضل أن يوجّهـوا عنـايتهم الى مـا يتنـافى والحشـمة، الى الرجال الذين يتبرّجون كالنساء، والى النساء اللواتي لا يمكن التمييز بينهنَّ وبين بنات الهوى. فالرداء مفضّل على غيره لأنه بسيط وسـهل الاسـتعمال. وهـو الى ذلـك شارة الفلاسـفة، ومدرّسـي البلاغـة، والسفسـطائيين، والاطبـاء، والشـعراء، والموسـيقيّين، وعلمـاء الفلـك، وعلمـاء الصـرف والنحـو. وتأكيداً على قوله، يترك "ترتوليـانوس" الـرداء نفسـه يدافـع عنه، فيقول: "إن كل ما هو متحرّر في العلـوم تغطيّـه عنـدي الزوايا الأربع" (الفصل السادس). وهـو ليـس بطبيعـة الحـال لباس ميدان "روما"، أو لبـاس مكـان الانتخابـات، أو لبـاس قصر الحـاكم، ولا هـو أيضـاً الـزيّ المـألوف في مقـرّ الحـاكم الشرعي، ولا من قبل الفارس الروماني.

والرداء ممنوع في احتفالات الدولة، لكـــن مكانتـــه ارتفعت لأنه أصبح زيّ المسيحي." ابتهج ايها الرداء وتهلّل، فثمّة فلسفة أفضل تتنازل وتكرّمك الآن، لأنك بدأت تكون زيّ المسيحي" (الفصل السادس).

تلك هي آخر كلمات بحثٍ مليء بخفّة الروح والطرافة والسخرية. وإنّه لمن المرجّح أن يكون "ترتوليانوس" قد استبدل ثيابه بالرداء عندما اعتنق الدين المسيحي. أمّا المعنى الحقيقي الذي قصده في هذا البحث فيبقى غامضا بالنسبة الى المؤرخين.

*****

هذه المؤلفات التي حاولنا أن نقدّم خلاصة عنها في هذا القسم الثاني من كتابنا عن "ترتوليانوس" هي واحد وثلاثون كتاباً، وصلتنا كاملة، أو شبه كاملة. لذلك أمكننا أن نعود إليها في نصّها الأساسي أو في بعض ترجماتها الفرنسيّة والانكليزيّة والايطالية والاسبانية، الأمر الذي سهّل لنا هذا العمل لكي يكون القاريء على بيّنة من فحوى مؤلفات هذا العظيم الذي كان ولم يزل موضوع دراسات وأبحاث. ولكن هناك مؤلفات أخرى ضاعت، مع الزمن، ولقد ذكرها المؤرخون، ونحن هنا نذكرها بسرعة لافادة القاريء.

٤ـ المؤلفات الضائعة.

أـ الانخطاف (De Ecstasi Libri Septem)

هذا الكتاب يذكره القديس "ايرونيموس" بين كتب "ترتوليانوس" في المرحلة "المونتانيّة". ويقول: "ترتوليانوس أضاف كتاباً سادساً ضدّ الكنيسة عن الانخطاف، وكتاباً سابعاً ضدّ أبّولّونيوس حيث يدافع عن كلّ ما يرفضه أبّولّونيوس هذا" (الرجال العظام، ٤٠). وفي الكتابين يدافع "ترتوليانوس" عن كلّ ما تعلّمه المونتانية، إن على صعيد النبوءة، وإن على صعيد الانخطاف والرؤيا الروحية التي كانت تدّعيها بدعة "المونتانية" هذه.

ب ـ رجاء المؤمنين (De Spe Fidelium)

في هذا الكتاب يبرهن "ترتوليانوس" على أن النبوءات، في العهد القديم، عن تجديد اليهودية، يجب أن تؤخذ بالمعنى الرمزي عن المسيح والكنيسة (ضد ماركيون، ٣، ٢٤). وحسب القديس "ايرونيموس"، فان هذا الكتاب يتناول آراء متعدّدة حول بدعة الألفية (الرجال العظام، ١٨).

ج - الفردوس (De Paradiso)

في هذا الكتاب عن الفردوس يثبت "ترتوليانوس" أن جميع النفوس، ما عدا نفوس الشـهداء، تبقـى في الينبـوس الى يوم القيامة (ضدّ ماركيون، ٥، ١٢. النفس، ٥٥).

د ـ ضدّ أبيّلّياكوس (Adversus Apelleiacos)

هذا الكتاب كان موجّهاً ضدّ تبـــاع "أبيّليـــاكوس"، تلميذ "ماركيون". وفيه يرفض تعليمه الـذي يدّعـي أنَّ خلـق العالـم لـم يكن من اللـه مباشرة، بل بواسطة ملاكٍ، له روح المسيح وقوته وارادته، والـذي نـدم علـى هـذا الخلـق بعدئـذٍ (جسد المسيح، ٨).

هـ ـ معنى النفس (De Censu Animae)

هو كتاب كتبه "ترتوليانوس" ضدّ "هرموجانوس" وفيه يشرح أصل النفس البشرية.

و ـ القضاء والقدر (De Fato)

هذا الكتاب الذي تحدّث عنه "ترتوليانوس" في الفصل العشرين من كتابه عن "النفس"، يشرح فيه تأثير ارادة اللـــه الحرّة على العقل البشري، وضرورتها وقدرتها، كما يشـرح تأثير الشيطان أيضاً في هذا العقل.

ز ـ الى صديقٍ فيلسوف (Ad Amicum Philosophum)

بحسب القديس "ايرونيموس"، فان "ترتوليانوس" وجه هذا الكتاب، في صباه، الى صديق له فيلســوف، يشـرح فيـه صعوبات الحياة الزوجية.

ح ـ اثواب هارون (De Aaron Vestibus)

يذكره القديس "ايرونيموس" مـروراً، دون أن يشـرح ما جاء فيه.

ط ـ الجسد والنفس (De Carne et Anima)

ورد اسم هذا الكتاب ولـم يصلنا.

وهناك بعض الكتب المنسوبة الى "ترتوليانوس"، غير أن الأمر لـم يؤكده المؤرخون. لذلك نكتفي بما أوردنـا للتذكـير بغزارة تأليف هذا العظيم الـذي سـننتقل الآن في دراسـته الى القسـم الثـالث حيـث نـدرس فكـره اللاهوتـي والادبـي والنسـكي، وتأثـيره علـى تطـوّر الفكـر المسـيحي والعقيـدة المسيحية عبر الأجيال.

القسم الثالث

ترتوليانوس القرطاجي

اللاّهوتي والقانوني والمعلّم المتصوّف

١
الثالوث الأقدس في لاهوت ترتوليانوس

لقد سبق لنا القول إن إسهام "ترتوليانوس" الأساسي في اللاهوت العقائدي المسيحي جاء في مجال العقيدة الثالوثية المرتبط ارتباطاً وثيقاً بسريّ التجسّد والفداء. لذلك كان لا بدّ من البدء، في هذا القسم الثالث من دراستنا، بمفهومه للثالوث الأقدس الذي يدور حوله جوهر لاهوته، خصوصاً وإنّه أوّل من أطلق كلمة "ثالوث" (Trinitas) في التعبير اللاهوتي اللاتيني، ولقد التزمته الكنيسة منذ البداية.

في كتابه عن "الاحتشام"، الفصل الحادي والعشرون، يتحدّث عن "ثالوث الألوهة الواحد، الآب والابن والروح القدس".

(Trinitas Unius Divinitatis, Pater et Filius et Spiritus Sanctus)

وفي كتابه "ضدّ براكسياس"، الفصل الثاني، يوسّع العقيدة الثالوثية حيث يفسّر الانسجام بين الاقانيم الثلاثة في وحدة الله، باظهار وحدانية الثلاثة في ماهيتهم ومبدئهم: "ثلاثة في وحدة الجوهر ووحدة الحالة ووحدة القدرة"

(Tres unius substantiae et unius status et unius potestatis).

فالابن هو "من جوهر الآب"

(Filium non aliunde deduco, sed de substantia Patris)، والروح

القـــدس هـــو "مـــن الآب بـــالابن" (Spiritus non aliunde deduco quam a Patre per Filium). ويزيـد في الفصل الثاني عشر قائلاً: "إنني اؤكد دائماً أن ثـمّة ماهية واحـــدة في الثلاثـــة مجتمعـــين" (Ubique teneo unam substantiam in tribus cohaerentibus).

وفي الفصل الخامس والعشرين يشرح علاقـــة الآب والابن والروح بهذه الطريقة: "علاقة الآب بـالابن، وعلاقـة الابن بالبارقليط توحّـد الثلاثـة، الواحـد مـن الآخـر. هـؤلاء الثلاثـــة هـــم واحـــد، وليســـوا شـــخصاً واحـــداً"
(Connexus Patris in Filio et Filii in Paracleto tres efficit)
(cohaerentes, alterum e altero. Qui tres unum sunt, non unus)

كما أن "ترتوليانوس" هو أوّل من اســـتعمل تعبـــير "شخص" (أقنوم) (Persona) الذي أصبح متداولاً في ما بعـد. وهـو يشـرح، في الفصـل الثـاني عشـر، علـى ان الكلمـة (اللوغس) هو مغاير للآب بمعنى الأقنـوم، لا بمعنى الجوهـر، وذلك للتمييز، وليس على سبيل الفصل بين الاثنـين: (Alium autem quomodo accipere debeas iam professus sum, personae non substantiae nomine, ad distinctionem non ad divisionem). وكذلك يطبّق كلمة "شخص" (أقنوم) (Persona) على الروح القدس، ويدعوه "الأقنوم الثالث"، حيث يقـول: "اذا كـانت

التعدّدية في الثالوث تضايقكم، كما لو لـم تكن مرتبطـــة في بساطة الوحدة، أسألكم كيف يكون ممكناً لكـائنٍ مـا، وهـو، دون أدنى شـك، ومطلقـاً، واحـد ومفـرد، أن يتحـدّث عـن نفسه بصيغة الجمع ويقول: "فلنصنع الانســان علـى صورتنـا ومثالنا". ألـم يكن يتوجّـب عليـه القـول: "لأصنـع الانسـان على صورتي ومثالي"، بصفته كائناً فرداً ووحيداً؟ ومع ذلـك. نقرأ في المقطع التالي: "انظروا، فان الانسـان قـد أصبـح مثـل واحدٍ منا". فهل اللـه يخدعنا ويسخر منّا وهو يعبّر عن نفسه بصيغة الجمع، وهو حقيقة وحيد وفرد؟ أم تراه توجّه بكلامه هذا الى الملائكة، حسب تفسير اليهود لهذا المقطع، لأنهم هم أيضـاً لا يعـترفون بـالابن؟ أم لأنـه، في الوقـــت عينـــه، الآب والابن والروح القدس، تكلّـم بصيغـة الجمـع، معتـبراً نفسـه متعدداً من هذا المفهوم بالذات؟ السبب هو بالتـأكيد وجـود الابن الى جانبه مكوّناً أقنوماً ثانيـاً، أي "كلمتـه"، فضـلاً عـن أقنوم ثالث هو الروح القدس في "الكلمة". لذلك اعتمد، عن قصد، صيغ الجمع: "فلنصنــع"، و"علـى صورتنـا"، و"أصبـح مثل واحدٍ منّا". فمع من تراه خلق الانسان؟ والى مـن جعلـه شبيهاً؟ إنه كان يتحدّث الى الابن، الذي كان عليه أن يتخـذ الشكل البشري، ومع الـروح، الـذي كـان عليـه أن يقـدس الانســان. لقـد تحـدّث إليهمـا، في وحدانيّـة الثــالوث، كمـا يتحدّث الى وزرائه وشهوده" (ضدّ براكسياس، الفصل الثاني عشر).

ورغم كلّ ما تقدّم فلم يزل البعض من اللاهوتيّين يتّهمون "ترتوليانوس" بمبدأ "التبعيّة" (Subordinationisme). فالتمييز القديم بين "الكلمة الباطني" الموجود في الله (Logos endiathetos)، "والكلمة المبعوث" من الله (Logos prophorikos) الذي أضلَّ المدافعين اليونانيين عن العقيدة المسيحيّة، قد حمله على الاعتقاد بأن التوالد الالهي حدث بالتدرّج. ومع أن "الحكمة" و"الكلمة" هما لفظتان متشابهتان بالنسبة الى الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس، فـ "ترتوليانوس" يوجد تمييزاً بين ولادةٍ أولى لهذا الأقنوم بصفته "حكمة" قبل الخليقة، وولادةٍ كاملة (Nativitas perfecta) لحظة الخلق، عندما نطق باللوغس وأصبح "الكلمة". وبهذا المعنى يقول: "عند ذلك تلقّى الكلمة ظهوره وإتمامه، أي كلمته وصوته، عندما أمر الله قائلاً: "فليكن النور"! تلك هي الولادة الكاملة "للكلمة"، حين انبعث من الله. لقد أولده الله بالفكر، بادىء ذي بدء، تحت اسم "حكمة"، "حين ثبّت الغيوم في العلاء وقرّر ينابيع الغمر" (امثال، ٨، ٢٢)، ثم أولده بقصد العمل: "عندما خلق السموات، كنت الى جانبه" (امثال، ٨، ٢٧). وبالتالي، جعل منه أباه، اذ انبعث منه وأصبح ابنه، الابن البكر، لأنه وُلِدَ قبل كلّ شيء، والابن الوحيد، لأنه الوحيد الذي ولد من الله" (ضدّ براكسياس، الفصل السابع). والابن، بهذه الصفة، ليس أبدياً، ولو أن اللوغس هو اقنوم منذ قبل خلق العالم بجوهر خاص. فالآب

هو الماهية الكاملة (Tota substantia est)، بينما الابن ليس سوى جزءٍ من كل (Derivatio totius et portio)، إذ يقول: "لأن الآبَ هو أعظم منّي" (يوحنا، ١٤، ٢٨). والتشابه الذي يقدّمه "ترتوليانوس" في ما يتعلّق بالله يشير ايضاً الى ميوله "التبعيّة"، خصوصاً عندما يقول إن الابن منبثق من الآب كما تنبثق الأشعة من الشمس. وبهذا المعنى يقول: "إن الله نطق "الكلمة"، كما يعلن ذلك البارقليط نفسه، مثلما ينتج الأصل الفروع، ومثلما يولّد النبع النهر، ومثلما تبعث الشمس بأشعتها. وهذه الظواهر هي أيضاً انبثاقات الماهيات التي جاءت منها. وبالتالي، فانّني لا أتردّد في تسمية الفرع ابن الأصل، والنهر ابن الينبوع، والشعاع ابن الشمس. فكل ينبوع هو، في الواقع، أبٌ، وكلّ ما يجري من الينبوع هو مولود أو منبثق. والحال ينطبق، بصورة خاصّة، على "كلمة" الله، الذي أعطي تسمية خاصة هي اسم ابن الله. ومع ذلك فالفرع ليس منقسماً عن الأصل، ولا النهر عن الينبوع، ولا الشعاع عن الشمس. و"الكلمة" ليس منقسماً عن الله. وبحسب نوعية هذه التشابهات، أعترف بأنني أدعو الله وكلمته ـ الآب والابن ـ اثنين. فالأصل والفرع شيئان مميّزان، لكنهما مجتمعان. والينبوع والنهر ظاهرتان، لكنهما غير منقسمين. وهكذا الشمس والشعاع شيئان مميّزان بالنسبة الى النظر، لكن أحدهما مقيمٌ في الآخر. وكل ما هو منبثق من شيء يأتي بالضرورة في الدرجة الثانية بالنسبة الى الذي

انبثق منه، دون أن يكون منقسماً عنه. وبالتالي، فحيث يوجد ثان، لا بُدَّ من أن يكون هناك اثنان، وحيث يوجد ثالثٌ، لا بُدَّ من أن يكون هناك ثلاثة. فالروح هو، اذن، الثالث انطلاقاً من الله ومن الابن، كما أنَّ ثمرة الفرع هي الثالثة انطلاقاً من الأصل، أو كما القناة المتحدّرة من النهر هي الثالثة انطلاقاً من الينبوعٍ، أو أخيراً لا آخراً، كما أن طرف الشعاع هو الثالث انطلاقاً من الشمس. ومع ذلك، فليس ما هو غريبٌ عن الينبوع الأوّل الذي يعطيه ما هو عائد إليه. وهكذا، فالثالوث، في انبثاقه من الآب بدرجاتٍ مركّبة ومتّصلة، لا يعكّر مطلقاً التسلسليّة، بينما هو ينقذ وضع التدبير الالهي" (ضدّ براكسياس، الفصل الثامن).

من جهة أخرى يؤكد "ترتوليانوس" على أنَّ الآب السماوي هو، طبيعيًّا، مبدأ الاقنومين الثاني والثالث. وبالتالي هو أسمى منهما. ولكن، ما هي طبيعة الابن الكلمة وطبيعة الروح البارقليط اذا كان الآب هو أسمى منهما؟ عن الابن يقول: إنه روحٌ كما الآب، ولكنّه مميّز عن الآب بولادته منه. إنه إله من إله، ونور من نور. إنه أزلي، سرمدي، لأنه كان دائماً موجوداً كعقله الباطني، رغم أنه لم يصبح ابناً إلاّ ساعة الخلق. فالله، بنظر "ترتوليانوس"، لم يكن دائماً الديّان والأب، لذلك لزمه جُرمٌ ليصبح ديّاناً، وولداً ليصبح أباً، وهذا ما لم يحصل دائماً. وهكذا فان "الكلمة" الالهي

لـم يخلقه اللـه، بل لـم يكن دائماً ابناً. أمّا عـــن الـــروح القدس، فهو مـن جوهـر الآب، وهـو الإلـه نفسـه مـع الآب والابن. إنه الاقنوم الثالث من الثالوث.

وباختصار، فان "ترتوليانوس" يشدّد على وحدانيـــة اللـه، ولكن، في نظره، هذه الوحدانية لا تمنـع مجرى التدبـير الالهـي نفسـه. وهـذا التدبـــير، هـــو الـــذي سمـــح بـــالتوزيع وبالشراكة في الوحدة التي منها نتج الثالوث نفســه. فالتدبـير لـم يقسّم الوحدة، بل وزّعهـا علـى الثلاثـة أقـانيم، المتميّزة بالعدد، وليس بالجوهر. إنهم الثلاثة إله واحـد: "فـالآب هـو اللـه، والابن هو اللـه، والروح القدس هو اللّـه، وكل واحدٍ هو اللـه" (Et Pater Deus et Filius Deus et Spiritus Sanctus (Deus et Deus unusquisque). إنهـم ليسـوا شـــخصاً واحـــداً (Unus)، بل واحد (Unum)، لأن بينهم وحدة الجوهـر وليـس وحدة العددّيّة.

وهكذا، ورغم بعض النقـــائص في تعابـــيره، يبقـــى "ترتوليانوس" واجد (خالق) الكلمات الاساسية في اللاهـوت الثالوثي (Tres personae)، و (Una substantia)، و (Trinitas)، التي التزمتها الكنيسة اللاتينية في تعاليمها عبر الاجيال.

٢
الخلق في لاهوت ترتوليانوس

"إنَّ اللـــه هـــو خـــالق الســـــموات والأرض": و"ترتوليانوس"، في التأكيد على ذلك يردّ على ادّعاءات الهراطقة، وبنوعٍ خاص على "هرموجانوس" و"ماركيون". ف "هرموجانوس" كان يدّعي أن المادة هي أزليّة وسرمديّة، كما الله، وبالتالي هي مصدر الشرّ. بينما "ترتوليانوس" يؤكد على ان الأزليّة والسرمديّة هما من صفات الله، وفي حال الادّعاء بأن المادة هي أيضاً أزليّة وسرمديّة، فذلك يعني أنها مؤلّهة، وهذا محال. كذلك "ماركيون"، فانه يقرّ بان الله خلق كلّ شيء، لا سيّما المادة، ولكنّه الله العهد القديم العادل، بينما الله العهد الجديد الطيّب هو برّاء منها. و"ترتوليانوس" يردّ عليه قائلاً: إن العالم هو طيّب وصالح، وهو جديرٌ بان يكون مخلوقاً من الله الطيّب، الله العهد الجديد. لذلك، يؤكد على أن الله هو الخالق لكلّ شيء (قيامة الجسد، الفصل الحادي عشر)، وحتى عندما يتكلم عن الملائكة الذين نراهم، وهم في نظره خلقوا من لا مادّة (Ex nulla materia) (جسد المسيح، الفصل السادس).

وأوّل هذه المخلوقات، وأرفعها مرتبةً، هم الملائكـــة، ولقد أكّد على ذلك الفلاسفة مثل "سقراط" و "أفلاطون"

وغيرهم (الدفاعي، ٢٣ و٤٦؛ النفس، ١، ٣٢). وبراهين العهد القديم والعهد الجديد هم، بالنسبة الى المسيحيين، قاطعة وأكيدة. وهؤلاء الملائكة هم أرواح ماديّة، خرجت من نفث الله (ضدّ ماركيون، ٢، ٨؛ ٣، ٩)، ولها جسد نافذ ونارِيّ، ينتقل من مكان الى آخر بسرعة كبيرة وغير مدركة، ويؤثّرون على البشر ويحمونهم، وبنوع خاص الاطفال (الدفاعي، ٢٢؛ النفس ٣٧). ولقد ظهروا للناس بشكلٍ بشري، في أجسادٍ استعملوها للمناسبة (ضدّ ماركيون، ٣، ٩؛ جسد المسيح، ٣، ٦). ولكن، مع الأسف، فان هؤلاء الملائكة لم يكونوا دائماً مخلصين لله، فكانت خطيئتهم الأولى الكبرياء والحسد من الانسان (الصبر، ٥). ويتوقف "ترتوليانوس" أيضاً على ما جاء في سفر التكوين، الفصل السادس، ١، ٢، حيث يقول: "ولّما ابتدأ الناس يكثرون على وجه الأرض وولد لهم بناتٌ، رأى بنو الله بناتِ الناس إنّهنَّ حسناتٌ فاتخذوا لهم نساءً من جميع من اختاروا"، ويستنتج من ذلك أن الملائكة تزوّجوا من بنات الناس وخطئوا خطيئة الشهوة الجسدّية، فكان أولادهم الشياطين (الدفاعي، ٢٢؛ تبرّج النساء، ١٠). وهكذا ابتدأ الشياطين بملاحقة البشر ودفعهم الى الشرّ (النفس، ٢٠؛ الدفاعي، ٢٣ و٢٧)، لكنّ قوّتهم محدودة وليست فاعلة بسبب الصلوات المسيحيّة التي تطردهم وترفع سيطرتهم عن البشر (الدفاعي، ٢٣ و٢٧؛ الى سكابولا، ٢، ٤).

وبعد الملائكة خلق الله البشر. فالانسان هو مركّبٌ من نفس وجسد، متّحدين اتحاداً كاملاً، كما يقول في كتابه "قيامة الجسد"، الفصل الأربعون:

(Vocabulum homo consertarum substantiarum duarum quodam modo fibula est, sub quo vocabulo non possunt esse nisi cohaerentes. وأمّا النفس فهي من طبيعة جسدية، ولكن طبيعة جسديّة خاصة بها، مميّزة عن سائر الاجساد، انّما لها جميع صفات الاجساد. ولها، كهذه الاجساد، قانونها وحالتها (Habitus)، كما لها أيضاً حدّها ونهايتها (Terminus)، وأبعادها الثلاثة، وشكلها المميّز، ولونها الشاحب الهوائي. وما جاء في كتابه "النفس"، الفصل الثاني والعشرون، يؤكد على ذلك:

(Definimus animam Dei flatu natam, immortalem, corporalem, effigialam, substantiam simplicem, de suo sapientem, varie procedentem, liberam arbitrii, accidentis obnoxiam, per ingenia mutabilem, rationalem, dominatricem, divinatricem, ex una redundantem.)

وهذا التحديد لـ"ترتوليانوس"، كان تحت تأثير إحدى الرائيات المونتانية التي ادّعت أنها رأت، في أحد الأيام، نفساً بشرية. وأمّا أوصافها الباقية فلقد أخذها عن الرواقيين،

وبنوع خاص عن الطبيب "سورانوس" (Soranus)، رافضاً طروحات "أفلاطون" الروحانية.

هذه النفس، حتى ولو كانت مادية (جسديّة)، فانّها بسيطة ولا تتجزّأ. وهي فريدة (واحدة) دون تمييز، كما يريد الفلاسفة، بين المبدأ الناشط، مركز القوى النفسية (Animus)، والنفس ذاتها، المركز الحيوي المنفعل (Anima). إنها خالدة، والموت، الذي لا يُعتبر مرحلة انحطاط وسقوط بالنسبة اليها، يحرّرها من جميع الشرور التي كانت عُرضةً لها من جرّاء اتحادها بالجسد. وأمّا بالنسبة الى مصدرها (أصلها)، فهو يُعلن أنها تولد مع الجسد بفعل العلاقة الجنسيّة نفسها، دون تدخّل الله، نافياً وجودها المسبق وتقمّصها. وهذا يعني أن جميع النفوس تولد مع الجسد، وفي الوقت ذاته، لأن الفعل التوالدي هو واحدٌ، والانسان، بنفسه وجسده،مولود في آن. من هنا، في نظره، إن جميع النفوس كانت في آدم قبل ان تولد، الأمر الذي اوقعه في بدعة الوراثة النفسية (Traducianisme)، نافياً فعل الخلق من قبل الله وتدخله المباشر ساعة يكون الفعل الجنسي.

كذلك، فان الحريّة هي من صفات النفس الأساسيّة. و"ترتوليانوس" يؤكد بشدّة على أن هذه الحرية هي سبب الشرّ والخطيئة (ضدّ ماركيون، ٢، ٥ ـ ٧). ولكن هذه الحرّية

ليست وحدها سبب أخطائنا الشخصية، لأن سقوط آدم في الخطيئة هو الذي جلب على البشرية جمعاء هذه الخطيئة. وبنتيجة هذه الخطيئة حُكم على الجنس البشري بالموت، وبالقصاص والعقاب. لذلك فان الخطيئة الأصليّة قد وصمتنا بالرجس وبالدنس، وولادتنا من آدم هي التي جعلتنا نرث ذلك. وهذا ما يؤكد على أن جميع البشر هم ملطّخون بالدنس، وهم، الى حدٍّ ما، أبناء الشيطان. أمّا الأولاد الذين يولدون من أبٍ وأمٍّ مسيحيين، فانهم يملكون نوعاً من قداسة مبدئية تجعلهم مهيّئين للعماد، رغم كونهم ملطّخون بالدنس كما الآخرين (النفس، ٣٩). والملحوظ هنا، أن "ترتوليانوس"، في قوله هذا، لم يبرهن على أن الخطيئة الأصلية هي حرمان النعمة وحالة البرارة التي خلق الله الانسان فيها. بل هو يشدّد على نتائج الخطيئة الاصلية، خطيئة آدم، وهي الميل الى الشرّ، والتعرّض للمرض والموت. والشهوة الجنسيّة، مهما كانت شديدة، فانها لا تحرم الانسان من حرّيته. لذلك دافع عنها (عن الحرية الشخصية) بشدّة ضدّ "ماركيون" و"هرموجانوس"، اللذين علّما أن الانسان ليس مسؤولاً عن أعماله (ضدّ ماركيون، ٢، ٩ ـ ١٠). فالله خلقه على صورته ومثاله، وليس بامكانه أن يخسر حرّيته إذا لم يخسر الصورة التي خلقه فيها. لذلك ليس بامكاننا أن ننسب الشرّ لله. والانسان، لكي يعمل الخير، هو بحاجةٍ الى النعمة. والله، هو الذي يجذب الخطأة الى التوبة، والعون،

الذي يمنحه الى الذين يصلّون بتواضع، يمنعه عن المتكبّرين. لذلك، يصف "ترتوليانوس"، ببلاغة، الصراع الدائر في النفس البشرية التي تسعى الى التوبة، وتحاول الاغراءات والملذات الطبيعيّة أن تعيقها عن ذلك (التوبة، ٦)، ويتساءل: من سينتصر في النهاية؟ ويردف قائلاً: ليس من عادة الله ان يُكره الانسان الحرّ، لذلك فالذين يستفيدون من نعمه ينالون أيضاً نعماً أكبر، والذين يحتقرونها يخسرون حضوره وسهره عليهم (التوبة، ٦). ولهذا يجب أن نحصل نحن على سعادتنا من خلال الكفّارة عن خطايانا والعمل بارادة الله، فنستحقّ أن نكون بقرب الله، لا بل نستحق الله:

(Omnes salutis in promerendo Deum petitores).

وباختصار، فان الله قد خلق كلّ شيء في هذا الكون، من الملائكة، الى البشر، والى الكائنات الاخرى. وجوهر هذا الخلق هو الانسان الحرّ الذي يحترم الله حرّيته ولا يقيّدها، لانها وحدها سبيله الى السعادة أو الى الهلاك. وبقدر ما يكون الانسان ملتزماً بشريعة الله، بقدر ذلك يسهر الله عليه ويعطيه النعم الضرورية لخلاصه، أمّا الذي لا يلتزم بهذه الشريعة فان الله يحرمه من السهر عليه، رغم محبّته وعطفه. لذلك إن الحرّية هي وحدها التي تعطينا السعادة اذا استعملناها للغاية التي أرادها لها الله في فعل الخلق هذا. والخلق هو لتمجيده تعالى ولميراث الملكوت السماوي.

٣
التجسّد والفداء في لاهوت ترتوليانوس

في الوقت الذي ظهر فيه "ترتوليانوس"، كانت عقيدة الكنيسة التقليديّة حول المسيح في صراعٍ مع أعداءٍ لها عديدون ومتصلّبون. فالذين كانوا يعلّمون بأن المسيحَ هو انسان تبنّاه الله، رفضوا ألوهته، وجعلوا منه إنساناً كباقي البشر، لكنه مملوءٌ من نعمٍ غزيرة وقدّوسٌ. والذين اعتبروا أن الآب والابن هما واحد، أكدوا على أن الله تجسّد في يسوع، وأن الآب هو الذي تحمّل الآلام الفدائية. والذين ادّعوا أن المسيح لم يكن له سوى مظهر الجسد، أنكروا طبيعته وأفسدوا هذه الطبيعة. فـ"ماركيون" مثلاً أعلن أن جسد المسيح لم يكن سوى مظهرٍ وحسب، و"أبيلّوس" علم أن جسد المسيح كان جسداً "كوكبيًّا"، و"فالنتينوس" رأى في هذا الجسد جسدا روحانيا. وكثيرون من الغنوصيّين لم يقبلوا بالطبيعتين، الالهية والانسانية، في المسيح، وأن اتّحادهما لم يكن سوى اتّحادٍ عابرٍ ومزيّف.

تجاه هذه التعاليم المغلوطة، وقف "ترتوليانوس" يدافع عن الحقيقة بجرأة، خالقًا تعابير عديدة بقيت متّبعة في اللاهوت اللاتيني لغاية اليوم. فلقد أكّد على حقيقة جسد المسيح، هذا الجسد الذي حُبل به وولد مثلنا، وهو كجسدنا

من لحمٍ وعظام (جسد المسيح، ١، ٥، ٩). والذين أنكروا حقيقة جسد المسيح، أنكروا، بنظره، آلامه وموته الخلاصي، وأنكروا التدبير الالهي في الفداء. وردًّا على الهراطقة الذين اعتبروا أن التجسّد لا يليق بالله، وأن الملائكة، الذين ظهروا للبشر، قد لبسوا جسداً نجميًّا وكوكبيًّا، يقول "ترتوليانوس": إن الملائكة لم يأتوا ليفتدوا البشرية، وانهم اختفوا حالاً عندما حقّقت رسالتهم. بينما المسيح قد ظهر ليُعطي الحياة للناس وليفتديهم. لذلك وجب عليه أن يولد في جسدٍ مائت لأنه كان عليه أن يموت (جسد المسيح، ٦). فهو إذن وُلد من جوهر العذراء (Ex ea)، وليس بواسطة العذراء (Per eam)، كما يدّعي الفالنتينيون، كأنه مرّ مروراً كما في قناة. وهو (ترتوليانوس) يشدّد على هذا الأمر، دون خوفٍ من الدخول في تفاصيل دقيقة وواقعيّة، ليبرهن عن حقيقة ولادة المسيح في الجسد. وهو يتجرّأ على القول إنّ العذراء فقدت عذريّتها عندما وضعت الطفل يسوع في هذا العالم، مستنداً في ذلك على نصوص الانبياء (جسد المسيح، ٢٣).

فالمسيح، الانسان، في نظره، عَرَفَ الضعف البشري، ما عدا الخطيئة. لقد تعذب من الجوع والعطش، ولقد بكى، وارتعد، وارتجف أمام الموت. ولكن، رغم كونه انساناً، كان، في الوقت ذاته، إلهاً. وحول هذه النقطة لا يكتفي "ترتوليانوس" بترداد ما جاء في التقليد من براهين، بل حاول

توضيح سرّ التجسّد وألوهة المسيح بقوله: الكلمة لم يتغيّر عندما أصبح انساناً من لحم ودم، بل بتجسّده بقي كما كان. إنّه وحسب أخذ انساننا (Suscepit hominem)، وأخذ جسدنا (Assumpsit carnem)، ولبس الجوهر البشري (Substantiam homimis induit). وهذه التعابير تتردّد دائما في كتاباته، ويؤكّد عليها في هذا النص الذي ننقله بحرفيته من كتابه "ضدّ براكسياس"، الفصل السابع والعشرون:

(Igitur Sermo in carne, dum et de hoc quaerendum quomodo Sermo caro sit factus, utrumne quasi transfiguratus in carne an indutus carnem? Immo indutus. Ceterum Deum immutabilem et informabilem credi necesse est, ut aeternum. Transfiguratio autem interemptio est pristini. Omne enim quodcumque transfiguratur in aliud, desinit esse quod fuerat et incipit esse quod non erat. Deus autem neque desinit esse, neque aliud potest esse. Sermo autem Deus).

والمقصود في هذا النص أنه ليس مسموحاً لنا أن نتكلّم عن تحوّل أو عن تبدّل من إله الى انسان. فالله بقي إلهاً، والانسان بقي انساناً. وليس الانسان، في يسوع، هو ابن الله، كما يدّعي بعض المشبّهين الذين يقولون إن الله باستطاعته أن يتّخذ جميع الاشكال بحيث أن المسيح لم يصلب، بل صلب شخص آخر شبيه به. واذا نسبنا الى

المسيح الكلّي الألوهة، فان البنوّة الالهية، نوعاً ما، قد أعطيت للانسان الذي اتخذها. وهـذا يعـني أن يسـوع هـو ابـن اللـه بالاتحاد، وليـس ابـن اللـه بـالتبنّي. فالألوهـة والانسـانية، في المسـيح، يعمـلان بطريقـة مميّزة. وكـل طبيعـة، رغـم اتحـاد الطبيعتين، هي مميّزة عن الأخرى، كأن نقول إن آلام الانسان فيـه قـد اسـندت الى الإلـه، وعظمـة الألوهـة قـد اعطيـت للانسان. وهذا ما يؤكد على أن يسوع المسيح له الطبيعتـان أو الجوهران، في شخصه الواحد. وهذا ايضاً ما نقرأه في هذا النص الذي ننقله حرفياً من كتابه "ضدّ براكسياس"، الفصل السابع والعشرون:

(Sic et Apostolus de utraque ejus (Christi) substantia docet: "Qui factus est, inquit, ex semine David", hic erit homo et filius hominis qui definitus est Filius Dei secundum spiritum. Hic erit Deus et Sermo Dei Filius. Videmus duplicem statum, non confusum sed conjunctum in una persona, Deum et hominem Jesum).

أمّا لماذا تجسّد ابن اللـه، وتعذّب، واحتمل الاهانات، ومات على الصليب؟ فـ "ترتوليانوس" يؤكد على أن كـلّ ذلك فعله من اجل فدائنا وخلاصنا. فلولا موته وقيامتـه لـم يكن بامكاننا أن نخلص. وهذا ما يؤكده في كتابـه "العمـاد"، الفصل الحادي عشر:

(Nec mors nostra dissolvi posset nisi Domini passione, nec vita restitui nisi resurrectione ipsius).

فالمسيح قد حقّق جميع النبوءات في العهـــد القديـــم، ورسالته لـم تأخذ طابع العنف، ولكنه أكّد على كلّ ما جاء في الوحي الالهي: جئت لأكمل لا لأنقض. كذلك المسيح هو العمّانوئيل، نور الأمم، فاتح القلوب والنفوس، وكاهن الآب السماوي. إنه حبر اللـه الأب الحقيقي، والوسـيط بـين اللـه والبشر، وآدم الجديد، والجوهـر الـذي فيـه يجـدّد اللـه كـل شيء.

وباختصار، فان مسيحانية "ترتوليانوس"، أعني دراسته لشخصية المسيح ولسرّي التجسّـد والفـداء، كـانت رائـدة، بحيث أن جميع التعابـير اللاهوتيـة الـتي اسـتعملها لـلردّ علـى الهراطقة قد بقيت في اللاهوت المسيحي مرجعا، خصوصـا في ما يختص بتحديده الطبيعتين، الالهية والانسانية، للمسيح، وفي ما يختص بوحدانية شخصيته رغم الطبيعتين. وهو رائد ايضاً، لأن جميع التعابير التي خلقها اسـتند عليهـا المجمـع النيقـاوي، أعني بعده بنيّفٍ ومائة سنة، لدحـض البدعـة الأريوسـيّة الـتي كانت سبب انعقاد هذا المجمع.

٤
العذراء مريم في لاهوت ترتوليانوس

لقد جاء كلام "ترتوليانوس" عن العذراء مريم من خلال تأكيده على حقيقة طبيعة المسيح الانسانية، معلناً أنه مولودٌ حقاً من ذات ماهيتها (Ex Maria)، ولم يكن له جسدٌ سماويّ كما ادّعى بعض الغنوصيّين. ومن أجل توضيحه ذلك بقوّة، ذهب الى حدّ إنكار بتوليّة العذراء في الولادة وبعد الولادة (In partu et post partum). وبهذا المعنى يقول: "مع انها كانت عذراء عندما حبلت، إلاّ أنها أصبحت امرأة عندما ولدت" (جسد المسيح، ٢٣):

(Virgo quantum a viro: non virgo quantum a partu, et si virgo concepit, in partu suo nupsit).

كذلك يعتبر "ترتوليانوس" أن "إخوة يسوع" هم أولاد مريم في الجسد (جسد المسيح، ٧؛ ضدّ ماركيون، ٤، ١٩؛ الزواج الأحادي، ٨؛ وشاح العذارى، ٦). وهذا القول دفع القديس "ايرونيموس" لرفض هذا الكلام قائلاً: "أمّا عن ترتوليانوس فليس لي ما أقوله، سوى أنه لم يكن رجل كنيسة" (ضدّ هيلفيديوس، ١٧). ولكن يجب القول إنّ التردّد الواضح عند "ترتوليانوس"، وعند المؤلّفين الآبائيين

الأوائل، في التعبير بوضوح عن موضوع بقاء مريم عذراء في الحبل وبعد الولادة، يعود الى عدم إعطاء الهراطقة ذريعة لرفضهم تجسّد المسيح. وذلك أن التأكيد على استمرار بتوليّة العذراء بدا له وكأنه يُعطي سبباً يستند إليه أخصامه ممّن أنكروا على المسيح جسداً بشريًّا حقيقيًّا، وأرادوا أن يكون الحبل به وولادته ظاهريين فقط، مع العلم أن "أوريجانوس" كان قد كتب منذ سنوات طويلة أن: "مريم حبلت وولدت وظلّت عذراء" (العظة عن سفر اللاويين، ٨، ٢). كذلك "ايريناوس" في كتابه "توضيح التعليم الرسولي"، الفصل الرابع والخمسون، الذي كتبه حوالي سنة ١٩٠ مسيحيّة كان قد أعلن مراراً أن العذراء بقيت عذراء حتى بعد الحبل والولادة.

وأمّا بالنسبة الى مريم فيقول "ترتوليانوس" إنّها حوّاء الثانية. وبهذا المعنى يؤكد ما يلي: "كانت حوّاء ما تزال عذراء عندما بلغت أذنها الكلمة المغرية التي رفعت، بعد ذلك، صرح الموت. وعلى ذلك فقد كان من الواجب أن يلج في عذراء "كلمة الله" الذي سيرفع صرح الحياة، بمعنى أن ما هُدِمَ من خلال هذا الجنسٍ، يستطيع الخلاص ان يستعيده من خلال هذا الجنس ايضاً. حوّاء صدّقت الحيّة، ومريم صدّقت الملاك جبرائيل. والمصيبة التي جرّتها الأولى بسبب سرعة تصديقها، محتها الثانية بايمانها. ولربما قال

المعترضون إنَّ حوَّاء لـم تحمل في احشائها من كلمة الشيطان. والحال إن حوّاء حملت فعلاً. فكلمـات الشـيطان تحوّلـت الى نوع من البذار، ولذلـك حملـت في المنفـى وولـدت في الآلام والأوجاع. لقد ولدت شيطاناً قَتل أخاه، علـى عكـس مريـم التي حملت من الذي سيؤمّن، لاحقاً، خلاص اسرائيل" (جسد المسيح، ١٧).

وباختصار، فان تعليم "ترتوليانوس" حـــول بتوليـــة العذراء مريم لـم يكن في الخطّ الكاثوليكي للكنيسة، رغم أنه لـم يشك يوماً في أن العذراء مريم بقيت عذراء بعد الولادة. ولكن انحرافه الى اعتبار العذراء قد فقدت عذريتها فذلك من خلال دفاعه ضدّ الهرطقة عن طبيعـة المسـيح الانسـانية. وفي نظرنـا إنّـه ضحَّـى بعذريـة العـذراء ليخلّـص طبيعـة المســيح الانسانية من رفض الهراطقة لها لأنه اعتبر أن لا تجسّد بطبيعة إلهية وحسب، ولا خلاص بدون تجسّـد في الطبيعـة البشـرية. فمغالاة "ترتوليانوس" في الدفاع عن طبيعة المسـيح الانسـانية أوقعتـه في مغـالاة التسـليم بـأن العـذراء كـان لهـا أولاد بعـد يسوع، وبذلك تكون قد فقدت عذريتها.

٥
الكنيسة في لاهوت ترتوليانوس

"ترتوليانوس" هو أوّل كاتبٍ مسيحي لقّب الكنيسة بـ "الأم". ففي كتابه "الى الشهداء"، الفصل الأوّل، يسمّي الكنيسة السيّدة الأم (Domina Mater Ecclesia)، وذلك ليعبّر عن مكانتها لديه، وعن اهتمامه بها، ومحبّته، واحترامه لها. وفي كتابه عن "الصلاة"، الفصل الثاني، يشرح الصلاة الربّانية للموعظين قائلاً: إن كلمة "أب" التي تبدأ بها هذه الصلاة تحتّم ايضاً دعوة الابن، وبالتالي تفترض وجود أم: "والأم، الكنيسة، ليست منسيّة، بما أن الابن والأب يحملاننا على التفكير بالأم، التي بفضلها إنوجد الأب والابن" (الصلاة، ٢). وفي نهاية كتابه عن "المعمودية" يتوجّه الى الموعظين بهذه الكلمات: "أنتم إذن، أيّها المباركون، أنتم يا من تنتظركم نعمة اللّه، أنتم الذين ستصعدون من جرن العماد المقدس لولادة جديدة، أنتم الذين، للمرّة الاولى، سترفعون أيديكم الى أمّ (Apud Matrem)، ومع إخوة لكم، أطلبوا من الآب، أطلبوا من الربّ، بنعمة خاصة، أن يمنحكم خصب هباته اللدنيّة" (العماد، ٢٠). فمفهوم "الأم" للكنيسة احتفظ به "ترتوليانوس" طوال حياته، وحتى في مرحلة اعتناقه "المونتانيّة". وفي كتابه عن "النفس"، الذي كتبه ما بين سنة ٢١٠ و٢١٢ مسيحيّة، يبيّن كيف أن خلق حوّاء من ضلع

آدم جسّد، مسبقاً، ولادة الكنيسة من خـــاصرة المســـيح المفتوحة: "كما أنَّ آدم كان صورة للمسيح، فـان رقـاد آدم جَسَّـدَ، مسـبقاً، مـوت المسـيح، الـذي سـيرقد رقـاد المـوت، بطريقـةٍ يكـون فيهـا جـرح خاصرتـه مجسِّـداً الكنيسـة، الأم الحقيقيّة للأحياء" (النفس، ٤٣). وحتى في آخر كتابٍ كتبـه وهو عن "الاحتشام"، فانه يدعو الكنيسة الأم (الاحتشام، ٥، ١٤).

كذلك في كتابه "إقصاء الهراطقة"، فانه يدعو الكنيسة إنـاء الايمـان وحارسـة الوحـي. إنهـا وحدهـا وريثـة الحقيقـة والكتابات التي تحتفظ بهذه الحقيقة. إنّها الوحيدة التي تحتفظ بتعاليم الرسل وبوراثتهم الشرعية. وهذا المفهوم الـذي يعـود الى مرحلة ايمانه الكاثوليكي يشبه الى حدٍّ بعيد مفهوم القديس "ايريناوس" في تعاليمه عن الكنيسـة. غـير ان "ترتوليـانوس"، بقدر ما كان يقترب من "المونتانية"، بقدر ذلك كان يعتقد أن المؤمنين هم مجموعـة روحيـة لا غـير: "حيـث يكـون الثلاثـة، الآب والابن والروح القدس، تكون ايضاً الكنيسة الـتي هـي جسم الثلاثة" (العماد، ٦). أمّا مفهومه "المونتاني" للكنيسـة، فلقد ظهر واضحاً في كتابه عـن "الاحتشـام"، حيـث يقـول: "الكنيسة هي بالضبط، وبالأساس الروح نفسه الذي يقيم فيه ثـالوث الألوهـة الواحـدة، الآب والابـن والـروح القـدس. فـالروح ينظّـم هـذه الكنيسـة الـتي صنعهـا الـرب لتكـون في

"ثلاثة". لذلك أصبح، منذ ذلك الوقت، كلّ عـــددٍ (مـــن الاشخاص)، يجمعهم هذا الايمان، مكوِّنٌ لهذه "الكنيسـة"، في نظـر الصـانع والمقـدِّس. صحيـح أن الكنيسـة تغفـر الخطايـا، ولكن كنيسة الـروح، بواسـطة الانسـان الروحـي، وليسـت كنيسة جماعة الاساقفة (الاحتشام، ٢١، ١٧).

هذه هي النظرية الجديدة، في رأي "ترتوليانوس"، التي تحلّ مكان نظريّة التسلسل الرسولي. فالفكرة "المونتانية"، التي تدفـع الكنيسـة المنظّمـة الى مجابهـة الكنيسـة الروحيـة، هـي الفكرة المنطقية التي وصل اليهـا. وكنيسـة الـروحٍ، وكنيسـة الاساقفة، أصبحتـا متنـاقضتين ومتعـارضتين تماماً في نظـره. لذلك نراه يحمل علـى كنيسـة "رومـا" الـتي تتبجّـح بكونهـا سليلة الرسل، ويؤكد على أن الكنيسة الحقيقيّة هـي كنيسـة الروحانيين (Pneumatiques) لأنهـم يعيشـون حسـب الـروح، ويستمدّون منه شريعتهم، بينما كنيسة الاسـاقفة قـد فشلت لأنها تستند الى التسلسل التـاريخي وليـس الى عيـش الـروح كما أراده المسيح.

بالطبع، ورغم المفارقات التي جعلت من "ترتوليانوس" مناهضاً لكنيسة "روما"، يبقى أحـد أهـمّ الكتّـاب المسـيحيين الـذي أعطـى للكنيسـة أسـم "الأم"، وبقـي هـذا التعبـير في اللاهوت المسيحي وفي كلّ المؤلفات الكنسيَّة الـتي أتـت مـن

بعده. له الفضل في هذه التسمية، وهو كان جدّياً ومخلصاً مع ذاته، رغم خروجه على الكثلكة.

٦
الاسرار في لاهوت ترتوليانوس

ليس بامكاننا أن نجد، في مؤلفـــات "ترتوليـــانوس"، دراسة كاملة عن الاسرار، أو أن نجد عنـاصر هـذه الدراسـة بـــالمعنى الحصـــري للكلمـــة، وذلـــك لأن كلمـــة ســـرّ (Sacramentum)، الـتي يستعملها كثيراً، تـأخذ عـــدّة معـان وعـدّة أوجـه. فحينـاً يستعملها مرادفـة للقَسَـم العسـكري، وحيناً آخـر يستعملها للتكريـس. كذلـك يستعملها عندمـا يتكلم عن قانون الايمان، أو عن الحياة المكرّسة. وفي مواضـع اخرى يستعملها ليعني بها الطقـوس الكنسـيّة، أو الرّمـز بحـدّ ذاته. من هنا أخذت الكلمة معنى العلامة السرّية، أو الوسـم السرّي، في كتبه عن "العماد"، و"الافخارستيا"، و"الـزواج"، و"النفس البشريّة"، ولكن ليس بالمعنى الحصري كمـا ذكرنـا سابقاً، بل بالمعنى الشامل والعام. كذلك نـرى "ترتوليـانوس" يُبرز، بطريقة رائعة، التأثير الروحي على النفس البشـريّة مـن جـرّاء الوسـم الخـارجي المحسـوس. فـالنفس والجسـد همـا متّحدين كلياً، في نظره، وليس لواحد أن يعيش دون الآخر، لأنه بواسطة الجسد تتقدّس النفس ذاتها. والعنصر المـادي في السرّ هو على أهميّة كبرى بحيث أنه يعتبر أن ماء العماد هـو كافٍ لاعطاء النعمة، بقطع النظر عن الكلمات التي تتلى إبّان العماد نفسه، لأن الماء المكرّس من الكاهن يُعطي هذه النعمـة

من مجرّد استحمام طالب العماد فيها، وذلك لأن هذه المـــاء تكون قد حصلت على تقديس خاص لمحو الخطايا ساعة يُدعى الثالوث الأقدس عليها، فتغيّر الانسان القديم وتجعلــه انسـاناً جديـداً. ورغـم توقّـف بعـض اللاهوتيـين عنـد هـذا المفهـوم الترتوليـاني، وانتقـاده غـالب الأحيـان، يبقـى "ترتوليـانوس" مرجعاً في كلامه على الاسرار، وهــذا مـا سـنراه في دراسـتنا لكلّ سرٍّ منفرداً.

أـ العماد والتثبيت

السرّ الذي بواسطته يدخل الانسان في كنيسة المســيح هو سرّ العماد المقدّس. فعلى مثال يســوع المسـيح، السـمكة الالهية، نولد نحن في الماء، وليـس بامكاننـا أن نخلـص إلاّ إذا بقينا في هذه الماء (العماد، ١). والعمـاد بالمـاء هـو ضـروريٌّ للخلاص، ولا يعوّض عنه إلاّ العماد بالدم الذي يعيد الـبراءة الاولى للمعمّدين الذين خسروها بخطاياهم (العماد، ١٦). أمّا عمـاد الأطفـال، الـذي تقـرّه الكنيسـة إنطلاقـاً مـن قناعتهـا بالخطيئة الأصلية التي تُمحى به، فـ"ترتوليانوس" لا يقرّه لأنــه يعتبر أنـه ليـس ضرورياً لأنهـم ليسـوا خطـأة، ويجب أن لا يتحمّل العرّابون المسؤولية باكراً، خصوصاً إذا لـم تكن تربية هـؤلاء الأطفـال تربيـة صالحـة فيندفعـوا الى فعــل الخطيئــة، والعرابون ليس بامكانهم ردعهم. لذلك يفضل الانتظار ريثما

يكبر هؤلاء الاطفال، فيقدّرون قيمة سرّ العماد ويلتزمون به، أو بالاحرى يكونـون قـد تجـاوزوا عمـر الشـهوات الصعـب فيثبتون في التزامهم وفي حياتهم الطاهرة (العماد، ١٨).

كذلك يجب أن لا يُعطى العماد إلاّ مرّة واحدة فقط. من هنا قيمته لأن عماد الهراطقة ليـس العمـاد الحقيقـي لأنـه غريب عن شراكة الكنيسة، والهراطقة أنفسهم هم بدون إله، وبدون المسيح في العالـم. لذلك يجب إعادة العماد بعد عماد الهراطقـة لأنهـم في الهرطقـة ولا قيمـة لعمـادهم (الاحتشـام، ١٩). ومانح سرّ العماد هو الاسقف نفســه، وفي حـال عـدم وجوده، فيمكن للكهنة وللشماسة أن يمنحـوه، ولكـن بـاذن خاص منه (من الاسقف). وعند الضرورة فبإمكان العلمانيين منحه ايضاً. أمّا النساء فلا يحـقّ لهـنَّ اعطـاؤه لأنـه ليـس مـن حَقِّهنَّ (العماد، ١٧). واليوم الذي يفضّل فيـه "ترتوليـانوس" منح سرّ العماد هو يوم عيد الفصح المجيد، والايام التي تتبعــه لغاية عيد العنصرة (العماد، ١٩). أمّا الايام الباقية من السـنة فبالامكان إعطاؤه، شرط أن لا تكون الاحتفالات به كما في ايام الفصح المجيد والعنصرة.

كذلك أيضاً تجب التهيئة للعماد بالتوبـــة والصـــلاة والصـوم والركـوع والتضـرّع والسـهر الطويـل والتـأمل والاعتراف بجميع الخطايا (العماد، ٢٠). والتوبـة هـي مهمّـةٌ

وضروريّةٌ جداً بالنسبة الى "ترتوليانوس"، لأنه بدونها يكون العماد غير كامل، كما يقول في كتابه "التوبة"، الفصل السادس:

(Lavacrum illud obsignatio est fidei, quae fides a paenitentiae fide incipitur et commendatur. Non ideo abluimur ut delinquere desinamus, sed quia desiimus, quoniam jam corde loti sumus. Haec enim prima audientis intinctio est, metus integer).

واذا ما أخذنا هذه الكلمات بحرفيتها نرى أن التوبة هي السبب الأساسي لمغفرة الخطايا، بالنسبة الى الانسان العاقل، بينما ليست ضرورية بالنسبة الى الأطفال. ورغم أن "ترتوليانوس" نفسه يعترف بأن عدم التهيئة بالعمق لا تبطل العماد وتطهير النفس، لكنه يعتبر أن ذلك لا يُعطي ضمانة للمستقبل. وعدم وضوحه في هذا الأمر يعود الى كونه يستعمل لغةً إقناعية وأدبيّة أكثر من استعماله لغة قانونية واضحة.

أمّا بالنسبة الى ليتورجية العماد فهي تفرض على الطالب الكفر بالشيطان علناً، وبكل ملائكته وبهرجاته العالمية، وإعلان الايمان بالثالوث الأقدس من خلال ثلاث غطسات في الماء. وبعد ذلك يتذوّق الطالب مزيجا من الحليب والعسل كمأدبةٍ مقدّسة (الاكليل، ٣). ثم يُدهن بالزيت

المقدس (العماد، ٧)، الذي يُذكِّر بمسحة الشريعة القديمة، وباسم المسيح. وهذه المسحة هي احتفال تكميلي للعماد، وتعني أن المعمّد أصبح مسيحاً آخر. وبعد المسحة يُعطى سرّ التثبيت، الذي يمنح الروح القدس، بواسطة وضع اليدين على رأس المعمّد، الذي حلّ فيه هذا الروح. وهذا ما يؤكّده "ترتوليانوس" في الفصل الثامن من كتاب "العماد":

(Deinde manus imponitur, per benedictionem advocans et invitans Spiritum Sanctum)

ووضع اليد تتبعه إشارة الصليب على جبهة المعمّد (قيامة الجسد، ٨). ويشرح "ترتوليانوس" ذلك قائلاً: كما أن حركة الأصابع تجعل الهواء يدخل الى اسطوانات الأرغن، كذلك يد الأسقف، المملوءة من الروح القدس، تملأ الانسان المعمّد الذي أصبح أرغناً حيًّا بواسطة نعمة المسيح (العماد، ٨).

وهكذا يجعل العماد، مع التثبيت، المعمّد مسيحاً آخر، ويكون قد دخل فعلاً في كنيسة المسيح التي هي امتدادٌ لتجسّده الخلاصي ولفدائه. فالنعمة التي ينالها هي نعمة الخلاص الأبدي الذي أتى المسيح من أجله ليعيد الانسان الى فردوس البراءة الاولى، والى المشاهدة الكاملة لله تعالى.

ب ـ سرّ الافخارستيا

التهيئة المسيحية وقبول سرَّيْ العماد والتثبيت غايتهم النهائية قبول سرّ الافخارستيا الذي يعطيه "ترتوليانوس" تسميات عدّة: الافخارستيا (Eucharistia)، "سرّ الافخارستيا" (Eucharistiae Sacramentum)، و"احتفال يوم الأحد" (Domenica Solemnia)، و "طعام الأحد" (Convivium Dominicum)، و "طعام الله" (Convivium Dei)، و "عشاء الله" (Coena Dei)، و "سرّ الخبز والكأس" (Panis et calicis Sacramentum). فما هو تعليمه حول هذا السرّ؟

في كلامه عن الاسرار الثلاثة: سرّ العماد، وسرّ التثبيت، وسرّ الافخارستيا، يعلن ما يلي: "الجسد، إذن، يُغْسَل لكي تطهر النفس، والجسد يُمسَح لكي تتقدّس النفس، والجسد يُوْسَم لكي تتقوّى النفس، والجسد يتلقّى وضع اليدين لكي ينير الروح النفس، والجسد يُغَذَّى بجسد المسيح ودمه لكي تتغذّى النفس بالله" (قيامة الجسد، ٨). فالايمان بالوجود الفعلي الظاهر، في هذا المقطع، يبرهن عن مدى احترام وتقديس "ترتوليانوس" لسرّ الافخارستيا ويجعله يغضب ويحزن ويثور عندما يرى الأيادي المدنّسة بالأصنام تحمل جسد الربّ وتتناوله: " لا يمكن إلاّ للمسيحي أن يضع يده على جسد الربّ، لأن بعض الأيادي أعطت للشيطان

جسدها. يا للعارّ! فاليهود لمسوا مرّةً واحدة جسد المسيح، وهؤلاء يمزّقون جسده كلّ يوم! تلك الأيادي، من الأفضل لها أن تُقطع... فأيّ أيادٍ تستأهل القطع أكثر من تلك التي تهين جسد الربّ" (الأصنام، ٧). أمّا التائب العائد الى الله فيأكل أفضل الأطعمة في بيت أبيه السماوي، مؤكّداً ذلك في كتابه "الاحتشام"، الفصل التاسع:

(Alque ita exinde opimitate dominici corporis vescitur).

كما يؤكد "ترتوليانوس" أيضاً على طابع الذبيحة في الافخارستيا، ناصحاً الذين يتردّدون في تقبّلها خلال فترة الصوم، خوفاً من قطع صيامهم هذا، أن يتقدّموا من المذبح ويشاركوا في الذبيحة، وليحملوا، من ثمَّ، الى بيوتهم، الخبز والخمر ليتناولوهما عند انتهاء مدّة صيامهم: "كثيرون يعتقدون أنه من غير الجائز أن يحضروا الصلوات الذبائحيّة (Orationes sacrificiorum) خلال أيام الصوم بحجّة أن صومهم ربّما قطعه تقبّل جسد الربّ. فهل إن الافخارستيا تشوّه تكريماً موجّهاً الى الله؟ أليس العكس صحيحاً وهو أن الافخارستيا تقرّب الانسان من الله؟ ألا يكون صيامكم أكثر تمجيداً إذا تقدّمتم من مذبح الله؟ فاذا ما تقبّلتم جسد الربّ، واحتفظتم به، فانتم تؤمّنون لأنفسكم الفائدتين: المشاركة في الذبيحة (Participatio Sacrificii)، وإتمام واجبكم" (الصلاة، ١٩).

هذا النصّ يذكّرنا بتحفّظ كنيسة القرون الأولى للمسيحيّة حول تناول جسد الربّ، وحول إقامة الذبيحة الالهية باستمرار. ولكنَّ "ترتوليانوس" يؤكد على إمكانية أخذ القربان المقدّس الى البيت لتناوله قبل الطعام، كما جاء في وصيته لأمرأته في كتابه "الى الزوجة"، ٢، ٥، حيث ينصحها بالصلاة مع المؤمنين وتناول الأجزاء المقدسة قبل البدء بتناول أي نوع من الطعام. وهو أيضاً يؤكد على أن الكلام الجوهري يجعل من الخبز جسد المسيح الفعلي: "الخبز الذي أخذه المسيح وأعطاه الى تلاميذه جعل منه جسده بقوله (Dicendo) "هذا هو جسدي" (ضدّ ماركيون، ٤، ٤٠). لكنه يضيف في الحال: "هذه هي صورة جسدي" (Id est figura corporis mei)، الأمر الذي أثار جدلاً كبيراً، والتباساً وغموضاً. ولكن، في الواقع، ماذا يعني "ترتوليانوس" بكلمة صورة، أو شكل (Figura)؟

يريد "ترتوليانوس" هنا أن يبرهن، ضدّ "ماركيون"، عن حقيقة جسد المسيح. فبما أن الخبز هو صورة الجسد، فيجب أن يكون المسيح قد كان له جسداً فعلاً. وفي العشاء السرّي جعل من الخبز جسده إذ قال: "هذا هو جسدي". أمّا في صلاة الأحد، فيؤكد على ثلاثة أنواع من الخبز التي نطلبها من الله. ولقد جاء في الفصل السادس من كتابه عن "الصلاة" ما يلي:

(Quanquam "panem nostrum quotidianum da nobis hodie", spiritaliter potius intellegamus. Christus enim panis noster est, quia vita Christus et vitae panis. "Ego sum, inquit, panis vitae"; et paula supra: "Panis est sermo Dei vivi, qui descendit de caelis". Tunc quod et corpus ejus in pane censetur: "Hoc est corpus meum". Itaque petendo panem quotidianum, perpetuitatem postulamus in Christo et individuitatem a corpore ejus).

نستنتج، اذن، من هذا النصّ، أن هناك ثلاثة أنواع من الخبز التي نطلبها من الله: الخبز المادي الذي يغذّي الجسد، وخبز كلمة الله، وخبز جسد المسيح، لأن جسد المسيح هو نوعٌ من الخبز بمقتضى كلمات العشاء السرّي. ورغم أن الاشارات غير واضحة كلياً الى سرّ الافخارستيا كما يدّعي بعض اللاهوتيين، فان ذلك يعود الى عدم اهتمامٍ "ترتوليانوس" بالوجود الفعلي، لأنه يعتبر ذلك أمراً حتمياً ويجب أن لا يخضع للمناقشة وللتفسيرات. ولكن، في مواضع أخرى، نراه شاهداً على ايمان الكنيسة في هذا الأمر، ويشرح لنا، بكل بساطة، تصرّف المؤمنين تجاه سرّ الافخارستيا.

يبقى أنّ "ترتوليانوس"، في مواجهته مع الغنوصيين، يشدّد على هذا السرّ لأنه كان يخاف من نكرانهم لتجسّد

المسيح الفعلي، الأمر الذي دعاه الى الكلام، بكل تفصيل، عن وجود الأقنوم الثاني، حقيقةً، في الخبز والخمر، مستعملاً جميع المفردات التي تؤكد على ذلك.

ج - سرّ التوبة

تعليم "ترتوليانوس" حول سرّ التوبة يقسم الى قسمين: القسم الأول يستند الى كتابه "التوبة"، ويعود الى المرحلة التي كان فيها كاثوليكيًّا مدافعاً عن عقيدة الكنيسة الرسولية وعن تقليدها، والثاني يستند الى كتابه "الاحتشام"، ويعود الى المرحلة التي كان فيها على قطيعة كليّة مع الكنيسة الكاثوليكيّة. وسنعرض هنا تعليمه حول سرّ التوبة في الكتابين لنرى الفارق الذي نتج عن تلك القطيعة.

١ـ كتاب "التوبة":

في هذا الكتاب يميّز "ترتوليانوس" نوعين من التوبة: توبة قبل العماد، وتوبة بعد العماد. فالتوبة الاولى غايتها تطهير الموعوظ وتثبيته في مقاصده لكي يعيش بنعمة السرّ الذي سيناله، والثانية غايتها العودة الى حضن الكنيسة بعد أن يكون قد كفّر كلياً اذا ما اخطأ بعد العماد. ولكن، في نظر "ترتوليانوس"، فان التوبة الاولى يجب أن تكون التوبة

الوحيدة لأن الخاطىء يجب أن لا يخطأ أبداً بعد أن نال نعمة السرّ، أو بالأحرى يجب أن لا يقع في خطايا كبيرة. إنّما الواقع، غالب الاحيان، هو غير الحقيقة، لذلك يقع المعمّدون في الخطيئة التي لا تكفي التقادم اليومية والصلوات العادية لمحوها. فلهؤلاء الخطأة حفظ الله خشبة خلاص: "عندما يقفل باب الغفران، وعندما تُغلق مزالج العماد، يفتح الله باباً آخر. لقد وضع في حضن الكنيسة توبة ثانية تكون لأولئك الذين يقرعون باب الخلاص". هذه التوبة التي لا يناها الانسان إلاّ مرّة واحدة وبعدها لا يكون الغفران وارداً، لا تحصل في قلب الخاطىء أو في بيته بسهولة، بل هناك سلسلة من الافعال الخارجية التي تبرهن على أنها (هذه التوبة) حاصلة، وذلك بالـ "إيكزومولوجيز"، أي بالاعتراف العلني أمام الجمهور وبقبول العقوبة المفروضة عليه. وبهذا المعنى يقول في الفصل التاسع من كتابه "التوبة":

(Exomologesis... qua delictum Domino nostrum confitemur, non quidem ut ignaro, sed quatenus satisfactio confessione disponitur, confessione paenitentia nascitur, paenitentia Deus mitigatur. Itaque exomologesis prosternendi et humilificandi hominis disciplina est, conversationem injungens misericordiae illicem).

نستنتج من هذا النصّ أن الـــ"إكزومولوجـــيز"، أي الاعتراف العلني أمام الجمهور بالخطايا والقبـــول بالعقوبـــة المفروضـــة هـــو أمـــرٌ صعـــبُ الاحتمـــال ومـــذلّ. ولكـــنّ "ترتوليانوس" لا يشرح لمن يجب الاعتراف وبأيّ طريقة يجب ان يحصـل. لذلك هنـاك عـدّة احتمـالات: فإمّـا أن يكـون الاعتراف للـه وحده، واللـه ليس بحاجة لاعترافنا لأنه يعرف خطايانا، وهذا لا يطبّق على الاعتراف العلني، وإمّا أن يكون أمام الجمهور، و"ترتوليانوس" لا يشرح هذا الأمـر، وإمّـا أن يكون أمام الأسقف، الذي له حقّ الحلّ والربط وهـو وحـده قادرٌ على تحديد مدّة التفكير، وهـذا هـو المحتمـل. وأمّـا عـن التكفير بعد الاعتراف، فانـه يكـون أمـام جميـع الأخـوة علـى الشكل التالي: فالتائب ينام على الرمـاد، لابسـاً ثيابـاً ممزّقـة، وبدون استحمام، ولا يأكل إلاّ الخبز والماء، ويصوم، ويتـأوّه ليلاً ونهاراً أمام الربّ. ثم يوضع أمام بـاب الكنيسـة خـلال الاحتفالات والصلوات، راكعاً أمام الكهنة والأرامل، وامـام جميع أصدقاء اللـه، طالباً من الأخوة أن يتوسّلوا للـه ويصلّوا عنـه ليهـدأ غضـب اللـه ويبعـد عنـه نـار جهنـم. وصلـوات الأخوة ودموعهم هم كدموع المسـيح وصلواتـه، تحمـل إليـه الغفران الالهي.

أمّا عن الغفران فيُعلن أمام الجميع، وبعد مدّةٍ يدخـــل التائب الى الكنيسة ويشارك في الليتورجيا مع المؤمنين. وهذا

الغفران يقرّره الأسقف الذي يفتح أبواب الكنيسة بنفسه للتائب من بعد أن يكون قد أغلقها يوم أخطأ. وهكذا، فالتوبة تعيد للتائب جميع حقوقه التي فقدها يوم أخطأ، كما العماد الذي أعطاه جميع هذه الحقوق عندما كفر بالعالم وقرّر أن يكون من أبناء الله.

هذه التفاصيل في كتاب "التوبة" لـ"ترتوليانوس" تضع أمامنا صورة واضحة عن كنيسة "قرطاجة" سنة ٢٠٠ مسيحيّة، وعن الطريقة التي كانت تقوم بها في تصرّفها مع الخاطىء والتائب. وإننا نستنتج من كتابه أن جميع الخطايا تُغفر، وليس هناك من خطايا لا مغفرة لها. ولقد أكّد على أن الكنيسة لها سلطان الحلّ والربط، ولها السلطان أيضاً لادخال الخاطىء التائب، من جديد، الى حضنها، بعد الـ"إكزومولوجيز"، اي الاعتراف العلني والتكفير. الأمر الوحيد الذي يرفضه "ترتوليانوس" بوضوحٍ هو وضع الهراطقة الذين لا مغفرة لهم من الكنيسة، تاركاً أمرهم لله وحده الذي يعرف النوايا، حتى وإن كانوا على فراش الموت.

٢ـ كتاب "الاحتشام":

أمّا في كتاب "الاحتشام"، الذي يُعتبر آخر كتابٍ كتبه "ترتوليانوس"، فنظرته الى سرّ التوبة قد تغيّرت، وخصوصاً

الى مغفرة الخطايا، لأنه كان قد انفصل نهائياً عن الكنيسة الكاثوليكية. والدافع الى كتابته هو أن أحد الاساقفة الذي يُدعى "أغريبينوس" (Agrippinus)، والذي يسخر منه "ترتوليانوس" باعطائه الالقاب التالية: الحبر الأعظم (Pontifex Maximus)، وأسقف الأساقفة (Episcopus Episcoporum)، والبابا المبارك (Benedictus Papa)، كان قد أعلن أن خطايا الزنى والفسق بامكانها أن تُغفر، الأمر الذي اعتبره "ترتوليانوس" جريمة كبرى بحقّ الله والكنيسة.

هذا الموقف المتشدّد لـ"ترتوليانوس" في كتاب "الاحتشام"، لم يكن كذلك في كتاب "التوبة". ففي كتاب "التوبة" لا يعتبر أن هناك خطايا لا تُغفر. وفي كتابه "ضدّ ماركيون" يُعدّد الخطايا السبع الجسيمة دون أن يَذكر أن هذه الخطايا لا مغفرة لها: "... عبادة الاصنام، التجديف، القتل، الزنى، الفسق، شهادة الزور، السرقة":

(Septem maculis capitalium delictorum... idololatria, blasphemia, homicidio, adulterio, stupro, falso testimonio, fraude).

لكن في كتاب "الاحتشام" فهو، على العكس، يؤكد على ان هناك ثلاث خطايا لا مغفرة لها، وهي: عبادة

الاصنام، والفسق، والقتل. ولا يكفي أنه يؤكد على ذلك، بل يستقتل ليبرهن على أن الكتاب المقدس قد اعلن ذلك.

"ترتوليانوس"، في هذا الموقف، يستند الى التعليم "المونتاني" الذي هو أشدّ قساوة من التعليم الكاثوليكي في هذا الأمر. وهو يهاجم الكاثوليك الذين يسمّيهم بـ "النفسانيين"، والذين سمحوا بمغفرة الخطايا الثلاث الجسيمة. لذلك نرى الفرق شاسعاً بين ما كتبه في كتاب "التوبة" وبين ما كتبه في كتاب "الاحتشام"، حتى اننا نعتقد، من خلال كلامه، أن كنيسة "قرطاجة"، التي تشدّدت الى مدّة طويلة بالنسبة الى بعض الخطايا، قد عادت، مع الأسقف "أغريبيّنوس"، الى التسامح كما في السابق. وكما موقف "ترتوليانوس"، كذلك موقف القديس "هيبّوليتوس الروماني" الذي كان أيضاً متشدّداً في وجه البابا "كالّيستوس" الذي تسامح بالنسبة الى الخطايا المذكورة أعلاه. كذلك القديس "قبريانوس القرطاجي" كان متشدّداً هو أيضاً بالنسبة الى هذه الخطايا (Lapsi) ويعتبر انه ليس بالسهولة إعطاء الحلّ النهائي لهذه الخطايا.

أمّا بالنسبة الى غافر الخطايا، فهو الأسقف نفسه لأنّه يمثّل الكنيسة الجامعة. والكنيسة الجامعة، في نظر "ترتوليانوس"، هي الثالوث الأقدس، الآب والابن والروح

القدس، أعني كنيسة الروح وليس كنيسة الاساقفة. وبهـــذا المعنى يقـــول في الفصـــل الحـــادي والعشـــرين مـــن كتـــاب "الاحتشام"، مشدّداً على أن الانسان الروحاني هو المقصود:

(Ipsa Ecclesia propria et principaliter est Spiritus... Et ideo Ecclesia quidem delicta donabit, sed Ecclesia Spiritus, per spiritalem hominem, non Ecclesia numerus episcoporum).

ثمّ يتوجّه الى الأسقف "أغريبّينوس" قائلاً: "إنك تدّعي أن سلطان الحلّ والربط قد أُعطي لـك أيضـاً، أعـني الى كـلّ كنيسة قريبة من بطرس:

(Ad te... id est ad omnem ecclesiam Petri propinqnam)

فكيف بامكانك ان تستنتج ذلك وتغيّر نيّة الربّ الذي أعطى، شـخصيّاً، هـذا السـلطان الى بطـرس"؟ (الاحتشـام، ٢١).

هنا يرى "ترتوليانوس"، وقد أراد أن يؤكّد على سلطة الأسقف، أن سلطان الحلّ لا يكون إلاّ للخطايا الخفيفة، كما جاء في الفصل الثامن والعشرين من كتاب "الاحتشام":

(Levioribus delictis veniam ab episcopo consequi poterit)

ولكن هذه الخطايا الخفيفة التي يعنيها هنـــا ليســـت الخطايا العرضية بمفهومنا اليوم، بل الخطايا الجســـيمة غـــير

الخطايا الثلاث: عبادة الاصنام، والفسق، والقتل، التي يترك حلّها لعدل الله. ففي الكنيسة يعود الحكم فيها الى السقف، ويؤكد ذلك "ترتوليانوس" على مضض، حتى ولو كان ذلك يعارض مذهبه الايماني والفكري اللاهوتي.

ثم يطرح "ترتوليانوس" السؤال التالي: خارج عن الاسقف، هل هناك أشخاص، في الكنيسة، لهم سلطان مغفرة الخطايا؟ بالطبع نعم، وهؤلاء هم الشهداء الذي يعترف بسلطانهم الأسقف "أغريبينوس" نفسه، إذ يقول: "إنك (متوجهاً الى أغريبينوس) تعطي هذا السلطان الى الشهداء. فحين يُسلّم أحدهم الى السجّان اللطفاء، حاملاً سلاسله الخفيفة، يهرع إليه الزناة والفاسقون بدموعٍ غزيرة، بصلاةٍ مكفّرة، طالبين أن يفتح لهم باب الكنيسة التي أُبعدوا عنها، فينالون رحمة من الذي سيصبح شهيداً ويتوسّل الى الله ليغفر خطايا الخطأة. فالشهيد يكفّر عن الخطايا، كما المسيح بموته كفّر عن خطايا الآخرين" (الاحتشام، ٢٢).

يقول بعض المؤرخين إن هذا النص مبالغٌ فيه. ولكن، في نظرنا، مهما كانت المبالغة، فـ"ترتوليانوس" لم يخترع هذه الأمور، بل نجد فيها قسماً وافياً من الحقيقة. فالمؤمنون القرطاجيون كانوا يعرفون مدى فاعليّة الصلاة، وبالتالي تأثير الاستشهاد على تثبيت النفوس في الايمان. لذلك كانوا

يتوجّهون الى الشهداء، قبل استشهادهم، للتوسّل الى اللـــه من أجلهم. ولقد أعاد الأسقف "أغريبّينوس" هذه العادة التي كانت متّبعة منذ القديـم. وفي منتصـف القـرن الثـالث، إبّـان اضطهاد الامبراطور "داسيوس" للمسيحيّين، كـان المعـترفون (Les confesseurs) في "قرطاجـة" يتوجّهـون الى القديـس "قبريـانوس" والى الكهنـة برسـائل توصيـة لصـالح الهراطقـة التائبين، طابعها عنيف وإلزامي، الأمـر الـذي جعـل القديـس يُعلن لهم أن الحقّ يعود إليـه وحـده، بصفتـه أسـقف المدينـة، لأخـذ القـرار بعـودة هـؤلاء الهراطقـة التـائبين الى شـراكة الكنيسة. وحسـب التقليـد، فمنـذ زمـن "ترتوليـانوس" كـان الشـهداء يرسـلون الى الأسـقف رسـائل الشـراكة الكنسـيّة ويطالبون فيها بالاعتراف بعودة الهراطقة التائبين الى حضنها. وفي الواقـع، فـإن "ترتوليـانوس" نفسـه قـد هـاجم الأسـقف "أغريبيّنوس" عندما اعترف بهذه الرسـائل الـتي تعلـن عـودة الهراطقة الى شراكة الكنيسة من خلال توسّل الشهداء عنهـم الى اللـه. غير أن التـاريخ لـم يُنبئنـا، لغايـة الآن، بـأن الحلّـة السرّية الـتي كـان يعطيهـا الشـهداء للهراطقـة التـائبين كـان معـترف بهـا في الكنيسـة، دون الخضـوع لسـلطة الاسـقف نفسه.

وباختصار، فان موقف "ترتوليانوس"، بالنسبة الى سرّ التوبة، قد تغيّر في الكتاب الثاني، أعني كتـاب "الاحتشـام"،

لأنه كان قد أصبح على قطيعة كاملة مع الكثلكة. وبهـــذا المعنى يقول، رافضاً أن تكون سلطة الحلّ والربـط عـائدة إلاّ للقديس بطرس وحده: "اذا كنتم، من خلال مـا قالـه الـربّ لبطرس: "على هذه الصخرة أبني كنيستي" (متى، ١٦، ١٨)، أو "كل ما تربطه أو تحلّه على الأرض يكون مربوطاً أو محلولاً في السموات" (متى، ١٦، ١٩)، تستنتجون أن سلطة الربـط والحلّ انتقلت إليكم، أي الى الكنيسة المرتبطة ببطـرس، فـأيّ نوع من الرجال أنتم؟ إنكم تقبلون بل تغيّرون النيّة الواضحة التي نواها الرب مانح هذه النعمة لبطرس، بحسب النية ذاتها وبصورة شخصية، إذ قال: "عليك أنت أبني كنيستي"، وقال أيضاً: "إليك انـت سـأعطي المفـاتيح"، وليـس "للكنيسـة" أو "لكل ما ستربطه أو ستحلّه"... ولذلـك فـان سـلطان الربـط والحلّ المعطى لبطرس لـــم يكـن يتعلّـق باخطايـا المميتـة الـتي يرتكبها المؤمنون... بل يعود ذلك، بالتوافق مـع بطـرس، الى الرجال الروحانيين، أي إلى رسولٍ أو نبيّ" (الاحتشام، ٢١).

٧
الثواب والعقاب في لاهوت ترتوليانوس

يقول "ترتوليانوس"، في كتابه "جسد المسيح"، الفصل الثاني عشر، رداً على "الفالنتينيّين"، إن النفس البشرية هي الانسان كلّه، وعند الموت تغادر هذه النفس الجسد ولا يبقى إلاّ جثة هامدة. ويطرح السؤال التالي: ما هو، إذن، مصير هذه النفس بعد ذلك؟ ويجيب قائلاً: إن نفوس الشهداء، وحدها، تدخل الجنّة، لأن مفتاح هذه الجنّة (الفردوس) هو الدماء (النفس ٥٥؛ ضد ماركيون ١٢؛ الدفاعي ٤٧). ويزيد قائلاً: إن القديس يوحنا في رؤياه لم يرَ تحت المذبح إلاّ نفوس الشهداء. كذلك القديسة الشهيدة "بربيتوا" أُعطيت موهبة رؤية الغيب ولم ترَ في الفردوس إلاّ نفوس رفاقها الذين تعذّبوا وماتوا شهداء. لذلك، فان الذين يرغبون في أن تُفتح أبواب السماء لهم بسرعة عليهم أن يستشهدوا في سبيل الله. أمّا الباقون فعليهم الانتظار لكي يجلس المسيح عن يمين أبيه السماوي ويصوّت الملاك بالبوق، منذراً بالقيامة العظمى.

سؤال آخر يطرحه "ترتوليانوس" قائلاً: ولكن ما هو مصير النفوس الباقية بانتظار القيامة العظمى؟ ويجيب: ستكون في الجحيم، أعني مكان تجمّع النفوس السرّي حيث انتظر

المسيح طوال الوقت الذي فصل موته عن قيامته. وفي هـــذا الجحيـم أمكنـة عـدّة: حضـن "ابراهيـم" المخصّـص للنفـوس الصالحة، ومكان آخر حيث تكون النفوس التي تركت العالـم دون أن تكفّر نهائياً عن خطاياها. هذا المكان هو، في تعليمنـا المطهر، ولكن "ترتوليـانوس" لـم يذكـر مـرّة واحـدة كلمـة "مطهر". لذلك نراه يؤكد على عـذابٍ تكفيري تتعرّض لـه النفس بعد الموت، وبهذا المعنى يقول: "لهـذا السـبب نفسـه، من العدل أن تكابد النفس، قبل الجسد، عقوبةً لقاءَ الأعمال التي ارتكبتها دون تواطؤ الجسد. وانطلاقاً مـن المبـدأ نفسـه، من العدل أيضاً أن تكافأ وتُعطى عزاؤها خارج الجسـد على الأفكار الصالحة والجيّـدة الـتي نفّذتهـا دون معاونـة الجسـد. بالاضافة الى ذلك كلّه كـان يتوجّـب علـى النفـس أن تحـدّد الأفكـار الـتي تحقّقـت بالجسـد وتنظّمهـا وترتّبهـا وتحوّلهـا الى أعمال. واذا كانت، من وقـتٍ لآخـر، لا توافـق علـى تنفيـذ هذه الاعمال، إلاّ أنّها تظلّ الاولى في تفحّص الموضوع الذي تنوي تنفيذه بمعاونة الجسد. ولا يمكن، في حال من الاحوال، أن يسبق عملٌ ما تَحْديدَهُ من قِبَل الفكر. وبديهـيٌّ، إذن، أن يكون هذا الجزء من طبيعتنا هو أوّل من يقبل المكافأة العائدة إليـه قبـل سـواه. وبكلمـة، فبقـدر مـا نفهـم كلمـة "سـجن" (Prison) المذكورة في الانجيل (متّى، ٥، ٢٥) على أنهـا تعـني الجحيم، ونفهم عبارة "الفلس الأخـير" (Le dernier centime) على أنها تعني أن أقلّ إهانة يجب أن تلقى عقابها قبل القيامة،

بقدر ذلك لن نتردّد في التفكير بأن النفس تكابد في جهنم تأديباً تكفيرياً، دون أيّ مَسّ بعمل القيامة ككلّ، عندما ستمنح المكافأة بواسطة الجسد الذي كانت فيه" (النفس، ٥٨).

هذا النص يؤكد إذن على ان الشهداء وحدهم لا يتعرّضون للألم والانتظار: "ما من إنسان، عند تركه الجسد، ينال في الحال لقب الساكن بقرب الرَّبّ، إلاّ من أحرز بالاستشهاد منزلاً في السماء، وليس في المناطق السفلى" (قيامة الجسد، ٤٣). بينما يبقى الآخرون في الجحيم (Apud inferos) الى الدينونة النهائية في اليوم الأخير. ومع ذلك، فإن توسّط الأحياء وصلاتهم يمكن أن يُعطيهم الراحة والعزاء. وفي كلامه على المرأة التي تصلّي من أجل راحة نفس زوجها الذي توفّاه الله، يقول "ترتوليانوس": "من المؤكد أنها تصلّي من أجل راحة نفسه، وهي تطلب له أن يلقى، خلال هذه الفترة الانتقالية، الراحة (Refrigerium)، وأن يشارك في القيامة الأولى. وهي تقدّم الذبيحة، كلّ سنة، في ذكرى رقاده العابر" (الزواج الأحادي، ١٠).

كذلك يشارك "ترتوليانوس" أصحاب النظريّة الألفيّة القائلة إنّ الأخيار سيقومون من الموت، في نهاية العالم، كي يملكوا ألف سنة مع المسيح في مدينة أورشليم التي ستهبط من

السماء: "نحن نعترف بأنّنا وُعِدْنا بمملكة على الأرض، قبل أن نصعد الى السماء، ولكن في وجودٍ مختلف. وهذه المملكة ستدوم ألف سنة بعد القيامة في مدينة أورشليم التي سيبنيها الله... نقول إن هذه المدينة أُعْطِيَتْ من قبل الله كي تستقبل القديسين عند قيامتهم وتعوّض عليهم بالخيرات الروحية التي خسروها أو احتقروها في هذا العالم. ومن العدل كذلك، ومن اللائق بالله أيضاً، أن يجد عبيده سعادتهم في المكان الذي تألّموا فيه من أجل اسمه. أمّا الملكوت السماوي فذلك هو قراره. وبعد أن تنقضي الأعوام الألف، التي ستكتمل خلالها قيامة القديسين، الذين سيقومون من الموت باكراً أو لاحقاً بحسب استحقاقاتهم، يحدث تدمير العالم والانقلاب العام، ونتحوّل فوراً الى طبيعة الملائكة بارتدائنا ثوباً غير قابل الفساد، ونُرفع من هذه المملكة الى السماء" (ضدّ ماركيون، ٣، ٢٤).

أمّا بعد يوم الحساب العظيم، فالقديسون يكونون بقرب الله الى الأبد، بينما الاشرار يبقون في النار الأبدية. وبهذا المعنى يقول: "بعد اجتياز الحدّ والميعاد، وانتهاء المرحلة الانتقالية المكوّنة من ألف سنة، وبعد أن يختفي وجه هذا العالم من الوجود ـ الذي وُضع مثل وشاحٍ على التدبير الأبدي والعائد الى الزمن ـ سيقوم الجنس البشري بأكمله من الموت، كي ينال مكافأته بحسب ما استحقّه في زمن الخير

والشرّ، وحتى تكون هذه المكافأة الى أجيالٍ أبدّية لا تُعدُّ ولا تُحصى. ولن يكون بعد ذلك، إذن، لا موتٌ ولا قيامةٌ متكرّرين، بل نكون نحن كما اليوم، دون تغيير، خدّام الله، ودائما مع الله، تكسونا ماهيّة الأبدية. امّا الزنادقة وكلّ الذين لم يكونوا حقاً عبّاد الله، فسيحكم عليهم بعقوبة النار الأبدية ـ تلك النار، التي من طبيعتها بالذات، تكون المسؤولة المباشرة عن فسادهم" (الدفاعي، ٤٨).

وباختصار، فبعد الحساب العظيم، يذهب الاشرار الى جهنّم حيث تأكلهم نار العدل الالهي، تلك النار التي تضاهي نار البراكين التي لا تخمد، واما الصالحون فيُرفعون الى السماء، حيث يتمتّعون بالمشاهد الرائعة التي ليست مشاهد الأرض بالنسبة اليها سوى بطلان وفناء. يتأمّلون انتصار عظمة المسيح، وينظرون الى لجج النار التي تأكل الفاسقين والاشرار. ويتذوّقون أخيراً الأفراح التي لم ترَها الأعين، ولم تسمعها الآذان، ولم تخطر على قلوب البشر، بل قد حصلوا عليها بواسطة الايمان الذي وعد به الرجاء الخلاصي. وهكذا ينال كلّ انسانٍ جزاء ما فعل في هذه الدنيا الفانية.

الخلاصة

من كلّ ما تقدَّم نستنتج أن هذا القرطاجي الثـــوري العنيـف كـان لـه الفضـل الأوّل في وضـــع اللغـة اللاهوتيـة اللاتينيّة، كما أنّه أوّل لاهوتي لاتيني يتناول العقيدة المسيحية بجملتهـا في شـقّيها النظـري والأدبـي. إنّـه خـالق المفـردات اللاهوتية اللاتينية التي لـم تـزل تسـتعمل لغايـة الآن. ولقـد ساعده في ذلك ثقافتـه الأدبيـة الكلاسـيكيّة الشـاملة، ودقّـة تمرّسه في الحقل القانوني، وعبقريته الرائدة التي تجلّت في جميع مؤلفاته. زد على ذلك أن المفردات الـتي اسـتعملها في أبحاثـه حول سرّ الثالوث الأقدس وسرّ التجسّـد وسـرّ التوبـة وسـرّ الافخارستيا والنعمـة والخطيئـة كـانت الأداة الاساسـية الـتي اسـتند اليهـا اللاهوتيـون مـن بعـده، معتـبرين أن اللاتينيّـة المسيحيّة أو لغة المسـيحيّين اللاتينيّـة هـي مـن وضعـه، ولـم يسبقه الى ذلك أحد، على رغم وجود بعـض المفـردات الـتي لـم تكـن واضحـة في مؤلفـات الكتّـاب المســيحيّين الذيـن سبقوه. فالكلمة عنده هي وسيلة لنقل فكره اللاهوتي، ولغته التعبيريّة هي صورة حقيقيّة عن وضوح رؤياه العقائديّة. ولقد نجح بذلك في تثبيـت الايمـان التقليـدي أكـثر مـن غـيره مـن المؤلفين الكنسيّين في وجه الهرطقات المسـيحانيّة الـتي شـكّت بألوهـة المسـيح أو بناسـوته، والـتي كـانت السـبب الأوّل في دفاعه المستمرّ عن الحقيقة الانجيليّة التي لا تقبل الالتباس.

أمّا على صعيد اللاهوت الأدبي فلقد تميّز بطروحاتٍ لم يسبقه إليها أحد. ففي حين كان اهتمامه، في كتاباته، بوحدانيّة الله وتثليثه، وبسرّي التجسّد والفداء، ردًّا على الهراطقة الذين وضعوا الكنيسة في خطر، نراه يفرز مؤلفاتٍ عدّة، طابعها أدبي وتوجيهي، ليتكلم عن الصبر والتوبة والصلاة ووشاح العذارى والمشاهد والهرب من الاضطهاد والصوم والزواج الثاني وعبادة الاصنام، معتبراً أن رسالته الأولى هي التأكيد على مسلكيّة المسيحي لكي ينال الخلاص الذي دُعي إليه. لذلك نراه متشدداً في هذا الأمر، معتبراً أيضاً أن لا حَدَّ وسط بين المسيحيّة والوثنيّة. فالمسيحي الحقيقي هو الذي التزم من كل قلبه وتخطّى كلّ مساومة من أجل مجد الله. ولقد زاد تشدّده مع الزمن، خصوصاً عندما أصبح "مونتانياً"، بحيث أن هذا التشدّد لم يعد له حدود.

واذا ما قارنّا "ترتوليانوس" بالقديس "ايريناوس"، اسقف مدينة "ليون"، الذي عاد إليه في كتابه "ضدّ الهرطقات"، نرى الفارق الكبير بين الاثنين، رغم انّهما تناولا المواضيع نفسها في محاربتهما للهراطقة وفي الاستناد الى تعاليم الرسل. ففي حين يبقى "ايريناوس" ابن التقليد دون أن يجدّد في شيء، نرى "ترتوليانوس" مجدّداً في كلّ شيء، دامغاً تعاليمه بروحه القانونية وبنظرياته الخاصة به، وتاركاً السلطة التقليديّة الى الدرجة الثانية. وهو، في ذلك، سيّد الوحي

الخاص وملفانه، بعد أن كان، في اوّل عهده، الخادم الأمين للتعاليم التقليديّة التي دافع عنها بعنف. ولربّما كانت ثورته هي السبب، وحريته الفكرية هي الدافع الى ذلك، وشدّة منطقه هي العامل الاساسي لتلك الثورة، وكبرياؤه الحسّاسة هي المحرّك الاول بالنسبة الى التجاوزات التي لم يكن يقبل بها عند بعض الاساقفة والمؤمنين. لذلك حارب بحماس لا مثيل له التعاليم التي كانت تناهض تفكيره وايمانه، حتى بعد أن انفصل نهائياً عن الكنيسة، ودحض، دون شفقة، تعاليم "ماركيون" و"براكسياس". وبما أنه كان كليًّا في التزامه لم يكن بامكانه أن يكون شاهداً متجردًّا على الايمان الكنسي العام. فصحيح أن الكنيسة لم تتنكر لما قدّمه في حقل اللاهوت من اجتهادات لم يسبق لها مثيل، ولكنّها كانت ولم تزل تفضّل لاهوتيا مثل القديس "ايريناوس" الذي كان يتميّز بعبقرية متواضعة.

هذا هو باختصار هذا العبقري القرطاجي الذي كانت له اليد الطولى في انتفاضة اللاهوت المسيحي، وهذا هو الرجل الذي دافع عن ايمانه بكل التزام رغم الفوارق التي أوقعت بينه وبين الكثلكة في آخر عهده. فـ"ترتوليانوس" واحد من هؤلاء العظماء الذي يبقى مرجعاً مهمًّا بالنسبة الى كنيسة المسيح، وواحد من العقول البشريّة الذي تميّز بجرأة قلّ مثيلها.

القسم الرابع

مختارات من مؤلّفات ترتوليانوس القرطاجي

١
وحدانيّة الثالوث في ثلاثة أقانيم

"إذا كانت التعدديّة في الثالوث تضايقكم، كما لو لم تكن مرتبطة في بساطة الوحدة، أسألكم كيف يكون ممكناً لكائنٍ ما، وهو، دون أدنى شك، ومطلقاً، واحد ومفرد، أن يتحدَّث عن نفسه بصيغة الجمع ويقول: "فلنصنع الانسان على صورتنا ومثالنا". ألم يكن يتوجّب عليه القول: "لأصنع الانسان على صورتي ومثالي"، بصفته كائناً فرداً ووحيداً؟ ومع ذلك نقرأ في المقطع التالي: "أنظروا، فان الانسان قد أصبح مثل واحدٍ منّا". فهل الله يخدعنا ويسخر منّا وهو يعبّر عن نفسه بصيغة الجمع، وهو حقيقةً وحيد وفرد؟ أم تراه توجّه بكلامه هذا الى الملائكة، حسب تفسير اليهود لهذا المقطع، لأنهم هم أيضاً لا يعترفون بالابن؟ أم لأنه، في الوقت عينه، الآب والابنِ والروح القدس، تكلّم بصيغة الجمع، معتبراً نفسه متعدّداً من هذا المفهوم بالذات؟ السبب هو بالتأكيد وجود الابنِ الى جانبه مكوّناً أقنوماً ثانياً، أي "كلمته"، فضلاً عن أقنوم ثالث هو الروح القدس في "الكلمة". لذلك اعتمد، عن قصد، صيغ الجمع: "فلنصنع"، و"على صورتنا"، و"أصبح مثلِ واحدٍ منّا". فمع من تراه خلق الانسان؟ والى من جعله شبيهاً؟ إنه كان يتحدَّث الى الابن، الذي كان عليه أن يتخذ الشكل البشري، ومع الروح، الذي

كان عليه أن يقدّس الانسان. لقد تحدّث إليهما، وفي وحدانيّة الثالوث، كما يتحدَّث الى وزرائه وشهوده"

(ضدّ براكسياي، ١٢)

٢

الابن منبثقٌ من الآب كما تنبثق الأشعة من الشمس

"إن اللـه نطق "الكلمة"، كما يعلن ذلك البـــارقليط نفسه، مثلما يُنتج الأصل الفروع، ومثلما يولّد النبـع النهـر، ومثلما تبعـث الشـمس بأشـعَّتها. وهـذه الظواهـر هـي أيضـاً انبثاقات الماهيات التي جاءت منها. وبالتالي، فانني لا أتردّد في تسمية الفرع ابن الأصل، والنهر ابن الينبوع، والشعاع ابـن الشمس. فكل ينبوع هو، في الواقع، أبٌ، وكل ما يجري من الينبوع هو مولود أو منبثق. والحال ينطبق، بصـورة خاصَّـة، على "كلمة" اللـه، الذي أُعطي تسمية خاصَّة هـي إسـم ابـن اللـه. ومع ذلك فالفرع ليس منفصلاً عن الأصل، ولا النهـر عـن الينبـوع، ولا الشـعاع عـن الشـمس. و"الكلمـة" ليـس منفصلاً عن اللـه. وبحسب نوعية هـذه التشـابهات، أعـترف بأنّني أدعو اللـه وكلمتـه ـ الآب والابـن ـ اثنـين. فـالأصل والفرع شيئان مميّزان، لكنّهمـا مجتمعـان. والينبـوع والنهـر ظاهرتان، لكنهما غير منفصلين. وهكـذا الشـمس والشـعاع

شيئان مميّزان بالنسبة الى النظر، لكنَّ أحدهما مقيمٌ في الآخر. وكل ما هو منبثق من شيء يأتي بالضرورة في الدرجة الثانية بالنسبة الى الذي انبثق منه، دون أن يكون منفصلاً عنه. وبالتالي، فحيث يوجد ثان، لا بُدَّ من أن يكون هناك اثنان، وحيث يوجد ثالثٌ، لا بُدَّ من ان يكون هناك ثلاثة. فالروح هو، إذن، الثالث انطلاقاً من الله ومن الابن، كما انَّ ثمرة الفرع هي الثالثة انطلاقاً من الأصل، أو كما القناة المتحدّرة من النهر هي الثالثة انطلاقاً من الينبوع، أو أخيراً لا آخراً، كما أن طرف الشعاع هو الثالث انطلاقاً من الشمس. ومع ذلك، فليس ما هو غريبٌ عن الينبوع الأوّل الذي يعطيه ما هو عائدٌ إليه. وهكذا، فالثالوث، في انبثاقه من الآب بدرجاتٍ مركّبة ومتّصلة، لا يعكّر مطلقاً التسلسليّة، بينما هو ينقذ وضع التدبير الالهي"

(ضدّ براكسياس، ٨)

٣
الحقيقة غريبة في هذا العالم

"الحقيقة تعرف انها تعيش غريبةً في هذا العالم، وأن لها أعداء بين صفوف الغرباء، ولكنها تعرف أيضاً أن لها عائلتها، ومنزلها، وأملها، ورصيدها، ومجدها في السموات.

ورغبتها الوحيدة وهي في انتظار مجد السموات، أن لا يُحكم عليها قبل أن تُعرف. فما الذي تخسره قوانينكم، الحاكمة بأمرها، ضمن حدود الأمبراطورية، لو أنَّ الحقيقة عُرفت واقتنع بها الكثيرون؟"

(الدفاعي، ١، ٢)

٤
اطلاق حريّة الدين والعبادة للمسيحيين

"إنَّ اعتراف آلهتكم الذي بواسطته يقرّون أنهم ليسوا آلهة، وبأنه لا يوجد إله غير الذي ننتسب إليه، يكفي لردّ التهمة القائلة إنَّ المسيحيين يُسيئون الى الديانة الرومانية. واذا كانت آلهتكم غير موجودة، فان ديانتكم هي أيضاً غير موجودة. واذا كانت ديانتكم غير موجودة، لأن آلهتكم هي غير موجودة، فانه حقٌّ أننا غير مذنبين تجاه ديانتكم. بل العكس هو الصحيح، إذ سيرتدّ عليكم لومٌ توجّهونه إلينا، أنتم الذين تعبدون الكذب ولا تكتفون باغفال ديانة الاله الحقيقي، بل تذهبون الى حدّ محاربتها. فانكم بذلك ترتكبون جريمة زندقةٍ حقيقيّة... فتنبّهوا جيداً، لأنها قد تكون جريمة زندقةٍ ومروق أن تنتزعوا من الناس حرّية الدين وأن تحرّموا عليهم اختيار إلههم، أي أن لا تسمحوا لي بتكريم من اريد

تكريمه، وتجبروني على تكريم من لا أريد تكريمه. فليس ثـمَّة من يرضى بأن يكرّم بالقوّة، حتى الانسان لا يريـد ذلـك ولا يقبل به. وعلـى ذلـك تُعطى للمصريّـين حريّـة التعـاطي مـع خزعبلاتهـم، ووضعهـم الطيـور في مصـاف الآلهـة، والحكـم بالموت على من يقتل إلهـاً مـن هـذه الفصيلـة. فلكـلّ منطقـة ولكلّ مدينة الإله الخاص بها... ونحن وحدنـا يحـرّم علينـا أن تكون لنا ديانتنـا، لأننـا، علـى حـدٍّ مـا تزعمـون، نسـيء الى الرومانيّين، ولا يُنظر إلينا كرومـانيّين لأن الالـه الـذي نعبـد ليس إلهاً من آلهتهم. ولحسن الحظّ أنه إله جميع البشر، شئنا أم أبينا، ويمتلكنا جميعاً. وأنتم تسمحون بعبادة أيّ شيء ما عـدا الاله الحقيقي، وكأنـه ليـس إلـه الجميـع، الـذي ننتمـي إليـه جميعاً".

(الدفاعي، ٢٤، ١ - ٢ و٦ - ١٠)

٥
السلطة هي للّـه وحده وليس للأباطرة والحكّام

"نحن نصليّ من أجل خلاص الأباطرة، نصليّ للّـــــه الازلي، الالـه الحقيقـي، الالـه الحـيّ، الـذي يفضّـل الأبـاطرة أنفسهم رضاه على كـلّ الآلهـة الأخـرى. إنّهـم يعرفـون مـن أعطاهم الأمبراطوريّة، ويعرفون، بصفتهم بشراً، مـن منحهـم

الحياة، ويشعرون بأنه وحده الله صاحب السلطة، وهم يأتون في الدرجة الثانية مباشرة بعده، قبل جميع الآلهة. وكيف لا يكون الأمر كذلك وهم فوق جميع البشر الذين يُعتبرون فوق الأموات لأنهم أحياء؟ يعرفون حقّ المعرفة الى أين تمتدّ حدود قوى أمبراطوريتهم، وهكذا يرون أن الله موجود، ولأنهم يدركون عجزهم عن القيام بأيّ عمل ضدّه، يعترفون بأنهم أقوياء به. وإلاّ لماذا لا يعلن الأمبراطور حرباً على السماء؟ لماذا لا يجرّ السماء أسيرةً وراء عربة انتصاره؟ لماذا لا يُرسل حرساً الى السماء؟ ولماذا لا يفرض على السماء جزية؟ لا يفعل لأنه لا يستطيع. فالأمبراطور لا يكون كبيراً إلاّ بقدر ما هو في موقعٍ أدنى من موقع السماء، وهو في الحقيقة مُلكٌ لمن يمتلك السماء والخليقة. إنّه أمبراطور بمن صنعه إنساناً قبل أن يجعله أمبراطوراً، ومنبع سلطانه هو ذاته منبع النفث الذي يحييه".

(الدفاعي، ٣٠، ١ ـ ٣)

٦

المسيحيون ليسوا أعداء الدولة والجنس البشري لأنهم يحبّون جميع البشر ويعملون للسلام الحقيقي في العالم

"نحن جسدٌ من حيث شعورنا المشترك بايمان واحـــدٍ، وبوحدة التنظيم، وبرابط الرجاء. نحـن نؤلّـف رابطـةً وجمعيّـةً للألتفاف جول اللـه بصلواتنا مثل فرقةٍ عســكريّةٍ متماسـكة. وهذا العنف يروق للـه. ونحن نصليّ ايضاً على نيّـة الأبـاطرة ووزرائهم، كما نصلـيّ مـن أجـل القـوى حولـه، ومـن أجـل العصر الذي نعيش فيه، ومن أجل سلام العالــم، ومـن أجـل إرجاء النهاية. ولئن تجمّعنا فلكي نقرأ في الكتب المقدسة، اذا ما أرغمنا الزمن الذي نحـن فيـه علـى البحـث عـن تنبيهـات للمستقبل أو اجتهادات من الماضي. ونحن، على الأقلّ، نغذّي إيماننا من خلال هذه الكلمات المقدسة، ونمكّن ثقتنا، ونوثّـق روابـط انضباطنـا بالتزامنـا المبـادىء. وفي هـذه الاجتماعـات نحثّ بعضنا على عمــل الخـير وعلـى الايمـان وعلـى التـأديب والرقابة الذاتية باسم اللـه. وفي هذه الاجتماعات ايضاً تصدر أحكام لها وزنها الكبير، باعتبار أنّنا واثقون مـن وجـود اللــه بيننا، كما نعتبر حكماً مسبقاً بالنسبة الى الدينونة العامــة، اذا ما ارتكب أحدنا خطأً يقصيه عن الصلوات الجماعيّــة، وعـن الاجتماعات، وعــن كـلّ علاقـة بالاشـياء المقدّسـة. ويـترأس

الاجتماعات شيوخٌ من ذوي الخبرة، وهؤلاء ينالون هـــذا الشرف الكبير ليس بالمال، بل بالشهادة لفضيلتهـم، لأنـه ما من شيءٍ متعلّق باللـه يقدَّر بالمال. واذا كـان لدينـا صنـدوق مال مشترك فليس ذلك بمبلغٍ فخري يقدّمه أفراد النخبة كما لو كانت الديانة معروضة في المزاد العلني، بل كلّ واحد منّـا يقدّم شيئاً زهيداً في يومٍ معيّن من الشـهر، أو في اليـوم الـذي يختـاره، أو حـين يسـتطيع ذلـك، دون أن يُرغـم أحـدٌ علـى الدفع، بل يُترك الأمر لكـلّ فـردٍ حسـب طاقتـه وامكانيّاتـه. فـالصندوق يشـبه مسـتودعاً للتقـوى. ولا يُصـرف المبلـغ في سبيل المآدب او لجلسات السكر، بل من أجل إطعام الفقـراء أو دفنهم، ولمساعدة الشبّان والشابات الذين لا مال لهـم ولا أهل، وللخدم الطاعنين في السنّ، وللمعوزيـن، وللمسـيحيّين الذين يعذّبون في سبيل اللـه، سـواء في المنـاجم، أو في الجـزر البعيدة، أو في السجون، من أجل إيمـانهم الـذي يعـترفون بـه ويجاهرون. وممارسة عمل الخير هذه هـي، في نظـر الكثـيرين، وَصْمَةٌ معيبة، اذ يقول هؤلاء: "انظروا كيف يحبّـون بعضهـم بعضاً"، لأنَّ الذيـن ينتقدوننـا يكرهـون بعضهـم بعضـاً، كمـا يقولون ايضاً: "انظروا كيف أنّهم مستعدّون للموت في سبيل بعضهم بعضاً"، وذلك لأنهـم هـم أنفسـهم مسـتعدّون لقتـل بعضهم بعضاً".

(الدفاعي، ٢٩، ١ - ٧)

٧

شهادة النفس البشريّة على اثبات وجود اللـه

"هل تريدون أن نثبت وجود اللـه من خلال أعمالـــه الكثيرة والرائعة، تلك الأعمال التي تحفظنا وتسندنا وتفرّحنا، وحتى التي تخيفنا؟ إنّ شهادة النفس البشـرية، وإن كـانت في سجنٍ ضيّق داخل الجسد، تخدعهـا تربيـة سيّئة، أو في ثـورةٍ عصبيّـةٍ مـن جـرّاء الأهـواء الشـهوانيّة، أو مسـتعبدة للآلهـة المزيّفـة، فهـي تسـميّ اللـه باسمـه لأنـه إسـم اللـه الحقيقـي، خصوصاً عندما تعود الى ذاتها وكأنّها تستيقظ من نومٍ عميقٍ أو من مرض، وقد أصبحت في حالتها الطبيعيّة. "اللـه كبير"، "اللـه طيّب"، "إن شاء اللـه"، تلـك هـي الصرخـة الكونيّـة. والنفـس البشـريّة تعـترف بـه أيضـاً قاضيـاً: "اللـــه يـرى"، و"أعتمد على اللـه"، و"اللـه سيكافئني". يـا لشـهادة النفـس المسيحيّة بطبيعتها".

(الدفاعي، ١٧، ٤ ـ ٦)

٨
الطبيعة تعلّم النفس وترشدها الى أنّها صورة اللـه في هذا الكون

"أريد هنا أن أستشهد بدليل جديد، معروف أكثر من أيّ أدب، وأعمق من أيّة عقيدة، ومنتشر أكثر من أيّ كتاب، ومتفوّق على كلّ إنسان، أي على كـلّ مـا هـو بشـري. فيـا أيتها النفس أظهـري ذاتـك. فـاذا كنـتِ إلهيّـة وأبديّـة، كمـا يعلّمنا الفلاسفة، فاذن انت لا تكذبين. أو اذا لـم تكوني إلهيّة البتّـة لأنـك قابلـة للمـوت، كمـا ينفـرد بهـذا الاعتقـاد "ابيقوروس" وحده، اذن فلا يجوز أن تكذبي. فهل أنت ابنـة السماء أم مولودة من الأرض؟ هل أنت مكوّنة مـن أرقـام أو من ذرّات؟ هل تبدأين مع الجسد أم تأتين بعـد هـذا الجسـد؟ وأخـيراً، مـن أيّ مكـان أتيـتِ، وبأيّـة طريقـة كـانت، فـأنت تصنعين من الانسان حيواناً عاقلاً، قادراً على الحكم والمعرفة. لكنّني لا أتوجّه إليك أنـتِ الـتي تكوّنـتِ في المـدارس، والـتي تمرّستِ في المكتبات، وتغذّيتِ في الأكاديميـات أو في مذهـب الرواقيّين اليونان الذين تقيّأتهم الحكمة. بل أدعوكِ أنـتِ الى الحضور، أنتِ البسيطة، البربريّة، الجاهلة، انتِ الـتي يمتلكهـا أولئك الذين ليـس لديهـم سـواكِ، حتـى أنـتِ الـتي تخرجـين مباشـرة مـن الشـارع، ومـن السـاحة، أو من المحـترف. فـان جهلكِ هو ما أحتاج إليه، لأن ليس ثـمَّةَ مـن يصدّقـك حالمـا

تعلمين أقلَّ شيء. أسألكِ عمّا تحملين معـــك في الانســـان، وماذا تعلّمـت أن تكتشـفي في ذاتـك ومـن خـلال صـانعك، كائناً من كان".

(شهادة النفس، ١)

٩
ذبائح المسيحيّين هي الصلاة

"نحن، اذن، نكرّم الأمبراطور التكريم المسموح لنا به حياله، لأننا نعتبره أقرب المخلوقات البشريّة الى اللّـه، ولأنـه يستمدّ قدرته من اللـه، ولا يعلـو عليـه غـير اللـــه وحـده... ونحن نقدّم الذبائح على نيّة الأمبراطور، إنّما لإلهنا الـذي هـو في الوقت نفسه إلهه هو أيضاً، وبالطريقة التي أمرنا بهـا إلهنـا، أي بالصلاة فقط. فاللـه، خالق الكون، لا يريدنا أن نقدّم لـه العطور والدم، فذلك هو طعام الشياطين".

(الى سكابولا، ٢)

١٠

العالـم سجنٌ كبير والاستشهاد تحرّر في اللـه

"إذا ما تذكّرنا ان العالـم هو سجنٌ كبير، نفهم حينئذٍ أنكم أنتم خرجتم من هذا السجن ولـم تدخلوا إليه. العالـم مغلّفٌ بطبقاتٍ كثيفة من ظلماتٍ تعمي عقل البشـر. العالـم يحمل قيوداً أكثر ثقلاً وهي تكبّل نفوس البشر. العالـم يتنشق روائـح، أين منهـا روائـح السـجون، لأنهـا عيـوب البشـر ومفاسدهم. وأخيراً لا آخراً فـان العالـم يحتـوي علـى عـددٍ كبيرٍ من المجرمين، أعني كل الجنـس البشـري. ثـم إن العالـم ينتظرٌ دينونة اللـه ولا ينتظر دينونة الحاكم الروماني. من هنا، أيها الأخوة المباركون، اعتبروا أنكـم انتقلتـم مـن سـجن الى ملجأ ومـلاذ. سـجنكم مظلـم، لكنكـم نـور. أنتـم مثقلـون بالقيود، لكنكم أحرارٌ في اللـه... سـتجابهون صراعـاً رائعـاً حيث الحَكَمُ فيه هو اللـه الحيّ، ومدرّبكم هو الروح القدس، والأجر إكليل أبدي، جوهره ملائكي، ومواطنيّته السموات، ومجده لا نهاية له. ولذلك فان مديركم، يسوع المسـيح، قـد مسحكم بروحه وأنزلكم الى الحلبة، وقد استحسن، قبـل أن يأتي يوم المعركـة، أن ينـتزعكم مـن حيـاةٍ أكـثر ترفاً. ولقـد فرض عليكم معاملةً أشدّ قسـاوة لـيزيدكم قـوّة، لأنـه عـادةً يضعون جانباً المقاتلين ويخضعونهم لتدريب شديد كي يهتمّوا بتنمية قوّتهم البدنيّة، ويحمونهم مـن الفسـاد، ومـن الأطعمـة

السّامة ومن المشروبات. ثم يعمدون الى إزعاجهم وإتعابهم، كما يتعمّدون إدخال القلـق الى نفوسـهم. وبقـدر مـا تكـون تدريباتهم شاقّة، بقدر ذلك يكون الأمل بالنصر راسخاً".

(الى الشهداء، ٢ و٣)

١١
الاحتشام هو الفضيلة المسيحيّة الأولى

"بما أننا جميعاً معبد اللـه، فالاحتشام خادم هذا المعبد وكاهنه. فلا يجوز، إذن، أن يُسمح بادخال أيّ شـيء يكـون دنيويّاً أو مدنّساً، خوفاً من أن يهان اللـه السـاكن في المعبـد، فيتخلىّ نهائياً عن المسـكن المدنّـس... ويُخطِئنَ تجـاه الـربّ اللواتي يستعملنَ العقاقير لدهنِ بشـرتهنَّ، وتلويـن وجنـاتهنَّ باللون الأحمر، وطلاء عيونهنَّ بالأسود. لا ريـب في أنَّ عمـلِ اللـه لا يروقهنَّ، ويجدنَ فيه مادّةً للانتقـاد، ويصـدرنَ حكمـاً بالادانة على خالق كـلّ شـيء... وهـذه الرقّـة التي تحـاول، برخاوتها وتخنّثها، أن تقضي على قوّة الايمان، يجب احتقارها. وإلاّ فـانني لسـت أدري إن كـان المعصـم المعتـاد علـى حمـل الأساور سيرتضي قساوة القيود. ولا أرى إن كـانت السـاق الـتي عرفـت لـذّة حمـل الخلخـال سـتتحمَّل ضغـط الحديـد! وأخشى أن لا يـترك العنـق الـذي تحيطـه الـلآلىء وعقـود

الزبرجد مكاناً لحدّ السيف!... ولكن، في كلّ الأزمنة، واليوم أكثر من أيّ يومٍ آخر، يمضي المسيحيون حياتهم في الحديد وليس في الذهب. فأثواب الشهداء تتجهّز. ونحن ننتظر الملائكة التي ستأتينا بها".

(تبرّج النساء، ١ و٥ و١٣)

١٢
الصبر هو الفضيلة المسيحيّة الحقيقيّة التي تعلو على كلّ فضيلة

"أعترف أمام الله السيّد بأنني كنت جريئاً جداً، وجسوراً الى حدّ التهوّر، باقدامي على وضع كتابٍ عن الصبر. فانا، بالفعل، غير قادرٍ على ممارسة هذه الفضيلة، وذلك لافتقاري الى أيّة صفة خيّرة... ولكن سيكون ذلك عزاءً لي أن أتحدّث عن فضيلة لا أنعم بها. وسأفعل مثل المرضى الذين يشيدون بحسنات الصحّة لأنهم لا يتمتّعون بها. وعلى ذلك، فأنا الشقي الذي يعاني دائماً من ثورات قلّة الصبر، عليَّ لأن ألهث وراء هذه الفضيلة، وأن أطلبها دائماً، وأن أصليّ بمواظبة لكي أنال عافية الصبر هذه، تلك التي لا أملكها... إن الصبر يعود الى مثاله الحقيقي، ألا وهو الخالق الذي يطلع نوره على الصالحين كما على الظالمين. والمسيح

يعطينا مثالاً على ذلك في تجسّده وحياته وآلامه وموته. ولكي نستطيع كسب هـذه الفضيلـة علينـا أن نطيـع اللـه بصـورة خاصة. فقلّة الصبر هي أمّ الخطايـا، والشـيطان أبوهـا. وهـذه الفضيلة تسـبق الايمـان وتعقبـه، والايمـان لا يمكـن أن يوجـد بدونهـا. وفي الحيـاة اليوميّـة ايضـاً هنـاك مجـالات كثـيرة لممارستها، خصوصاً عندما نخسر الأملاك والأموال، ونتحمّل الاهانات والتحديّات والمصائب والسـقوط. أمّـا نفـاد الصـبر فيأتي غالباً من الرغبة في الانتقام. والواجب يفرض علينـا أن نتحمّل الشدّة والمحنة سواءٌ أكانت خفيفـة أم كبـيرة وثقيلـة. وأما مثابرتنا على الصبر فنكافأ عليها بالسعادة التي تُمنح لنـا من اللـه بعد هذه الدنيا... وحيث هو اللـه موجـود، توجـد فضيلة الصبر التي هي الطفل الذي يغذّيه اللـه نفسه. وعندما ينزل روح اللـه، يرافقه الصبر ولا يفارقه أبداً"

(الصبر، ١ و١٥)

١٣
التوبة وعدم العودة الى الخطيئة

"إمنح، يا سيّدي، الى خدّامك، نعمة تعلّم مسـلكيّة التوبة، وسماعها، ولكن بالقدر الـذي يناسـبهم، وليـس لكـي يُخطئوا. وبكلام آخر، ليتهم، بعد المعمودية، لا يتعرّفـون الى

التوبة ولا يتوسّلونها. وإنه لمن المؤسف التكلّم عن سعي الى رجاء آخر مع العلم أنها الفرصة الأخيرة في الظرف الحاضر. فالخوف من الحديث عن دواء في التوبة محفوظٌ لما بعد قد يؤديّ الى الاعتقاد بان ارتكاب الخطيئة أمرٌ سهلٌ ويجعل المؤمنين لا يشدّدون في الالتزام الكامل بعدم الوقوع فيها. وهذه الفكرة هي بعيدة كلّ البعد عن اعتقادنا، ولا يجوز أن تُفسّر فكرتنا على هذا النحو، أو أن يعتقد أحدهم بأنّنا نعني بذلك أن الباب مفتوح للتوبة، وأن فيض رحمة السماء يُعطي حقاً للتهوّر البشري. فلا يجوز لأحد أن يصبح أقلّ فضلاً بحجّة أن الله أوفر جودة، فيعاود ارتكاب خطيئة بقدر المرّات التي ينال فيها الغفران. وإلاّ، صدّقوني، فان الذي لا يضع حداً لخطيئته لن يتمكّن في يومٍ من الأيام من الافلات من العقاب. لقد نجونا مرّة في المعمودية. لذلك فلنتحاشى التعرّض للاخطار، حتى ولو بدا لنا أن النجاة متوفّرة مرّة ثانية"

(التوبة، ٧)

١٤
سعادة الزواج المسيحي الحقيقي

"كيف لي أن أصف سعادة زواجٍ تعقـــده الكنيســـة، وتقرّه الذبيحة، وتقدّسه المباركة، وتسجّله الملائكة، ويصدّقه الآب ويوافق عليه؟ فالاولاد، على هذه الارض، لا يجـوز أن يتزوّجوا دون موافقة أهلهم. وكم هو طيّبٌ النير الذي يجمع مُؤْمِنَيْن في الرجاء ذاته، وفي الشريعة ذاتها، وفي الخدمة ذاتها! فالاثنان هما اخـوان، والاثنـان يخدمـان السيّد نفسـه وليـس بينهـم خـلافٌ في الجسـد أو الـروح. وهمـا، فعـلاً، اثنـان في جسد واحد، وحيـث يكـون الجسـد واحـداً، يكـون الـروحٍ واحداً. معاً يصلّيان، ومعـاً يسـجدان، ومعـاً يصومـان، ومعـا يتعلّمان، ويشجّع أحدهما الآخر فيتماسكان، ويشدّ أحدهما إزر الآخر. وهما متساويان في كنيســة اللــه، ومتسـاويان في وليمة اللـه، ويتقاسمان الأحزان، ويتعرّضان معاً للاضطهادات وللتعزيات. لا يُخبّيء أحدهما شيئاً عن الآخر، ولا يتسـبّب أحدهمـا بكـدرٍ للآخـر، ولا يحزنـه. ينشـــدان معـاً المزامـير والـتراتيل الـتي تسبّح اللــه، فيتسـابقان في تسـبيح سـيّدهما المشترك. والمسيح يفرح برؤيـة هذيـن الزوجـين فيرسـل لهمـا سلامه. وحيث يكونان يكون هو نفسه، وحيث يكون هو لا يستطيع الشيطان الدخول".

(الى الزوجة، ٢،٨)

مُـــلحق

هـذا الملحـق يقسـم الى خمسـة أقسـام. الاول: المجـامع المسكونية. والثاني: أهم الهرطقات في الكنيسة.والثالث: آباء الكنيسة وملافنتها. والرابع: معجم الكلمات الـتي وردت في الكتاب أو سترد في الموسـوعة. والخـامس: الألفـاظ اليونانيـة والسريانية المتداولـة كنسيًّا. وسـيكون ثابتـاً في جميـع كتـب الموسوعة تعميماً للفائدة. ولا بُدَّ من كلمة شكر للذّين رجعنا إليهم في مؤلفـاتهم ومعـاجمهم أو أخذنـا عنهـم لتحقيـق هـذا الملحق باقسامه الخمسة.

ملحق أول

المجامع المسكونية

١ - مجمع نيقيا ٣٢٥: حرم آريوس الذي أنكر ألوهية يسوع المسيح ووضع قانون الايمان.

٢- مجمع القسطنطينية الاول ٣٨١: حرم مقدونيوس والماسيدونيين الذين أنكروا ألوهية الروح القدس ومساواته للآب والابن في الجوهر.

٣ - مجمع أفسس ٤٣١: حرم نسطوريوس الذي أنكر ان تكون مريم العذراء أم الله.

٤ - مجمع خلقيدونية ٤٥١: قال إن في المسيح طبيعتين، إلهية وانسانية، وحرم اصحاب الطبيعة الواحدة.

٥ - مجمع القسطنطينيّة الثاني ٥٥٢: شجب نسطوريوس من جديد وبعض تعاليم اوريجانوس، لا سيّما نكرانه ابدية عذاب الأنسان في جهنم.

٦ - مجمع القسطنطينيّة الثالث ٦٨٠ ــ ٦٨١: شجب المونوتوليّة او مذهب المشيئة الواحدة.

٧ - مجمع نيقيا الثاني ٧٨٧: شجب محاربي الايقونات.

٨ ـ مجمع القسطنطينية الرابع ٨٦٩ ـ ٨٧٠: عزل فوثيوس عن كرسي بطريركية القسطنطينيّة لأنه نكر أولويّة سلطة اسقف روما الشاملة.

٩ ـ مجمع لاتران الاول ١١٢٣: تدخل في مسألة الرتب الكنسيّة. وقد نشأت المسألة من جرّاء الصراع العنيف الذي قام بين البابوية وأباطرة المانيا حول سيامة الأساقفة. واستمّر من سنة ١٠٧٤ ـ ١١٢٣، وبلغ أشدّه ايام غريغوريوس السابع والأمبراطور هنري السابع، وانتهى بمبدأ الفصل بين السلطتين. فالسلطة الزمنيّة يمنحها الأمبراطور والسلطةالروحية يمنحها البابا.

١٠ـ مجمع لاتران الثاني ١١٣٩: شجب السيمونيا (بيع الرتب الكنسية) وسوء استعمال السلطة الروحية، ونصح بعدم زواج الكهنة.

١١ـ مجمع لاتران الثالث ١١٧٩ ـ ١١٨٠: اتّخذ اجراءات اوليّة ضد بدعة الكاثار.

١٢ـ مجمع لاتران الرابع ١٢١٥: شجب بدعة الألبيجوا (او الكاثار)، وحدّد عقيدة الاستحالة الجوهرية، ونظم قوانين الكنيسة.

١٣ـ مجمع ليون الأول ١٢٤٥: ضدّ فردريك الثاني الذي شكّ في الدين، ومال الى الاسلام، وقاوم البابويّة.

١٤ـ مجمع ليون الثاني ١٢٧٤: هو محاولة للتقارب مع الكنيسة الشرقية، واتحاد الكنائس.

١٥ـ مجمع فيينا ١٣١١ ـ ١٣١٢: حلّ منظمة الهيكل.

١٦ـ مجمع كونستانس ١٤١٤ ـ ١٤١٨: وضع حدّاً للإنشقاق في الغرب، وشجب جان هوس الذي لم يؤمن بالاستحالة الجوهرية وتبع تعليم ويكلف.

١٧ـ مجمع فلورنسا ١٤٣٨ ـ ١٤٤٥: هو محاولة للتقارب من جديد مع الكنيسة الشرقية، ضمن مخطّط اتحاد الكنائس.

١٨ـ مجمع لاتران الخامس ١٥١٢ ـــ ١٥١٧: محاولة اصلاح الاكليروس، وتحديد خلود النفس. ولكن محاولة الاصلاح كانت فاشلة.

١٩ـ مجمع ترانت (التريدنتيني) ١٥٤٥ ـ ١٥٦٣: اصلاح الكنيسة الكاثوليكية: قرارات عقائدية حول الخطيئة الأصلية، والتبرير والأسرار، والاستحالة الجوهرية، وحرم البروتستانت.

٢٠- مجمع الفاتيكان الأول ١٨٦٩ ـــ ١٨٧٠: حـــدد موقف الكنيسة من الايمان والمذهب العقلاني، وأعلـن العصمة البابوية.

٢١- مجمع الفاتيكان الثاني: الدورة الاولى: مـــن ١١ تشرين الاول الى ٨ كانون الاول ١٩٦٢.
الدورة الثانيـة: من ٢٩ أيلـول الى ٤ كـانون الاول ١٩٦٣.
الدورة الثالثة: مـن ١٤ ايلـول الى ٢ تشـرين الثـاني ١٩٦٤.
الدورة الرابعة: مـن ١٤ أيلـول الى ٨ كـانون الاول ١٩٦٥.

حضر هذا المجمع ٢٣٠٠ اسقف وتألف من ١٢ لجنة، واستغرق ١٤٠ جلسة، واجرى حوالي ٥٥٠ تصويتاً.
نتائجه: ٤ دساتير و ٩ مراسيم و ٣ اعلانـات. النـص الاساسـي: دسـتور عقـائدي للكنيسـة. امـا بـاقي النصـوص فموزعة على مجموعتين:

١ ـ وثائق التجديد: قرارات في رسالة العلمـــانيين والاساقفة ومهمة الكهنة والرسالات. ودسـتور عقـائدي في الوحي والليتورجيا.

٢ ـ وثائق الحوار: مع غـــير الكـــاثوليك، وغـــير المسيحيين، وغير المؤمنين، ومع العالـم أجمع.

٣ ـ أسس الحوار ووسائله: الحرية الدينيّة، الكنيســة وعالـم اليوم، ووسائل الاعلام الاجتماعية.

ملحق ثانٍ

أهم الهرطقات في الكنيسة

١ - الغنوصيّة (Gnosticisme): احدى هرطقات القـــرن الثالث المسيحي، وهي تدّعي أن معرفة علـم الخـلاص مختلفة عن الايمان ومحصورة بفئة قليلة، أعني بالنخبـة. وكذلـك تدّعـي أنهـا علـى علـم تـام بجوهـر الطبيعـة وخصائص اللـه. وهي قريبة من الافلاطونية والمانوية.

٢ - الدوسيتيّة (Docétisme): هرطقة من هرطقات القرن الثالث المسيحي تدّعي أن يسوع لـم يكن له إلاّ مظهر الجسد، متأثرة بذلك بالفكر اليوناني.

٣ - المانويّة (Manichéisme): هرطقة من هرطقات القرن الثـالث المسـيحي، أسّسـها مـاني (أو مـانيس) (٢١٦-٢٧٣)، وتقول بمبدأين إلهيّين: إلـه الخـير وإلـه الشرّ.

٤ - المونتانية (Montanisme): هرطقة من هرطقات القرنين الثاني والثالث المسيحيين. أسّسها كاهن فريجي يُدعـى مونتـانوس (Montanus). اتباعهـا اعتـبروا أنفسـهم الكنيسة الجديدة، وأنكروا السلطة الكنسـيّة، ودعـوا

الى مناقبيّة صارمة، وأعلنوا أن نهاية العالم قريبـــــة. ولقد التحق بهم "ترتوليانوس" سنة ٢٠٧ مسيحيّة.

٥ ـ الآريوسية (Arianisme): هرطقة من هرطقات القـــرن الثـالث المسـيحي. أسّسـها آريـوس الاسـكندري (٢٨٠-٣٣٦) الذي تأثر بالمانويّة، وأنكر ألوهية المسيح وتجسّـده، مدّعيـاً أن "الكلمـة" غـير مسـاوٍ لـلآب في الجوهـر. حرمهـا مجمـع نيقيـا سـنة ٣٢٥ مسيحيّة.

٦ ـ المقدونيسيّة (Macédonianisme): هرطقة أسّسـها مقدونيـوس بطريـرك القسـطنطينيّة (+٣٧٠) الـذي تعصّـب للآريوسـيّين، وأنكـر ألوهـة الـروح القـدس. عزله قسـطنتيوس الملـك، ورذل بدعتـه وحـرم تبّاعـه مجمع القسطنطينيّة الاول سنة ٣٨١ مسيحية.

٧ ـ الدوناتية (Donatisme): هو مذهب الدوناتيين الذيـــن ينتسبون الى دونـات (Donat) اسـقف قرطاجـة الـذي اعلنته الكنيسة مبتدعاً وعزلته مـن منصبـه في القـرن الرابـع المسـيحي. واصحـاب هـذا المذهـب يعتـبرون أنفسهم ورثة الرسل الوحيدين.

٨ ـ النســطورية (Nestorianisme): هرطقـة أسّسـها نسطوريوس بطريرك القسطنطينية (٣٨٠-٤٥١) الذي

قال بأقنومين في المسيح، وأنكر على مريم العـــذراء لقب أم اللّـه. حرمه مجمع افسس سنة ٤٣١ مسيحيّة.

٩ ـ المونوفيزيّة (Monophysisme): أو مذهـــب القـــائلين بطبيعة واحدة في المسيح. أسّسها راهب يوناني عـاش في القسطنطينيّة يُدعى أوطيخا Eutychès (٣٧٨-٤٥٣)، فحرمه المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١ مسيحيّة. تلميـذه يعقوب البردعي أســس الكنيسـة اليعقوبيّـة مـن بعـده ومات سنة ٥٧٨ مسيحيّة.

١٠ـ المونوتيليّة (Monothélisme): أو بدعة أصحاب المشيئة الواحدة. أسّسها البطريرك سرجيوس (٦١٠ـ٦٣٨)، مدعوما بالامبراطور هيراكليوس. قال بـان في المسـيح طبيعتين، إلهيَّة وانسانية، ولكن له مشيئة واحـدة، هـي المشيئة الالهيَّة. حرمها المجمع القسطنطيني الثالث سـنة ٦٨١ مسيحيّة.

١١ـ البلاجيانيّة (Pélagianisme): هرطقة من هرطقـــات القرن الثالث المسيحي تُنسـب الى الراهـب بلاجيـوس (٣٦٠-٤٢٢)، وتعتبر الارادة الشخصيّة قيمة مطلقـة، وتؤمن بامكانية بلوغ الكمال على الأرض بواسطتها، وتنكـر مفعـول النعمـة والخطيئـة الأصليـة. حاربهـا القديس أغوسطينوبس.

١٢ـ الايقونوكلاسم (Iconoclasme): بدعة محطّمي الايقونات والصور والتماثيل الدينية (Iconoclastes). أسّسها الامبراطور لاوون الإيصوري سنة ٧٣٠ مسيحيّة، وأمر بتحطيم الصور والايقونات والتماثيل الدينية، خصوصاً في الشرق. قاومه القديس يوحنا الدمشقي. ولكن الامبراطورة تيودورا الشهيرة أعلنت سنة ٨٤٣ مسيحية العودة الى تكريم الصور وعبادتها.

١٣ـ القدرية (Prédestinationisme): بدعة أسسها غوتسكال أو غوتشالك (Gotescal ou Gottschalk) (٨٠٥ـ٨٦٨) ويعتبر فيها أن الانسان هو مقدّر له، قبل ولادته، إمّا أن يخلص وإمّا أن يهلك، وهذا يعني أنه مهما عمل ليس بامكانه أن يغيّر قدره. ولقد حرمه مجمع ماينس (Mayence) سنة ٨٤٨ مسيحيّة.

١٤ـ فودوا (Vaudois): شيعة تنسب الى مؤسسّها بيير فالدو (Pierre Valdo) (١١٤٠-١٢١٧)، ترفض تكريم القديسين وسرّ الكهنوت وبعض الاسرار الباقية، وتشدّد على الفقر وصلابة الاخلاق. ولقد قضى على القسم الأكبر منها فرانسوا الأول، لكنّها تعدّ اليوم أكثر من عشرين ألفاً من اتباعها في فرنسا وايطاليا، ولها بعض الكنائس.

١٥ـ الكاتار (Cathares ou Albigeois): الطاهرون: هم ورثة المانويّين الذين، بعد شجبهم، لجأوا الى أرمينيا في آسيا، ثم عادوا الى أوروبا (ألبانيا، بلغاريا، لومبارديا، وتولوز في فرنسا). يرفضون الاسرار، والطقوس الليتورجيّة، والسلطة الكنسيّة، وحقّ التملّك، وينكرون المطهر وقيامة الموتى. ويحبّذون الانتحار الذي يحرّر النفس من الشرّ. حرمهم مجمع ألبي (Albi) سنة ١١٧٦م، ومجمع اللاتران (Latran) سنة ١١٧٩م، وسنة ١٢١٥م. ولقد تمَّ القضاء عليهم بعد حرب صليبيّة دامت عشرين سنة، أقرّها البابا إينوشنسيوس الثالث سنة ١٢٠٨م، بقيادة سيمون دي مونفور (Simon de Montfort)، ثمّ لويس الثامن.

١٦ـ الويكليفيّة: مذهب الانكليزي جون ويكلف (John Wyclif) (١٣٢٠ـ١٣٨٤)، الذي رفض سلطة الاساقفة، وتكريم القديسين، والطقوس الليتورجية، والنذور، والاستحالة الجوهرية، وضرورة الاعتراف. ولقد حرمته الكنيسة.

١٧ـ الهوسيّة: مذهب جان هوس (Jan Hus) الذي أخذ بتعاليم ويكلف وبتعاليم بيلاج حول الكمال المسيحي. حرمته الكنيسة وأحرق سنة ١٤١٥ مسيحيّة.

١٨ـ الجانسينيّة (Jansénisme): هو المذهب المنسوب الى جانسينيوس (Jansénius) (١٥٨٥ـ١٦٣٨)، اسقف إيبر (Ypres)، المعلن في كتابه "الأغوسطينوس"، والذي يحدّ من حريّة الانسان ويعتبر أن النعمة ضرورية للحياة المسيحية، لكن الله يمنعها عن الذين ليسوا مقدّرين (Prédestinés) للسماء. كذلك يعتبر أن سرّ الافخارستيا لا يُعطى إلاّ للنفوس المتعبّدة وحسب. من انصاره سان سيران وأرنولد وبيير كيني في فرنسا. وقد قام صراع بين اليسوعيين وجماعة بور رويال، ولا تزال كنيسة صغيرة في هولاندا تدين به.

١٩ـ الهدوئيّة (Quiétisme): الكلمة من أصل لاتيني معناها الهدوء. وهو مذهب صوفي يجعل الكمال المسيحي في محبّة اللّه وجمود النفس دون أعمال خارجية وعبادة. وكان لهذا المذهب ممثلون في كلّ العصور، أشهرهم الاسباني مولينوس (Molinos)، وقد نشر، في القرن السابع عشر، كتاباً عن الزهد يجعل من الديانة شيئاً مثالياً صعب الفهم على العامة. امّا في فرنسا فقد تبنّت رأي مولينوس إمرأة شهيرة هي مدام غويون (Guyon) المتعبّدة، وألّفت كتاباً في الموضوع ذاته سنة ١٦٨٥، كما دعمها فينيلون (Fénélon) في كتابه شرح آراء القديسين، فهاجمه بوسّوييه (Bossuet) ومدام دي منتينون (Maintenon)، وحرم البابا كتابه، فاستجاب

فينيلون لنداء البابا واعتزل الحياة العامـــــة، فانطفـــأ المذهب نهائياً ابتداءً من سنة ١٦٩٢ مسيحيّة.

٢٠ـ الحداثة (Modernisme): حركة في الفكر الكاثوليكي معارضة للطريقة القديمة التي كان يمثّلها "الوجوديون" أتباع القديس توما وسكوت. سعت الى تأويل تعـاليم الكنيسـة علـى ضـوء المفـاهيم الفلسـفية والتاريخيـة العصرية. ولقد بَشَّر بها في فرنسا الأب ألفرد لـوازي (Alfred Loisy) (١٨٥٧ــ١٩٤٠)، وفي المانيـــا الأب فرنسوا ــ كسـافييه كـروس (François-Xavier Kraus) (١٨٤٠ـ١٩٠١)، وفي ايطاليـا الأب رومولـو مـورّي (Romolo Murri) (١٨٧٠ـ١٩٤٤)، وفي انكلـترا الأب جـــورج تـــيرّيل اليســـوعي (Georges Tyrrel) (١٨٦١ـ١٩٠٩). حرمهـا البابـا بيـوس العاشـر في رسـالته (Pascendi) في الثـامن مـن شـهر ايلـول سـنة ١٩٠٧ مسيحية.

٢١ـ البلماريّون (Palmaristes): هم تبّاع كِليمنضـــوس دومينغيز غوميز (Clemente Dominquez Gomez) الـذي آمن بظهورات بالمـار دي تروبـا (Palmar de Troya)، والذي حرمه رئيس اساقفة سيفيلاّ (Sévilla) في اسبانيا سنة ١٩٦٩ مسيحيّة. لهم سلطة اسـقفية وعـددٌ كبـيرٌ من الكهنة ابتداءً من الحادي عشـر مـن شـهر كـانون

الثاني سنة ١٩٧٦م. وعند وفاة البابا بولس السادس سنة ١٩٧٨ أعلن نفسه المطران دومينغيز بابا باسم غريغوريوس الثامن عشر وحرم البابا يوحنا بولس الثاني. حالياً يعدّون أكثر من ٤٣ اسقفاً انفصالياً.

ملحق ثالث

آباء الكنيسة وملافنتها

Pères et Docteurs de l'Eglise

لقد طُرح علينا هذا السؤال مراراً: ما الفرق بين آباء الكنيسة وملافنة الكنيسة؟ ولافادة القاريء نثبت هذا الملحق الثالث التوضيحي ونقول:

أولاً: هناك أربعة شروط للأبوّة، هي: الأرثوذكسيّة او صحّة المعتقد واستقامته (Doctrina Orthodoxa)، وقداسة السيرة (Sanctitas Vitae)، وموافقة الكنيسة (Approbatio Ecclesiae)، والاقدمية الزمنية لغاية سنة ٧٥٠ مسيحية (Antiquitas).

ثانياً: أمّا شروط الملفنة فهي خمسة: الارثوذكسية (Doctrina Orthodoxa) ، وقداسة السيرة (Sanctitas Vitae)، وموافقة الكنيسة (Approbatio Ecclesiae)، والعلم الفائق والشامل (Eminens Eruditio)، واعلان السلطة الكنسية الصريح والعلني (Expressa Ecclesiae Declaratio).

الآباء

(+١٠٧) اغناطيوس الانطاكي

Ignace d'Antioche

(١٠٠-١٤٥) يوستينوس الروماني

Justin de Rome

(٢٠٠-٢٥٨) قبريانوس القرطاجي

Cyprien de Carthage

(٢٩٥-٣٧٣) أثناسيوس الاسكندري

Athanase d'Alexandrie

(٣١٥-٣٦٧) هيلاريوس اسقف بواتييه

Hilaire de Poitiers

(٣٢٩-٣٧٩) باسيليوس الكبير

Basile le Grand

(٣٣٠-٣٩٠) غريغوريوس النزينزي

Grégoire de Nazianze

(٣٣٥-٣٩٤) غريغوريوس النيصي

Grégoire de Nysse

(٣٤٠-٣٩٧) امبروسيوس اسقف ميلان

Ambroise de Milan

(٣٤٠-٤٠٧) يوحنا الذهبي الفمّ

Jean Chrysostome

(٣٤٧-٤٢٠) ايرونيموس الروماني

Jérôme de Rome

(٣٥٤-٤٣٠) أغوسطينوس القرطاجي

Augustin de Carthage

(٥٤٠-٦٠٤) غريغوريوس الكبير

Grégoire le Grand

(٦٧٣-٧٣٥) باد المكرّم

Bède le Vénérable

(٦٧٥-٧٤٩) يوحنا الدمشقي

Jean Damascène

الملافنة

تاريخ اعلان الكنيسة

(٢٩٥-٣٧٣) أثناسيوس الاسكندري القرن الرابع

Athanase d'Alexandrie

(٣٠٦-٣٧٣) أفرام السرياني ١٩٢٠

Ephrem le Syriaque

(٣١٥-٣٦٧) هيلاريوس اسقف بواتييه ١٨٥١

Hilaire de Poitiers

(٣١٥-٣٨٦) كيريلّوس الاورشليمي ١٨٩٣

Cyrille de Jérusalem

(٣٢٩-٣٧٩) باسيليوس الكبير القرن الرابع

Basile le Grand

(٣٣٠-٣٩٠) غريغوريوس النزينزي القرن الرابع

Grégoire de Nazianze

(٣٤٠-٣٩٧) أمبروسيوس اسقف ميلان القرن الرابع

Ambroise de Milan

(٣٤٠-٤٠٧) يوحنا الذهبي الفم القرن الرابع

Jean Chrysostome

(٣٤٧-٤٢٠) ايرونيموس الروماني القرن الرابع

Jérôme de Rome

(٣٥٤-٤٣٠) أغوسطينوس القرطاجي القرن الرابع

Augustin de Carthage

(٣٨٠-٤٤٤) كيريلّوس الاسكندري ١٨٩٣

Cyrille d'Alexandrie

(٤٠٦-٤٥٠) بطرس الذهبي اللسان ١٧٢٩

Pierre Chrysologue

(+٤٦١) لاوون الكبير ١٧٥٤

Léon le Grand

(٥١٠-٥٩٨)	ليندروس السفيلي	القرن السادس
	Léandre de Séville	
(٥٤٠-٦٠٤)	غريغوريوس الكبير	القرن السادس
	Grégoire le Grand	
(٥٦٠-٦٣٦)	إزيدوروس السفيلي	١٧٢٢
	Isidore de Séville	
(٥٨٠-٦٣٣)	فولجنسيوس الإشيخي	القرن السابع
	Fulgence d'Ecija	
(٦٠٠-٦٦٧)	إيلديفونس	القرن السابع
	Ildefonse	
(٦٧٣-٧٣٥)	بادُ المكرّم	١٨٩٩
	Bède le Vénérable	
(٦٧٥-٧٤٩)	يوحنّا الدمشقي	١٨٩٣
	Jean Damascène	
(١٠٠٧-١٠٧٢)	بطرس دميانوس	١٨٢٨
	Pierre Damien	
(١٠٣٣-١١٠٩)	انسلموس كنتربري	١٧٢٠
	Anselme de Cantorbéry	
(١٠٩٠-١١٥٣)	برنردوس الكبير	١٨٣٠
	Bernard de Clairvaux	
(١١٩٣-١٢٨٠)	ألبرتوس الكبير	١٩٣٨
	Albert le Grand	

(١١٩٥-١٢٣١)	انطونيوس البادواني	١٩٤٦
	Antoine de Padoue	
(١٢٢١-١٢٧٤)	بونافنتورا الايطالي	١٥٨٨
	Bonaventure d'Italie	
(١٢٢٥-١٢٧٤)	توما الأكويني	١٥٦٧
	Thomas d'Aquin	
(١٣٤٧-١٣٨٠)	كاترينا السيانيّة	١٩٧٠
	Catherine de Sienne	
(١٥١٥-١٥٨٢)	تريزيا الأفيليّة	١٩٧٠
	Thérèse d'Avila	
(١٥٢١-١٥٩٧)	بطرس كازينيوس	١٩٢٥
	Pierre Casinius	
(١٥٤٢-١٥٩١)	يوحنا الصليبي	١٩٢٦
	Jean de la Croix	
(١٥٤٢-١٦٢١)	روبيرتوس بلارمينو	١٩٣١
	Robert Bellarmin	
(١٥٥٩-١٦٢٠)	لورنسيوس البرندي	١٩٥٩
	Laurent de Brindes	
(١٥٦٧-١٦٢٢)	فرنسيس السالسي	١٨٧٧
	François de Sales	
(١٦٩٦-١٧٨٧)	ألفونس دي ليغوري	١٨٧١
	Alphonse de Liguori	

حاشية: وكما هو ملاحظ هناك آباء هم في الوقت نفسه ملافنة بينما آخرون ليسوا كذلك، والعكس بالعكس، رغم الأقدمية الزمنيّة، مثل مار افرام السرياني وكيريلّوس الاورشليمي وغيرهما. والأمر يعود لموافقة الكنيسة ولاعلانها الصريح.

ملحق رابع

نثبت هنا ترجمة بعض كلمات وردت في هذا الكتاب او سترد في هذه الموسوعة مع شرحها تعميماً للفائدة:

١- الدفاعيون (Apologistes): اسم أطلق على أناس كانوا يتوجهون بكتاباتهم الى الملوك والحكام والمنفذين دفاعاً عن الايمان، فهم محامو الايمان المسيحي.

٢- الإكزومولوجيز (Exhomologèse): هو الاعتراف العلني أمام الجمهور وقبول العقوبة المفروضة.

٣- باتريباسيان (Patripatiens): القائلون بصلب الآب بدلاً من صلب الأقنوم الثاني، السيد المسيح.

٤- البيغار (Bégards): اسم أطلق على الهراطقة الذين ظهروا في القرن الثالث عشر وكانوا يرتدون لباساً على الرأس يحمل هذا الاسم ويعيشون من الاحسان.

٥- الدياسبورا (Diaspora): كلمة تعني الشتات. والمقصود بذلك اليهود المشتتين خارج فلسطين لأسباب سياسية (إبعاد او نفي Déportation)، أو لأسباب اقتصادية (الهجرة Emigration).

٦ـ ماركيون (Marcion): هو تاجر غني من سينوب (Sinope) على ضفاف البحر الأسود. أسّس كنيسة خاصة في روما سنة ١٤٦ مسيحية. ولقد تأثر بالخلاف القائم بين العهد الجديد والعهد القديم فرفض العهد القديم لأنه وجد فيه تناقضاً "بين إله العهد الجديد، إله المحبة الذي ظهر لنا بشخص يسوع، وبين إله العهد القديم، إله الحقد والجريمة، خالق عالم الشرّ". ولقد حارب تعليمه وعقيدته ترتوليانوس.

٧ـ المونار كيانية (Monarchianisme): هو المذهب الكاثوليكي المستقيم القائل بوحدة الله في الاقانيم الثلاثة دون جعلهم ثلاثة آلهة او إخضاع أحد الأقانيم للآخر.

٨ـ الموعوظية (Catéchuménat): هي المدّة التي كان يحتاجها المقبل على اعتناق الديانة المسيحية ليصبح أهلاً لتقبّل الأسرار، إذ كان عليه ان يخضع لتجارب وتعاليم خاصة بالموعوظين، ولم يكن من حقّه حضور القداس بكامله بل القسم الاول منه.

٩ـ الميتانويا (Métanoia): تعني الارتداد والتوبة، وهما تبديل تام في المواقف الفكرية والقناعات الوجدانية والحياة المعيوشة.

١٠ـ الألفيّة (Millénarisme): هو مذهب بعض الكتاب المسيحيين من القرون الاولى للمسيحية وبعض الهرطقات

اللاحقة التي كانت تؤمن ان المسيح سيعود الى الأرض ليملك مدّة ألف سنة قبل قيامة الموتى.

١١- المحسوبية (Népotisme): امتياز كان يتمتّع به، لدى البابوات، اولاد (ابناء الأخوة) او انسباؤهم، بشكل خاص، او عائلاتهم بشكل عام. وهو يعني، في النهاية، استعمال السلطة لمصلحة الأقارب.

١٢- التصوّف أو الصوفية (Mysticisme): هو حالة تختبر فيها النفس الله اختباراً مباشراً. وفي رأي برغسون Bergson المتصوّف هو من يفتح طريق الدين الديناميكي ويرى الله مباشرة، أو على الأقل يدركه بواسطة تماس مباشر داخلي. والعقل عاجز عن ادراك الله، فالله لا يدرك إلاّ بواسطة حدس. والمتصوف يجد في تعاليم اللاهوتيين الألفاظ والصور التي يمكنه ان يترجم بواسطتها ما يشعر به ويشاهده داخلياً. أمّا التجربة الصوفية فلا تقدم لنا أية معلومات عن طبيعة الله. فالله محبة، وهو موضوع المحبة، ومحبة الله ليست شيئاً من الله، بل هي الله ذاته.

١٣- الاسميّة (Nominalisme): او المذهب الاسمي، وهو يقول ان الكلمة الكليّة مجرّد اسم ولا مسمّى له في ذاته، أي أنها إسم لا يشير الى "تصوّر" في عقل الإنسان (كما هو مذهب التصوّريين وعلى رأسهم أرسطو)، ولا هي

تشير الى مسمّى في الكون الخارجي (كما هو مذهـــب الواقعيين وعلى رأسهم افلاطون).

١٤ـ الأوكّاميّة (Occamisme): المذهب المنسوب الى غيّوم دوكام، وهو راهب فرنسيسكاني انكليزي من أشهر علماء اللاهوت المدرسي وأكبر المدافعين عن مذهب الأسمية، وقد لقب بالدكتور الذي لا يقهر، وهو أبو المذهب الاختباري الذي يعتبر ان كل معرفة تقوم على التجربة.

١٥ـ الأنغليكانية (Anglicanisme): الديانة الرسمية لانكليترّا. ويعود تاريخها الى الملك هنري الثامن الذي قطع علاقته بالبابا لأنه لم يوافق على فسخ زواجه من كاترين داراغون. والملك هو رئيس الكنيسة الانغليكانية. ومع ان اعضاء هذه الكنيسة اعتنق بعضهم البروتستانتيّة، فانها حافظت على نقاط التقاء كثيرة مع الكنيسة الكاثوليكية، واهمها تسلسل السلطة.

١٦ـ الأوفكليرونغ (Aufklerung): عصر الانوار، وهو تيّار فكري كان سائداً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في فرنسا وأهم ممثليه فولتير والموسوعيون.

١٧ـ سان ـ بارتيليمي (Saint-Barthélemy): هي مذبحة البروتستانت ايام شارل التاسع في فرنسا بأمر كاترين دي ميديسيس وآل غيز ليلة ٢٣ آب ١٥٧٢. وقد

حدثت المذبحة في اليوم الثاني لاحتفالات زواج هنري دي نافار الذي أصبح هنري الرابع، ومارغريت أخت شارل التاسع. وبدأت المذبحة في باريس على قرع الاجراس. وكانت نتيجتها الحرب الأهلية الخامسة.

١٨- الدروينّية (Darwinisme): نسبة الى مذهب داروين البيولوجي والفلسفي. والدروينية تعني، في مقابل التطورية العامة، مذهب الاستحالة الذي يقول بأن الانواع يخرج واحدها من الآخر، وبان النوع الانساني خرج من الانواع الحيوانية، ولكن دون عرض فرضية عن أصل الحياة او الاتجاه العام لنموّها.

١٩- زوينكل (Zwingle): هو اورليك زوينكل. مصلح سويسري، ولد في ولدهاوس قرب سان جيل. دعا الى إلغاء عزوبية الكاهن والقداس. إجتاح مذهبه قسماً كبيراً من سويسرا. وبعد موته إنضمّ اتباعه الى اتباع كالفن ولوثير (١٤٨٤ - ١٥٣١).

٢٠- كالفن (Calvin): هو جان كالفن المولود في نوايون وناشر الاصلاح في فرنسا وسويسرا، ورئيس الكلفينيين. مات في جنيف بعد أن أقام جمهورية بروتستانتيَّة (١٥٠٩ - ١٥٦٤). يمتاز مذهبه عن المذاهب البروتستانتية بديمقراطية السلطة الدينية وإلغاء الاحتفالات، ونفي التقليد المطلق وعقيدة الاختيار

وقبول العماد والعشاء السرّي من الأسرار، ويطلق على اتباعه إسم هوغونوت في فرنسا. مذهبه منتشر في سويسرا وهولاندا وهنغاريا.

٢١ـ الكوريا الرومانية (La curie romaine): لقد تمّ تنظيم هذه المؤسسة منذ أوّل كانون الثاني سنة ١٩٦٨، وهي تشمل مجامع ومحاكم ومكاتب وأمانات سرّ. فالمجامع متساوية في الحقوق فيما بينها. وتتألف من أعضاء كرادلة وأساقفة يسمّيهم البابا لمدّة خمس سنوات، والاساقفة المقيمون يشتركون في الاجتماعات ويتمتعون بكامل الحقوق ومنها معالجة أهم القضايا وتحديد الاتجاهات الكبرى (حضورهم ليس ضرورياً في روما إلاّ مرة واحدة في السنة). وعلى رأس كلّ مجمع كردينال مدير ونائب مدير وسكرتير ونائب سكرتير يعيّنهم البابا لمدّة خمس سنوات. يساعدهم مستشارون يسمّيهم البابا أيضاً لمدّة خمس سنوات ويختارهم من الاساقفة والكهنة والرهبان والعلمانيين حسب طبيعة الاعمال في كل مجمع. وما تزال اللغة اللاتينيّة لغة المجامع الرسمية، انما يمكن استعمال اللغات الحديثة. ومن واجبات الكردينال سكرتير البابا (أمين سرّ الدولة البابوية) ان يجمع مدراء المجامع بشكل دوري فيؤلفون مجلساً استشارياً وزارياً.

٢٢ـ سكرتاريا البابا: ومجلس المشورة لشؤون الكنيسة العامة. سكرتارية البابا، او أمانة سرّ الدولة البابوية، انه أرفع تنظيم في الكوريا. يرأسه الكردينال امين سرّ الدولة ويساعده معاون ووكيل. والسكريتارية تحت تصرّف البابا لكل المهام التي يعهد بها اليها. فهي تؤمن العلاقات مع المنظمات الاخرى في الكوريا وعلاقات البابا مع الأساقفة ومع السفراء ومع الحكومات وسفرائها ومع الأفراد. يرتبط بها مكتبان للرسائل والوثائق البابوية، ومكتب لجمع المعلومات واقوال الصحف، ومكتب الاستشارات الاجتماعية، ومكتب للاحصاء، ومكتب حكومة الفاتيكان، ومجلس استشاري لقضايا الكنيسة العامة.

٢٣ـ المجامع الرومانية: مجمع الايمان المقدس الذي يسهر على نقاء العقيدة والاخلاق. ومجمع الكنائس الشرقية وهو المسؤول عن جميع القضايا العائدة للأفراد والنظام والطقوس في الكنائس الشرقية المرتبطة بروما. ومجمع الاساقفة ويشمل المكتب الاستشاري لقضايا الكنيسة العامة ومدراء المكاتب والاساقفة وتنظيم الابرشيات، والتعليم المسيحي، والاكليروس. ومجمع الاسرار المقدسة ويشمل كل ما له علاقة بقبول الاسرار وادارتها والاحتفال بالقربان المقدس وسيامة الكهنة. ومجمع الطقوس، ومجمع الاكليروس، ومجمع الرهبان،

والمؤسسات العلمانية، ومجمع التنشئة الكاثوليكية ويهتم بالاكليريكيات والمدارس. ومجمع نشر الايمان ويهتم بنشر الايمان المسيحي بين الأمم.

٢٤ـ امانة سرّ والمجالس الاستشارية: أمانة سرّ الوحدة المسيحية، أمانة سرّ غير المسيحيين وتشمل قسما خاصا بالمسلمين، أمانة سرّ غير المؤمنين، المجلس الاستشاري للعلمانيين، البعثة البابوية للعدالة والسلام وتهتم بمساعدة المظلومين والفقراء في العالم الثالث.

٢٥ـ المحاكم: المحكمة العليا للأختام الرسولية وفيها غرفة استئناف وتمييز، وغرفة ادارية. ومحكمة الروتا وتختص بقضايا الزواج. والمحكمة الرسولية وتختص بالقضايا الضميرية.

٢٦ـ المكاتب: مكتب الاختام وهو المكلّف بالبريد وتوزيع الوثائق البابوية، المكتب الرسولي ومهمّته المحافظة على ممتلكات الكرسي الرسولي في الفترة الممتدّة بين وفاة البابا وانتخاب خلف له، مكتب تموين الكرسي الرسولي وهو المسؤول عن ادارة املاك الكرسي الرسولي، مديريّة المال وهي شبيهة بديوان المحاسبات يرأسها ثلاثة كرادلة، مكتب الاحصاء، مكتب مدير القصر الرسولي وهو المكلّف بادارة الخدمات العامة والاحتفالات في القصر وتنظيم المقابلات.

ملحق خامس

الألفاظ اليونانية والسريانية المتداولة كنسيًّا

١- **أبدياقون**: يونانية. وهي درجة دون الشمّاسية، وتسمّى درجة الشدياقية.

٢- **أبرشية**: يونانية. وهي ولاية الأسقف الكنسيَّة.

٣- **أرخيدياقون**: يونانية. تعني رئيس الشمامسة، وهي درجة دون درجة الكاهن.

٤- **أسقف**: يونانية. تعني الرقيب والناظر. والاسقف هو رئيس الكهنة الذي يتولّى تدبير الابرشية ويراقب أمورها الدينيّة.

٥- **أمولوغيا**: يونانية. تعني الاقرار والاعتراف. وهو كتاب الاعتراف بصحة الايمان والمعتقد يوقّعه البطريرك الجديد قبل تقليده الرتبة، والاسقف قبل سيامته وتوليته درجة الاسقفية.

٦- **أنبا**: يونانية. وتعني الأب. وتطلق خاصة على رئيس الدير. أمّا الاقباط فيطلقونها على البطاركة والاساقفة ولكن بادخال لام التعريف عليها.

٧ـ أنتيفونا: يونانية. وهي أبيات صلوات يتلوها الكهنـــة ويردّدها الشعب بعدهم.

٨ـ باعوث: سريانية وتعني طلبة. وهي أبيات شعرية على أوزان ثلاثة تتلـى يوميـاً في اثنـاء صـلاة الفـرض. ولقـد عرفها البعض بصلاة الاستسقاء او الاستمطار. ويطلقها نصارى العراق على صوم نينوى، وبعض نصـارى بـلاد الشام على حفلة دينية لبعض اعيادهم.

٩ـ برديوط: يونانية. وتعني نائب الأسقف او كبير الكهنة. وقد يسمّى بالسريانية الساعور وهـو الراهـب القسّـيس الذي يوفده الأسقف في بعض مهام الرعية.

١٠ـ بسالطوس: يونانيـة. وتعني المرتـل. وهـي أصغـر الدرجات الكنسيّة.

١١ـ بطريرك: يونانية. وتعني رئيس الآباء، وهـو رئيـس رؤساء الاساقفة.

١٢ـ بيت كاز: سريانية. وتعني مخزناً يراد به عند السريان مجموعة الاناشيد الكنسيَّة.

١٣ـ تبرة: سريانية. بيت من الشعر يتلى في مقدمـــة كل باعوث.

١٤ـ تكشفت: سريانية. وتعني ابتهال. وهو نـــوع مـــن الأناشيد السريانية المنثورة وضعها رابولا مطران الرها.

١٥ـ ترجام: سريانية. وتعني خطبة يفسر فيها فصل الانجيل الذي سبقت تلاوته.

١٦ـ تسبحة: سريانية. وتعني التسبيح والتمجيد. وهـــي صلاة تتلى في صلاة الليل يومياً.

١٧ـ جاثليق: يونانية. وتعني العام الكلّي. وهي رتبـــة دون البطريرك وفوق الاسقف.

١٨ـ حبيس: سريانية. وهو ناسك حبس نفسه في صومعة تعبّداً لله.

١٩ـ ختّام: سريانية. وتعني خاتمة. وهو بيت من الشعر يتلوه الكاهن في آخر الصلوات والقداس.

٢٠ـ حسّاية: سريانية. وتعني استغفار وغفران. وهي صلاة منثورة مسهبة يُتلى منها في القداس والصلـوات وايـام الآحاد والاعياد والصيام.

٢١ـ خرونيقون: يونانية. تاريخ يومي تدوّن فيه الاحداث سنة فسنة.

٢٢ـ خورابسقوبوس: يونانية. وتعني أسقف الكورة، ولقد خفّفت فقيل خوري. والمقصود بها اليوم مقدّم الكهنة

عند البعض، وعند البعض الآخر في بلاد الشام الكاهن على الاطلاق.

٢٣ـ دبختا: يونانية. تعني ذو اللوحين، وهو لوح كانت تسجّل فيه اسماء أئمّة الدين المتوفين والاحياء. وكان يتلى في اثناء القداس في الايام الحافلة، ويعرف عند السريان بسفر الاحياء او الحياة. وقد أهمل بعدئذٍ.

٢٤ـ دنح: سريانية. وتعني الظهور. ويراد بها عيد الغطاس.

٢٥ـ ديدسقاليا: يونانية. وتعني دار التعليم. اعطيت لمدرسة الاسكندرية اللاهوتية التي أُنشئت سنة ١٨٠ مسيحية، ثم أطلقت اصطلاحاً على مجموعة السنن والرسوم المنسوبة الى الرسل الاطهار وتلامذتهم.

٢٦ـ دير: سريانية. مسكن الرهبان الذين يتعبّدون لله ويتفرّغون للصلاة والتأمل.

٢٧ـ ربّان: سريانية. وتعني الاستاذ. ولقد اريد بها اصطلاحاً الراهب القسيس.

٢٨ـ زومار: سريانية. وتعني ترتيل. وهي آية من مزامير داود النبي يلحق بها جملة منظومة تتلى قبل الانجيل.

٢٩ـ سوبار: سريانية. تبشير. يراد بذلك ايـــام صيـــام وميلاد السيد المسيح في مدينة الموصل وجوارها، حيث تنشد الادعية بمولده حسب الجسد.

٣٠ـ ستيخارا: يونانية. نوع من الأناشيد البيعيّة وضعهـــا القديس يوحنا فم الذهب.

٣١ـ سدر: سريانية. بكسر السين وتسكين الدال، ومعناها ترتيب، وهو الجزء الثاني من صلاة الحسّاية.

٣٢ـ سطيخون: يونانية. اصلها ستيخون ومعناهـــا بيـــت شعر، وهي صنف منثور من الأناشـيد دبّجـه القديـس كيريلّوس الأورشليمي.

٣٣ـ سوسطاثيقون: يونانية. كتاب العهد اي تقليد الولاية للاسقف يكتبه البطريرك.

٣٤ـ سونتزنيس: يونانية. الاجلاس على كرسي الاسقفية او على العرش البطريركـي، وهـي حفلـة تقـام للحـبر الجديد عند دخوله الى ابرشيته.

٣٥ـ سيامة: سريانية. تقليد اصحاب الدرجات الكهنوتية والاسقفية حق القيام بوظائفها، وتعني وضـع اليـد مـن قبل الاسقف على رأس المرسوم.

٣٦ـ شحيم: سريانية. باسكان الشين ومعناها البسيط، وهو اسم لكتاب فرض الصلوات اليومية التي تكرّر اسبوعياً.

٣٧ـ شمّاس: سريانية. وتعني الخادم. وهو دون القسيس ومعاونه في اثناء القيام بحق العبادة والخدم الكهنوتية.

٣٨ـ شملاية: سريانية. وتعني تكميل واتمام. وهي احدى ستة ادعية يتلوها الشماس في اثناء القداس ذكراً للأحياء والموتى.

٣٩ـ شوباح: سريانية. التسبيح. نوع من الاناشيد المنثورة التي تتلى في اثناء خدمة القربان.

٤٠ـ طقس: يونانية. نظام وترتيب. وفي العرف الكنسي يطلق على شعائر الديانة وحفلاتها.

٤١ـ طروفوريون: يونانية. طروبارية. نوع من الأناشيد النثرية استنبطت في اواسط القرن الخامس مسيحي.

٤٢ـ عدّان: سريانية. وقت، أوان. اهل الشام يستعملونها بهذا المعنى ويراد بها الصلوات التي تقام في نوبات متتابعة فيقال: العدّان الاول والثاني... ويقابلها القومة.

٤٣- عِقْب: سريانية. بكسر العين. وتعني نهاية. وهو دعاء يلي دعاء العطر.

٤٤- عنيان: سريانية. وتعني جواب. وهي ترتيلة تعاد.

٤٥- غنيز: سريانية. باسكان الغين والابتداء بالساكن، وتعني خفي، محجوب. وهو نشيد منشور يشابه التكشفت.

٤٦- فردا: سريانية. قطعة فصل وهي انشودة صغيرة.

٤٧- فروميّون: يونانية. فاتحة مقدسة، يسمّى بها الجزء الاول من صلاة الاستغفار.

٤٨- فنقيت: سريانية. وتعني مجلّد والمجموع العام. اسم احد كتب الفرض اي الصلاة على الاطلاق.

٤٩- قاثسما: يونانية. واصلها كاثسما، ومعناها مجالس نوع من التراتيل البيعيّة المنثورة.

٥٠- قال: سريانية. قول وصوت. وهو ترتيلة منظومة تنشد بلحن خاص من الاول الى الثامن.

٥١- قانون: يونانية. قانون، نظام تسبيح بيعي منثور استنبطه اندراوس الكريتي حوالي سنة ٧٠٠ مسيحية، وعمّ استعماله.

٥٢ـ قداس: سريانية. تقدمة القربان الالهي، او الذبيحة الالهية، او الصلوات التي تتلى على الخبز والخمر لتقديسها.

٥٣ـ قس وقسّيس: سريانية. بفتح القاف. وتعني الشيخ الذي يقلّد خدمة الكهنوت في الكنيسة المسيحية.

٥٤ـ كلندار: يونانية. لائحة الفصول والشهور والايام واعياد السنة.

٥٥ـ كوراخ: سريانية. ترتيلة وجيزة او لحن ينتابه الصفان في البيعة.

٥٦ـ كوروزوثا: سريانية. وتعني مناداة او انذار. وهي نشيد منظوم كان يتلى في الاعياد الحافلة قبل قراءة الانجيل اذا قرأه الاسقف ومن فوقه. ومن هذه اللفظة فعل كرز الذي يستعمله بعض كتبة النصرانية بمعنى بشّر بالدين ونادى به ودعا اليه.

٥٧ـ ليتورجيا: يونانية. الخدمة الجمهورية. وهي مجموع صلوات القداس ويقال لها ايضاً أنافورا وهي لفظ يوناني معناه رفع القربان.

٥٨ـ مار: سريانية. وتعني سيّدي. وتطلق على القديسين والبطاركة والاساقفة.

٥٩ـ مدراش: سريانية. ترتيل، نشيد. وهو شعر يصاغ على اوزان مختلفة والحان شتّى بلغ عددها الخمسماية. دبّجها القديس افرام السرياني (+٣٧٣)، وقد استنبطها برديصان (+٢٢٢).

٦٠ـ مدبرونوث: سريانية. وتعني تدبير وسياسة. عناية الله. ويراد بها هنا ما اقتضته سياسة السيد المسيح بالنسبة الى خلاص البشر.

٦١ـ مرميث: سريانية. تعني أصلاً شيء يرمى به. وهي صلاة وجيزة وقسم من المزامير متفاوت العدد أكثره ١٤ وأقلّه ٤ مزامير.

٦٢ـ مسحة: سريانية. زيت مقدس يدهن به المعتمدون والمرضى.

٦٣ـ مطران: يونانية. اصلها متروبوليت ومعناها رئيس العاصمة. يراد به الاسقف او رئيس الاساقفة المقيم في مدينة كبيرة.

٦٤ـ معبران: سريانية. ضرب من الاناشيد السريانية المنثورة ترتل في تشييع الجنائز.

٦٥ـ معذعذان: سريانية. باسكان الميم. عيد حافل. وهو اسم كتاب يشتمل على الأدعية التي تتلى في حفلات الاعياد الكبرى.

٦٦- معنيث: سريانية. اغنية. ترتيلة. وهي نشيد منثور يجري على الألحان الثمانية. يفتتح بآية من الكتاب المقدس ويقال له باليونانية أكطويخس ومعناه ذات الالحان الثمانية، وربما اراد به القدماء النشيد على الاطلاق.

٦٧- مفريان: سريانية. وتعني المثمر. وهو اسم لصاحب رتبة كنسيّة خاصة بالكنيسة السريانية مرادفة للجاثليق، وهو دون البطريرك وفوق الاسقف. وكان كرسيه في تكريت ثم نقل الى دير مار متى فالموصل.

٦٨- ملفان: سريانية. وتعني المعلم والاستاذ. يراد به أحد أئـمّة النصرانية وعلمائها. والملفنة تعني الدكتوراه.

٦٩- موربو: سريانية. وتعني تعظيم. وهي اللفظة الاولى من نشيد العذراء مريم "تعظم نفسي الرب"، وهو ترتيل منثور يدور على الحان ثمانية ويرنم به يومياً. ويعني ايضاً نشائد التعظيم.

٧٠- ميرون: يونانية. بفتح الميم وكسرها. واصله باليونانية مورون. وهو زيت مقدس ممزوج بالبلسم ومعطر بطيوب. تمسح به الهياكل والمذابح الجديدة، وكذلك يستعمل في سيامة الاساقفة والكهنة.

٧١- ميمر: سريانية. مقالة. خطبة. قصيدة.

٧٢- ناقوس: سريانية. مضراب المسيحيين كانوا يدقّون به لاوقات صلواتهم. وهذا التحديد ينطبق على الناقوس القديم وهو قطعة من خشب صلب او حديد تعلق فتضرب بمطرقة خشب او حديد. وقد استبدل بالجرس النحاسي في ما بعد كما نرى ذلك اليوم.

٧٣- هيكل: سريانية. موضع في صدر الكنيسة يصلّي فيه الاكليروس عند تقدمة القربان. وربّما اطلقه بعضهم على بناء الكنيسة كلها او صحنها، وجمعها هياكل.

المراجع

Arbesmann, R. Fasting and Prophecy in Pagan and Christian Antiquity: Traditio 7 (1949), pp. 32-71.

Bardy, G. Le sacerdoce chrétien d'après Tertullien: VS 58 (1939), pp. 109-124.

Bardy, G. Tertullien, apologiste et théologien: DTC, t.15, 1ère partie, Paris, 1946, col. 130-171.

Batiffol, P. L'Eucharistie. La présence réelle et la transsubstantiation, 9ème éd., Paris, 1930, pp. 204-226.

Bayard, L. Tertullien et Saint Cyprien (coll. des moralistes chrétiens), Paris, 1930.

Becker, C. Tertullians Apologeticum. Werden und Leistung. Diss. München, 1954.

Bedard, W. The Symbolism of the Baptismal Font in Early Christian Thought. Diss. Washington, 1951.

Bellis, M. Levantes puras manus nell'antica letteratura cristiana: Ricerche di Storia Religiosa I (1954), pp. 9-49.

Berleigh, J.H.S. The Doctrine of the Holy Spirit in the Latin Fathers: Scottish Journal of Theology 7 (1954), pp. 113-132.

Braun, R. Deus Christianorum. Recherches sur le vocabulaire doctrinal de Tertullien. Paris, 1977.

Breton, J. Tertullien le schismatique, Paris, 1928.

Borleffs, J.W. La valeur du Codex Trecensis de Tertullien pour la critique de texte dans le traité De Baptismo: VC 2 (1948), pp. 185-200.

Borleffs, J.W. Ph. Observationes criticae ad Tertulliani Ad Nationes libros: Mnem 56 (1928), pp. 193-201, 225-242; 57 (1929), pp. 1-51.

Borleffs, J. W. Ph. Libri De Patientia, De Baptismo, De Paenitentia (Scriptores christiani primaevi 4). La Haye, 1948.

Bosshart, E. Essai sur l'originalité et la probité de Tertullien dans son traité contre Marcion. Lausane, 1921.

Braun, B. Note sur Tertullien, De cultu feminarum, II, 6, 4: SE 7 (1955), pp. 35-48.

Brisson, J. P. Autonomisme et Christianisme dans l'Afrique romaine de Septime Sévère à l'invasion vandale. Paris, 1958.

Buonaiuti, E. L'Antiscorpionico di Tertulliano: RR 3 (1927) pp. 146-152.

Camelot, P. Th. "Spiritus a Deo et Filio" (Tertullien, Ad Prax. 8) RSPT 33(1949), pp. 31-33.

Cataudella, Q. Il mentello di sagezza. De Pallio. Testo crit. vers. e note. Genua, 1947.

Chartier, C. L'excommunication ecclésiastique d'après les écrits de Tertullien: Antonianum 10 (1935), pp. 301-344, 499-536.

Colombo, S. Concetto e forma nello stilo di Tertulliano: Didaskaleion (1926) 1, pp. 1-17.

Cortellezzi, Gr. Il concetto della donna nelle opere di Tertulliano: Didaskaleion (1923) 1, pp. 5-29; 2, 57-79; 3, 43-100.

D'Alès, A. La théologie de Tertullien. Paris, 1905.

D'Alès, A. L'Edit de Calliste. Paris, 1914, pp. 136-171: Le traité de Tertullien De Paenitentia.

Daly, C.B. The Sacrament of Penance in Tertullian: IER 69 (1947), pp. 693-707, 815-821; 70 (1948), pp. 731-746, 832-848.

Daniélou, J. Les origines du christianisme latin. Paris, 1978.

De Backer, E. Sacramentum. Le mot et l'idée représentée par lui dans les œuvres de Tertullien. Louvain, 1911.

De Labriolle, P. Tertullien. De Praescriptione Haereticorum. Texte latin et traduction française. Paris, 1907.

De Labriolle, P. De Paenitentia, De Pudicitia. Texte et traduction. (Textes et documents, publ. par H. Hemmer et P. Lejay). Paris, 1906.

Delazer, J. De insolubilitate matrimonii iuxta Tertullianum: Antonianum 7 (1932), pp. 441-464.

De Plinval, G. Tertullien et le scandale de la Couronne: Mélanges de Ghellinck. Gembloux, 1951, pp. 183-188.

De Vitte, L. L'argument de prescription et Tertullien (Collectanea Mechliniensa 3). Malines, 1936.

Evans, E. Tertullian's Theological Terminology: ChQ 139 (1944-1945), pp. 56-77.

Evans, E. Tertullian Ad Nationes: VC 9 (1955), pp. 37-44.

Favre, R. La communication des idiomes dans l'ancienne tradition latine: BLE 17 (1936), pp. 130-145.

Ferron, J. et Lapeyre, G. "Carthage chrétienne", in: R. Aubert et Van Cauwenbergh dir., Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclésiastique, t. XI. Paris, 1948.

Festugière, A.-J. La composition et l'esprit du De Anima de Tertullien: RSPT 33 (1949), pp. 129-161.

Fredouille, J.-C. Tertullien et la conversion de la culture antique. Paris, 1972.

Fredouille, J.-C. Adversus Valentianianos (coll. "Sources chrétiennes", N° 280-281). Cerf, Paris, 1980-1981.

Fruetsaert, E. La réconciliation ecclésiastique vers l'an 200: NRTh (1930), pp. 379-391.

Greenslade, S.L. Tertullien of Carthage: ExpT 44 (1932-1933), pp. 247-252.

Guillard La place de De Pallio dans l'œuvre de Tertullien. Paris, 1935.

Hallock, F.H. Church and State in Tertullian: ChQ 113 (1934), pp. 61-78.

Hamman, A. Guide pratique des Pères de l'Eglise. Desclée de Brouwer, Paris, 1967, pp. 59-70.

Henen, P. L'Apologétique de Tertullien et le Thesaurus linguae latinae: Revue de l'Instruction publique en Belgique (1911), pp. 1-9.

Hitchcock, F.R.M. Tertullian's Views on the Sacrament of the Lord's Supper: ChQ 134 (1942), pp. 21-36.

Koch, H. Virgo Eva- Virgo Maria. Berlin, 1937, pp. 8-17.

Lang, G.T. Tertullian and the Pagan Cults: TP (1913), XXXV sq.

Le Saint, W.P. Treatises on Marriage and Remarriage (ACW 13). Westminster, Md., 1951, pp. 10-36.

Maccarone, M. Vicarius Christi e Vicarius Petri nel periodo patristico: Rivista di Storia della Chiesa in Italia 2 (1948), pp. 1-32.

Mahé, J.-P. De carne Christi (coll. "Sources Chrétiennes", N° 216-217). Cerf, Paris, 1975.

Marra, J. Tertullianus, De Corona (Corpus script. lat. Paravianum 49). Turin, 1927, 1951.

Marra, J. Tertullianus, De cultu feminarum libri duo (Corpus script. lat. Paravianum 54). Turin, 1930, 2ème éd., 1951.

Marra, J. Tertullianus, De fuga in persecutione (Corpus script. lat. Paravianum 59). Turin, 1933.

Martin, J. Tertullianus, Apologeticum. Ed. et adnot. (FP 6). Bonn, 1933.

Mersch, E. Le Corps Mystique du Christ, vol. 2, 2ème éd., Louvain, 1936, pp. 11-15.

Michaud, E. L'Ecclésiologie de Tertullien: Kirchliche Zeitschrift (1905), pp. 262-272.

Moffat, J. Tertullian on the Lord's Prayer: ExpT 18 (1919), pp. 24-41.

Moingt, J. Théologie trinitaire de Tertullien, 4 vol., Paris, 1966 - 1969.

Monceaux, P. Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne, t. I, Tertullian et les origines. Paris, 1901.

Morel, V. Le développement de la "disciplina" sous l'action du Saint-Esprit chez Tertullien: RHE 35 (1939), pp. 243-265.

Moreau, M: De resurrectione mortuorum (coll.: "Les Pères dans la Foi"). Desclée de Brouwer, Paris, 1980.

Morgan, J. The importance of Tertullian in the development of christian dogma. Oxford, 1928.

Moscati, S. Il Mondo dei Fenici. Roma, 1965.

Munier, C. Ad uxorem (coll. "Sources chrétiennes", N°273). Cerf, Paris, 1980.

Nédoncelle, M. Prosopon et persona dans l'antiquité classique: RSRUS 22 (1948), pp. 277-299.

Osborn, E. The beginning of Christian philosophy. Cambridge University Press, 1981.

Pelican, J. The Eschatology of Tertullian: Church History 21 (1953), pp. 108-122.

Pétré, H. Les leçons du "Panem nostrum quotidianum": RSR 38 (1951). Mélanges Lebreton, pp. 63-79.

Peters, S.G. Lire les Pères de l'Eglise. Cours de Patrologie. Desclée de Brouwer, Paris, 1981, pp. 330-358.

Perroud, M. La prescription théologique d'après Tertullien. Montpellier, 1914.

Picard, G.C. La Carthage de Saint Augustin. Paris, 1965.

Picard, G.C. Les Religions de l'Afrique antique. Paris, 1954.

Picard, G.C. Le Monde de Carthage. Paris, 1956.

Plumpe, J.C. Ecclesia Mater: TP (1939), pp. 535-555.

Plumpe, J.C. Mater Ecclescia. An Inquiry into the Concept of the Church as Mother in Early Christianity (SCA 5). Washington, 1943, pp. 45-62.

Plumpe, J.C. Some Little-Known Early Witnesses to Mary's Virginitas in Party: TS 9 (1948), pp. 567-577.

Quacquarelli, A. La persecuzione secondo Tertulliano: Greg 31 (1950), pp.562-589.

Quacquarelli, A. Libertà, peccato e penitenza secondo Tertulliano: Rassegna de Scienze filosofiche 2 (1949), pp. 16-37.

Quasten, J. Initiation aux Pères de l'Eglise, t.II. Tertullien. Cerf, Paris, 1956, pp. 293-403.

Quispel, G. Tertullianus, De Testimonio Animae (Textus minores 18). Leiden, 1952.

Rivière, J. Le dogme de la rédemption. Louvain, 1931, pp. 146-164.

Savio, C.F. Della prescrizione degli eretici. Varallo, 1944.

Schneider, A. Ad nationes (Bibliotheca Helvetica Romana, IX), Institut suisse de Rome, 1968.

Souter, A. Tertullian, Against Praxeas (SPCK). London, 1920.

Spanneut, M. Le stoïcisme des pères de l'Eglise. Paris, 1969.

Stakemeier, B. La dottrina di Tertulliano sul sacramento dell'Eucarestia. Rivista stor. - crit. delle scienze teol. (1909), 199 sq, 265 sq.

Tertullien Le Baptême. Paris, 1976, "Foi Vivante", N° 176.

Tibiletti, C. Tertulliano e la dottrina dell'anima naturaliter christiana: Atti della Accademia delle Scienze di Torino. Classe di Scienze morali, stor. e filologiche 88 (1953-1954), pp. 84-117.

Tixeront, J. La théologie anté-nicéenne, 9ème édition, Paris, 1924, pp. 409-410.

Tixeront, J. Tertullien moraliste, dans: Mélanges de patrologie et d'histoire des dogmes. Paris, 1919.

Waltzing, J.-P. et Severyns, A. Apologeticum (coll. Univ. de France), Paris, Belles-Lettres, 1929.

Turcan, M. De cultu feminarum (coll. "Sources chrétiennes", N°173). Cerf, Paris, 1971.

Vanbeck, A. La pénitence dans Tertullien: RHL (1912), pp. 350-369.

Warfield, B.B. Studies in Tertullian and Augustine. Oxford, 1930, pp. 1-109.

Waszink, J.H. Tertulliani Adversus Hermogenem Liber (Stromata 5). Utrecht, 1956.

Waszink, J.H. The technique of the clausula in Tertullian's De Anima: VC 4 (1950), pp. 212-245.

Witters. E. Tertullien, De Spectaculis. Index verborum omnium. Louvain, 1942.

Zeller, J. L'égalité et l'arbitraire dans les persécutions contre les chrétiens: AB 67 (1949), pp. 49-54.

الفهرس

صفحة

للمؤلف ٤
الاهداء ٥

ترتوليانوس القرطاجي

المقدمة ٩

القسم الأوّل: قرطاجة في التاريخ ١٣
١ـ قرطاجة قبل المسيح ١٥
١ـ "قرطاجة" مدينة "إليسّار" ١٥
٢ـ حروب "قرطاجة" ضدّ اليونان ١٨
٣ـ حروب "قرطاجة" ضدّ "روما" ٢٢
٤ـ "قرطاجة" بعد الحروب الفونيقيّة ٣٦
٢ـ قرطاجة بعد المسيح ٤٠

القسم الثاني: ترتوليانوس القرطاجي حياته ومؤلفاته ٤٩
١ـ حياة ترتوليانوس ٥١
٢ـ مؤلفات ترتوليانوس ٦٠
١ـ المؤلفات الدفاعيّة ٦٠
أ ـ الى الوثنيّين ٦١
ب ـ الدفاعي ٦٢
ج ـ شهادة النفس ٧٠
د ـ الى سكابولا ٧٤

هـ ـ ضدّ اليهود ٧٧
٢ـ المؤلفات الجدليّة ٧٩
أ ـ إقصاء الهراطقة ٧٩
ب ـ ضدّ ماركيون ٨٤
ج ـ ضدّ هرموجانوس ٨٦
د ـ ضدّ الفالنتينيّين ٨٨
هـ ـ العماد ٩٠
و ـ سكوربيتشي ٩٥
ز ـ جسد المسيح ٩٦
ح ـ قيامة الجسد ٩٩
ط ـ ضدّ براكسياس ١٠٠
ي ـ النفس ١٠٤
٣ـ المؤلفات التوجيهيّة والأدبيّة والنسكيَّة ١٠٩
أ ـ إلى الشهداء ١٠٩
ب ـ المشاهد ١١٣
ج ـ تبرّج النساء ١١٤
د ـ الصلاة ١١٨
هـ ـ الصبر ١٢٠
و ـ التوبة ١٢٢
ز ـ الى الزوجة ١٢٦
ح ـ الحضّ على العفَّة ١٣٠
ط ـ الزواج الأحادي ١٣١
ي ـ وشاح العذارى ١٣٣

ك ـ الاكليل ١٣٥
ل ـ الهرب من الاضطهاد ١٣٩
م ـ عبادة الأصنام ١٤٠
ن ـ الصيام ١٤٣
س ـ الاحتشام ١٤٤
ع ـ الرداء ١٤٦
٤ـ المؤلفات الضائعة ١٤٩
أ ـ الانخطاف ١٤٩
ب ـ رجاء المؤمنين ١٤٩
ج ـ الفردوس ١٥٠
د ـ ضدّ أبّيلّياكوس ١٥٠
هـ ـ معنى النفس ١٥٠
و ـ القضاء والقدر ١٥١
ز ـ الى صديقٍ فيلسوف ١٥١
ح ـ أثواب هارون ١٥١
ط ـ الجسد والنفس ١٥١

القسم الثالث: ترتوليانوس القرطاجي اللاهوتي والقانوني والمعلّم المتصوّف ١٥٣
١ـ الثالوث الاقدس في لاهوت ترتوليانوس ١٥٥
٢ـ الخلق في لاهوت ترتوليانوس ١٦٢
٣ـ التجسّد والفداء في لاهوت ترتوليانوس ١٦٨
٤ـ العذراء مريم في لاهوت ترتوليانوس ١٧٣
٥ـ الكنيسة في لاهوت ترتوليانوس ١٧٦

٦ـ الاسرار في لاهوت ترتوليانوس ١٨٠
أ ـ العماد والتثبيت ١٨١
ب ـ سرّ الإفخارستيا ١٨٥
ج ـ سرّ التوبة ١٨٩
١ـ كتاب "التوبة" ١٨٩
٢ـ كتاب "الاحتشام" ١٩٢
٧ـ الثواب والعقاب في لاهوت ترتوليانوس ١٩٩
الخلاصة ٢٠٤

القسم الرابع: مختارات من مؤلفات ترتوليانوس
القرطاجي ٢٠٧
١ـ وحدانية الثالوث في ثلاثة أقانيم ٢٠٩
٢ـ الابن منبثقٌ من الآب كما تنبثق الأشعة من
الشمس ٢١٠
٣ـ الحقيقة غريبةٌ في هذا العالـم ٢١١
٤ـ إطلاق حريّة الدين والعبادة للمسيحيين ٢١٢
٥ـ السلطة هي للّـه وحده وليس للأباطرة والحكّام ..٢١٣
٦ـ المسيحيون ليسوا أعداء الدولة والجنس البشري
لأنهم يحبّون جميع البشر ويعملون للسلام الحقيقي
في العالـم ٢١٥
٧ـ شهادة النفس البشريّة على إثبات وجود اللـه ... ٢١٧
٨ـ الطبيعة تعلّم النفس وترشدها الى أنّها صورة
اللـه في هذا الكون ٢١٨
٩ـ ذبائح المسيحيين هي الصلاة ٢١٩

١٠ـ العالم سجنٌ كبير والاستشهاد تحرّر في الله ٢٢٠
١١ـ الاحتشام هو الفضيلة المسيحيّة الأولى ٢٢١
١٢ـ الصبر هو الفضيلة المسيحيّة الحقيقيّة التي تعلو
على كلّ فضيلة ٢٢٢
١٣ـ التوبة وعدم العودة الى الخطيئة ٢٢٣
١٤ـ سعادة الزواج المسيحي الحقيقي ٢٢٥

القسم الخامس: ملحق ٢٢٧
١ـ ملحق أوّل: المجامع المسكونيّة ٢٢٩
٢ـ ملحق ثان: أهم الهرطقات في الكنيسة ٢٣٥
٣ـ ملحق ثالثٌ: آباء الكنيسة وملافنتها ٢٤٣
٤ـ ملحق رابع: معجم الكلمات ٢٥١
٥ـ ملحق خامس: الالفاظ اليونانية والسريانية
المتداولة كنسيًّا ٢٥٩

المراجع ٢٧١

مطبعة الحرّية

شارع المطران مسرّة - ملك ناصيف لحيان - الاشرفية

تلفون ٣٢٠٤٤٠ - بيروت - لبنان